٢٨ سلسلة تعرّف الى كنيستك



الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة

الجزء الأول

كريستين شايو

الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة
كنيسة الهند السريانيّة الأرثوذكسيّة
الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة
للنشر والتوزيع م.م

الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة
الجزء الأوّل

سلسلة «تعَرَّف إلى كنيسَتك» ٢٨

كريستين شايّو

الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة

الجزء الأوّل

الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة
كنيسة الهند السريانيّة الأرثوذكسيّة
الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة
للنشر والتوزيع م.م.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.

أنجزت مطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر تشرين الأول ٢٠١٢

الفهرس

هذا كتاب عن «الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة»، ستصدره تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع بجزئين، وهو يشمل في الجزء الأوّل، الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وكنيستي الهند السريانيّة الأرثوذكسيّة، والكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة. وفي الجزء الثاني يتناول الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة، والكنيسة الحبشيّة الأرثوذكسيّة. نشرته المؤلّفة كريستين شايّو أصلاً في كتب عدّة، باللغة الإنكليزيّة.

في العام الـ١٩٦٦ صدر في جنيف كتاب عن الكنيسة الأرثوذكسيّة مالنكارا في الهند. تبعه في الـ١٩٩٨ مؤلَّف عن الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، صدر أيضًا في جنيف. في العام الـ٢٠٠٢ صدر كتاب آخر في باريس عن التقليد الكنسيّ الإثيوبيّ التوحيديّ، وعن الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة في العام ٢٠٠٥. ثمّ جُمعت هذه المؤلّفات في كتاب واحد باللغة الفرنسيّة، وزادت الكاتبة عليها في العام الـ٢٠١١ دراسة عن الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة، ونصًّا جديدًا عن الكنيسة في الهند، تحت عنوان «حياة وروحانيّة الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة»، صدر في باريس.

رجعنا إلى الكتب الأصليّة باللغة الإنكليزيّة، والتي نُقلت النصوص المتعلّقة إلى العربيّة من قبل كلّ من الكنائس المختصّة. استأذن ريمون رزق، المؤلّفة، باستعمال تلك الترجمات، وتعديلها طبقًا للنصوص النهائيّة التي صدرت في العام الـ٢٠١١. ونقل إلى العربيّة دراسة عن الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة والكنائس الهنديّة.

المقدّمة

تهيّأوا، أيّها القرّاء الأعزاء، عند مطالعة هذا الكتاب، إلى جولة في تاريخ الشرق الأوسط، وواقعه الراهن، تحثّكم على التعرّف إلى جماعات مسيحيّة قديمة، ساهمت في توطيد الدين المسيحيّ، منذ عصر المسيحيّة الأوّل، وتستمرّ، رغم المصائب الجسيمة التي حلت بها، عبر العصور.

هؤلاء المسيحيّون هم شهود أحياء للكنيسة الأولى. فالسريان يتكلّمون لغة قريبة من التي تكلّمها الربّ، بشّروا بالإنجيل في أقاصي الشرق، وساهموا مساهمة أساسيّة في نقل التراث الإغريقيّ إلى العالم. والكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، في الهند، هي أبلغ شهادة لسعيهم التبشيريّ الأصيل. وكان الأرمن أوّل مَن أسّس دولة مسيحيّة، في أوائل القرن الرابع، واستمرّوا على إيمانهم، رغم حروب الإبادة التي تعرّضوا لها، مرارًا. أمّا الأقباط، فنشروا الإيمان المسيحيّ في منطقة وجودهم، منذ أيّام مرقس الإنجيليّ، ويشهدون الآن نهضة روحيّة بارزة، قلّما عاشت مثيلاتها الكنائس المحلّيّة الأُخَر. أمّا الكنيسة الحبشيّة، التي كانت تتّبع الكنيسة القبطيّة في منتصف القرن العشرين، فساهمت، منذ القرن الرابع، في تنصير بلادها الإفريقيّة، وحافظت على عناصر تقليديّة فريدة، تخاطب الثقافة الإفريقيّة الأصيلة.

لن نتكلّم هنا على المأساة التي حدثت في الشرق المسيحيّ، بعيد المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ الرابع، حيث رفضت تلك الكنائس تعاليمه، وحدث آنذاك انشقاق في معظم الكنائس الشرقيّة،

ربّما سهّل في تقهقر المسيحيّة، في ما بعد، في تلك الديار. نقول مأساة، لأنّ الحوارات الحديثة، التي جمعت تلك الكنائس بالكنائس الخلقيدونيّة، ومنها كنيستنا الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة، ابتداء من ستّينات القرن الماضي، بعد قرون من التباعد والحرب الكلاميّة والحرم المتبادل، بيّنت أنّ الخلاف لم يكن سوى خلاف لفظيّ، وأنّ الأسباب السياسيّة والعرقيّة قامت بالدور الأهمّ في خلق الانشقاق وتوطيده. إذًا هؤلاء المسيحيّون هم إخوتنا في الإيمان، يعتقدون مثلنا، أنّ المسيح هو إله حقّ وإنسان حقّ، في شخص (أقنوم) واحد. أعلن هذا الإيمان المشترك منذ سنوات ممثّلون عن العائلتين الكنسيّتين، وطلب إلى الكنائس جميعًا أن تأخذ الإجراءات الكفيلة بإعادة الشركة الكلّيّة بينهما. ولكن، لسوء الحظ، تتباطأ بعض الكنائس، غير مبالية بضرورة العودة إلى الوحدة، وطلب الغفران عن كلّ التصرّفات البعيدة عن روح الإنجيل التي قام بها الطرفان. فعلينا بالصلاة الحارّة لكي يُلهم الله الجميع العمل بوصيّته الملحاح «أن تكونوا واحدًا لكي يؤمن العالم».

وربّما تكمن أوّل خطوة على طريق إعادة الوحدة الطويل، في السعي إلى معرفة بعضنا بعضًا، بطريقة فضلى. وعلينا الإقرار بأنّنا، رغم معايشتنا اليوميّة لإخوتنا هؤلاء، لا نعرف سوى القليل، القليل عنهم. لذا قرّرت تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع، تعريب هذا الكتاب الذي بين أيديكم، مساهمة متواضعة منها، كي نتعرّف إلى حياة هذه الكنائس الشقيقة وروحانيّتها، ونكتشف بعض ما يربطنا بها، في تقليدنا، وتاريخنا، وصلاتنا، وبعض وجوهها الكبار الذين أثّروا كثيرًا في بلورة الحياة الروحيّة المسيحيّة، والذين يتشابهون بكبار الآباء والروحيّين لدينا، إذ إنّ القداسة هي المكان الأمثل الذي يوحّد

الناس، في توقهم المشترك إلى رحمة الله، وابتغاء وجهه.

مؤلّفة هذا الكتاب، الذي سننشره في جزئين، هي كريستين شايّو، المولودة في سويسرا، والتي اهتدت منذ سنوات إلى إيمان كنيستنا الأرثوذكسيّة. ولشعورها بضرورة التلاقي مع الأرثوذكسيّين الشرقيّين، أسّست في أوروبّا، هيئة «لدعم الحوار بين عائلتي الكنائس الأرثوذكسيّة»، التي تنظّم مؤتمرات وحملات توعية وتقارب، في أنحاء كثيرة من العالم. وأذنت لنا، مشكورة، بتعريب كتابها هذا ونشره.

وربّما تكمن أفضل نهاية لهذه المقدّمة في قول القدّيس غريغوريوس الكبير، من دير ناريك الأرمنيّ، الذي عاش في القرن العاشر، وهو الشاهد بامتياز على الحياة الروحيّة الأصيلة، ومحبّة يسوع المجّانيّة، إذ قال: «أستمرّ في ابتهالاتي ليس لكسب شيء منه، بل لأنّ الربّ هو الحياة الحقّ، ولا لأفتّش عن هباته، بل عنه، وأشتاق إليه. لا أسعى وراء الراحة، بل وراء وجه الذي يعطي الراحة التي أطلب، متضرّعًا» (في كتاب الصلوات). فليعطنا الربّ أن نصبو جميعنا إلى وجهه المنير، عساه يجعلنا نكتشفه في وجوه بعضنا البعض.

ريمون رزق

القسم الأوّل

الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة

مقدّمة

بطريرك كنيسة أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس هو قداسة مار إغناطيوس زكّا الأوّل عيواص، وهو البطريرك الـ١٢٢ في سلسلة البطاركة. ومقرّ الكرسيّ الرسوليّ اليوم هو دمشق، في سورية، ويفخر السريان الأرثوذكس بأن يكونوا من سلالة كرسيّ القدّيس بطرس الرسوليّ في أنطاكية، وينتمون إلى التقليد السريانيّ «الغربيّ».

أُطلق على كنيسة المشرق، اسم الكنيسة «النسطوريّة»، بينما تفضّل هي أن تُدعى الكنيسة الآشوريّة. أصبحت كنيسة مستقلّة في العام الـ٤٢٤ واستقرّت بطريركيّتها الأولى في سلوقية كتزيفون، في الجنوب الشرقيّ من بغداد، في بلاد فارس الساسانيّة.

وحسب الاصطلاحات المسيحيّة، يُطلق عليهم اسم «سريان» أو «آشوريّين» على حدّ سواء. تُستعمل عبارة «سريانيّ» غالبًا للإشارة إلى اللغة والثقافة، كما تُستعمل عبارة «سوريّ» للدلالة على الجماعة الأرثوذكسيّة نفسها (Syrian orthodox)، من دون أن يشير هذا الاستعمال إلى أيّ صلة مباشرة مع سورية، مع أنّه تعيش في سورية جماعة سريانيّة وفيها مقرّ البطريركيّة.

دُعي تلامذة المسيح «مسيحيّين»: للمرّة الأولى في أنطاكية. وكانت أنطاكية في أيّام المسيح مركزًا تجاريًّا «دوليًّا» مهمًّا، وعاصمة مقاطعة سورية الرومانيّة. وكانت متعدّدة الألسن، تضمّ الآراميّين واليونان والعرب. وكانت أنطاكية مركزًا هيلّينيًّا. واللغة اليونانيّة هناك كما في مدن ساحليّة أخرى، هي اللغة الشائعة المستعملة في الإدارة والثقافة،

وكذلك الليتورجيا. إلاّ أنّ غالبيّة الناس، وبخاصّة في الريف، كانت تتكلّم وتصلّي بالسريانيّة، وهي لغة قريبة من اللغة الآراميّة التي تكلّم بها السيّد المسيح.

ويُقال إنّ القدّيسين أدّي وماري وآجي والرسول توما، جاؤوا بالمسيحيّة أوّلاً إلى المناطق الواقعة في الشمال الشرقيّ من أنطاكية، ومن الرها (إقليم أسورين) ونصّيبين، وحتّى المناطق الشماليّة العليا من بلاد ما بين النهرين، أي السهل الواقع بين نهري دجلة والفرات. وهناك نشأت مراكز مهمّة للدراسات الدينيّة من أجل المسيحيّين الناطقين باللغة السريانيّة. ومن هناك انتشرت المسيحيّة نحو المناطق المجاورة. وأصبحت بعض القبائل الناطقة باللغة العربيّة، مثل قبائل غسّان مسيحيّة. فلو تطلّعنا إلى خريطة حديثة، لرأينا أنّ هذه الأماكن، الواقعة اليوم في شمال سورية، وجنوب شرق تركيا، وشمال شرق العراق، هي مهد المسيحيّين الناطقين باللغة السريانيّة.

ينحدر الناطقون باللغة السريانيّة من الآراميّين الذين كانوا قبائل ساميّة بدأت بالظهور في القرن الحادي عشر ق.م. شمال ما بين النهرين (الفرات الأعلى). قاموا من القرن العاشر وحتّى القرن الثامن ق.م. بدور سياسيّ مهمّ في سورية. ويذكر الكتاب المقدّس الآراميّين في تاريخ الآباء مثل إبراهيم، الذي جاء والده من أور، وإسحق، ويعقوب، ولاحقًا أيضًا في زمن الملك داود والملك سليمان. ويذكر المرء كلمات إبراهيم «كان أبي آراميًّا هائمًا».

كما تُعرف أيضًا حضارات عظيمة أخرى في بلاد ما بين النهرين، مثل الحضارة السومريّة، والآشوريّة والبابليّة. ويُشير العهد القديم

إلى العديد من الآشوريّين الأشدّاء، ومن بينهم الملك سرغون الثاني ٧٠٥-٧٢٢ وآشور بانيبعل (نهاية القرن السابع ق.م.) ونبوخذنصّر الثاني (القرن السادس قبل الميلاد)، كما يشير إلى أماكن مشهورة، مثل بابل ونينوى، آخر عاصمة آشوريّة في القرن السابع ق.م. التي تقع قرب مدينة الموصل الحديثة.

منذ بدء المسيحيّة كان على السكّان السريان الأرثوذكس التنقّل مرّات عديدة. أوّلاً لأنّ بلاد ما بين النهرين كانت تقع عند الحدود الشرقيّة، في ما كانت أوّلاً الأمبراطوريّة الرومانيّة ولاحقًا الأمبراطوريّة البيزنطيّة. واعتبر المسلمون المسيحيّون أهل ذمّة أو أناسًا «محميّين» كان عليهم دفع جزية باهظة.

وكان كرسيّ أنطاكية الرسوليّ حتّى انشقاق خلقيدونية في العام «الـ٤٥١ كرسيًّا مشتركًا بين السريان وأرثوذكس أنطاكية الخلقيدونيّين. إلاّ أنّه كان على السريان الأرثوذكس بعد ذلك أن يغادروا كرسيّ أنطاكية في العام الـ٥١٨»، وأن ينقلوا مقرّ بطريركيّتهم الرئيس إلى مدن أو أديرة أخرى في سورية، في منطقة حلب، ولاحقًا في شمال بلاد ما بين النهرين. واستمرّت هذه الحال من الترحال قرونًا.

انتشرت المسيحيّة بين القرنين الثالث والخامس، ليس فقط في بلاد ما بين النهرين بأجمعها، بل تعدّت ذلك شرقًا إلى الجزيرة العربيّة. كانت مناطق المسيحيّين السريان الشرقيّين، أو الآشوريّين، والسريان الغربيّين، أو السريان الأرثوذكس حتّى أواسط القرن السابع، مقسّمة عمليًّا بحسب الحدود البيزنطيّة - الفارسيّة، إلاّ أنّه كانت هناك أبرشيّات سريانيّة أرثوذكسيّة في بلاد فارس الساسانيّة.

وكان الساسانيّون (٢٢٤-٦٤١) زردشتيّين، أو من أتباع زردشت، وهو مؤسّس النظام الدينيّ الثنائيّ عند المجوس وبلاد فارس القديمة، والذي ما زال موجودًا اليوم بين الفارسيّين. وبعد الفتح العربيّ، زالت هذه الحدود وانتقل السريان الأرثوذكس إلى المنطقة الفارسيّة، لا بل ما هو أبعد باتّجاه الشرق. ومنذ النصف الأوّل من القرن السابع أنشئت بعض التجمّعات السريانيّة الأرثوذكسيّة في المناطق الشرقيّة النائية حتّى أذربيجان، وسيجستان وخراسان، لا بل، وصلت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر حتّى تركستان الصينيّة (وهي اليوم سينكيانغ)، وغيفينتالاس، أي الشمال الشرقيّ من تركستان، التي لا تبعد عن مونغوليا، وفقًا لما جاء على لسان ماركو بولو.

ومنذ القرن السابع، وحتّى القرن التاسع عشر، تمّ تنظيم ما يُدعى بمفريانيّة المشرق للسريان الأرثوذكس، الذين كانوا يعيشون عمومًا على الجانب الشرقيّ من نهر دجلة، على أرض ساسانيّة سابقًا، في المقاطعات الشرقيّة، (الواقعة بشكل رئيس اليوم في العراق) وأبعد شمالاً أيضًا.

وخضع بعض المسيحيّين من جنوب الهند لسلطة بطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس في السنة الـ١٦٦٥.

وأضحت الزاوية الشماليّة الشرقيّة من بلاد ما بين النهرين (الواقعة اليوم في تركيا)، وبخاصّة في طورعبدين، مركز السريان الأرثوذكس، حيث استقرّت البطريركيّة من العام الـ١٢٩٣ إلى العام الـ١٩٣٣، في دير الزعفران، قرب ماردين.

حدث انشقاق في الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، عندما انضمّ

الأسقف أندراوس أخيجان (في السنة الـ١٦٧٧) في السنة الـ١٦٥٦، إلى كنيسة روما. ولكن لم يُعطَ لهذا الانضمام أن يستمرّ، فانقطعت العلاقة إلى أن انضمّ إلى روما أيضًا ميخائيل جروه، الذي أصبح أوّل بطريرك سريانيّ كاثوليكيّ في السنة الـ١٧٨٣. منذ ذلك الحين عمل الكاثوليك على اقتناص العديد من السريان الأرثوذكس الذين التحقوا بكنيستهم، بخاصّة في القرن التاسع عشر. وفي أوائل هذا القرن، بدأ المرسلون البروتستانت الأميركيّون عملهم في سورية والعراق، منذ العام الـ١٨١٩، كما التحق بهم في السنة الـ١٨٤٠، مرسلون بريطانيّون. واعترف الباب العالي العثمانيّ بملّة السريان الكاثوليك في السنة الـ١٨٣٠، وبملّة السريان الإنجيليّين في السنة الـ١٨٥٠. أمّا الجماعة السريانيّة الأرثوذكسيّة فلم يُعترف بها رسميًّا إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٢).

وكان على السريان الأرثوذكس قبل ذلك أن يقوموا بالاتّصال بالإدارة العثمانيّة عبر البطريركيّة الأرمنيّة في القسطنطينيّة. وفي العام الـ١٩٢٣ أشارت معاهدة لوزان إلى الحماية الضروريّة للأقلّيّات الدينيّة في تركيا من دون ذكر السريان الأرثوذكس. إلاّ أنّ حرّيّة المعتقد، والتعليم الدينيّ، ونشر الثقافة السريانيّة لم تكن مسموحة في تركيا في الكثير من الأحيان، خلال القرن العشرين.

مع أنّ هذه الكنيسة القديمة الجليلة احتملت الكثير من الاضطهاد عبر القرون، إلاّ أنّ شعبها بقي دائمًا شاهدًا للمسيح، ومات العديد من أفرادها شهداء في مناسبات عدّة. ففي الحرب العالميّة الأولى استشهد ما لا يقلّ عن ١٠٠٠٠٠ من السريان الأرثوذكس، أي

نحو ثلث تعدادهم آنذاك في المنطقة الموجودة اليوم في جنوب شرق تركيا. بيد أنّ أولئك المؤمنين الذين هربوا إلى أماكن أخرى في الشرق الأوسط، على الأغلب إلى سورية، ولبنان والعراق، وإلى أجزاء أخرى من العالم، أعادوا، منذ ذلك الحين وبشكل يدعو إلى الدهشة، تنظيم كنيستهم التي تعيش اليوم نسمة حياة جديدة.

أمّا بالنسبة إلى مؤلّفات الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، فبلغت ذروتها من القرن الخامس وحتّى القرن الثالث عشر. عندما قهر العرب المسلمون بلاد فارس الساسانيّة ومعظم المقاطعات الشرقيّة من الأمبراطوريّة البيزنطيّة، أدخل نظام سياسيّ ودينيّ وثقافيّ جديد إلى آسيا الغربيّة. وحظي بعض السريان الأرثوذكس بمراكز عالية في بلاط الفرس وعند الخلفاء لاحقًا، فكانوا مثلاً أطبّاء الحكّام، وأحيانًا من القادة السياسيّين.

كما نقلت الفلسفة والعلوم اليونانيّة عبر ترجمات وضعها السريان من اليونانيّة إلى العربيّة.

للكنيسة المارونيّة، التي اتّحدت رسميًّا مع كنيسة روما في العام الـ١٢١٥، ولكنيسة الروم الأرثوذكس الأنطاكيّة جذور راسخة في التقليد المسيحيّ السريانيّ.

من ذلك الماضي اللامع، ما زال اليوم نحو ٢٥٠٠٠٠ سريانيّ أرثوذكسيّ يعيشون في الشرق الأوسط، ونحو ١٥٠٠٠٠ في أنحاء أخرى من العالم، في أميركا الشماليّة والجنوبيّة، وفي أوروبّا وأستراليا، ويوجد نحو مليون مسيحيّ من السريان الأرثوذكس يعيشون في الهند ويتبعون

للبطريركيّة. كما يشكّل مليون آخر من السريان الأرثوذكس في الهند كنيسة مالنكارا الأرثوذكسيّة المستقلّة.

ويجتمع مجمع أساقفة الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة (وكان عددهم ٣٠ في السنة الـ٢٠٠٨) مرّة في السنة.

وتتّبع الكنيسة القانون الذي وضعه برهبرايوس (nomocanon) في القرن الثالث عشر. أمّا نظام الكنيسة الحاليّ فيشمل عددًا من البنود التي قرّرها مجمع عُقد في حمص في السنة الـ١٩٣٨ ومجمع آخر عُقد في دمشق في السنة الـ١٩٣٧. وتُصدر البطريركيّة مجلّتها الخاصّة.

وهأنذا أدعو القارئ إلى اكتشاف هذه الكنيسة الرسوليّة، الثريّة بتقليدها المسيحيّ القديم، وهي اليوم واحدة من الأقلّيّات المسيحيّة في الشرق الأوسط، والتي لا تعرفها لسوء الحظ معرفة جيّدة الجماعات المسيحيّة الأخرى. عانت العزلة والاضطهاد من أجل البقاء عبر العصور. وها قد آن الوقت لتقديرها.

وكما يكتب الدكتور سيبستيان بروك، وهو الاختصاصيّ في الدراسات السريانيّة: «تمثّل الروحانيّة السريانيّة نموًّا حقيقيًّا للعالم الساميّ الذي اندفق من الكتاب المقدّس... ولا بدّ من أن تسهم روحانيّتها في الروحانيّة المسيحيّة ككلّ».

الفصل الأوّل

لمحة تاريخيّة

تعطينا كتابات المؤرّخين وكتّاب الأسفار السريان الأرثوذكس معلومات عن كنيستهم وعنهم في آن، منذ زمن الأمبراطوريّة الفارسيّة الساسانيّة، وحتّى الغزوات المغوليّة والعربيّة وما تلاها. أشهر المؤرّخين السريان الأرثوذكس هم التالية أسماؤهم: يوحنّا الأفسسيّ، الذي كتب عن أحداث نهاية القرن السادس (٥٧٥-٥٨٥) في عمله التاريخ الكنسيّ، وزكريّا الفصيح الذي كتب عمله التاريخ الكنسيّ في نهاية القرن السادس، ويعقوب الرهاويّ المتوفّى في العام الـ٧٠٨ الذي كتب السفر. وهناك سفر مفقود من القرن التاسع كتبه البطريرك ذيونيسيوس التلمحريّ المتوفّى العام الـ٨٤٥. كما أنّ البطريرك ميخائيل الأوّل المدعو أيضًا ميخائيل الكبير، هو أشهر مؤرّخ سريانيّ أرثوذكسيّ أنهى سِفره في العام الـ١١٩٥. كما كتب المفريان غريغوريوس يوحنّا ابن العبريّ المتوفّى العام الـ١٢٨٦ سِفرين: التاريخ المدنيّ، والتاريخ الكنسيّ وكان لهما اهتمام خاصّ بالأعوام الـ١١٩٣ إلى الـ١٢٨٦، وقد قابل هو نفسه الملك المنغوليّ هولاكو.

لا بدّ لمن يهتمّ بتاريخ الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، بل بتاريخ الكنيسة العامّ وتاريخ الشرق الأوسط، من أن يقرأ هذه الكتابات بكثير من الانتباه، ليفهم الأحداث التاريخيّة من وجهة نظر سريانيّة أرثوذكسيّة.

ليست السطور التالية سوى ملخّص وعرض سريع لهذا

التاريخ الصاخب بالأحداث.

يعتبر السريان الأرثوذكس القدّيس مار بطرس الرسول أوّل أسقف لهم (نحو ٣٣-٤٠). فبعد أن غادر بطرس أنطاكية مع بولس ليبشّر العالم، حلّ إيفوديوس محلّه ويُقال إنّه مات شهيدًا في عهد الأمبراطور نيرون (٥٤-٦٨). وخلفه إغناطيوس، الذي استشهد في روما (نحو ١١٠)، في عهد الأمبراطور تراجان (٩٨-١١٧). واحترامًا له، فإنّ إغناطيوس هو الاسم الذي يُطلق بعامّة على كلّ البطاركة السريان الأرثوذكس ابتداءً من منتصف القرن الخامس عشر.

امتدّت سلطة كرسيّ أنطاكية من مقاطعة الجزيرة العربيّة الرومانيّة (أي بُصرى، وهي اليوم في جنوب سورية قرب الحدود الأردنيّة)، سورية، وبلاد ما بين النهرين الرومانيّة (آمد دياربكر، اليوم في جنوب شرق تركيا) وحتّى كيليكية وقبرص.

كانت أنطاكية الواقعة على نهر العاصي عاصمة مقاطعة سورية، والمدينة الثالثة في الأمبرطوريّة الرومانيّة، حتّى تأسيس القسطنطينيّة في العام الـ٣٣٠. وكانت أنطاكية حتّى ذلك الحين، ومنذ أيّام الإسكندر الكبير (٣٥٦-٣٢٣ ق.م.) في عهد السلالة السلوقيّة، عاصمة الإقليم. والمدينة المدعوّة اليوم أنطاكية هي مدينة صغيرة في الجنوب الشرقيّ من تركيا، عند الحدود السوريّة.

سرعان ما انتشر الإنجيل في الرها، وهي على بعد ٢٦٠ كيلومترًا إلى الشرق من أنطاكية وما جاورها، حيث عاش الناطقون باللغة السريانيّة. وقد يكون أبجر الثامن (١٧٩) ملك الرها (إقليم أوسروين،

صار مسيحيًّا نحو العام الـ٢٠٠). ويرتبط اسم الرها أيضًا بالملك أبجر الخامس. وبناء على ما يقوله التقليد، عندما كان هذا الأخير مريضًا سمع عن المسيح الشافي، فأرسل إليه رسالة وجوابًا عن رسالته أرسل المسيح إليه المنديل، وهو قطعة قماش طُبع عليها وجه المسيح. ويُقال إنّ المنديل بقي في الرها حتّى العام الـ٩٤٤، عندما جيء به إلى القسطنطينيّة، حيث أحدث العديد من المعجزات. وفقدت مدينة الرها شهرتها كمدينة مسيحيّة، بسبب الغزوات المتكرّرة. ويُدعى المكان اليوم أورفا، في تركيا، ومنذ العشرينات من القرن العشرين خلت الرها أو أورفا من المسيحيّين.

اتّسعت رقعة انتشار المسيحيّة خلال القرون الثلاثة الأولى، إلاّ أنّ المسيحيّين عانوا الاضطهاد في الأمبراطوريّة الرومانيّة، وذلك إلى حين صارت المسيحيّة دين الدولة في الأمبراطورية البيزنطيّة في القرن الرابع. ومنذ العام الـ٢٢٤، وعلى مدى ما يربو على ٤٠٠ عام، حكمت السلالة الساسانيّة (الزردشتيّة) بلاد فارس، تخلّلتها فترات من التسامح ومن الاضطهاد ضدّ المسيحيّين.

وفي العام الـ٣٦٣ خلت مدينة نصّيبين التي يتكلّم أهلها السريانيّة، والواقعة على الحدود الشرقيّة للأمبراطوريّة الرومانيّة. وهكذا المسيحيّون السريان المحلّيّون، ومن بينهم القدّيس مار أفرام السريانيّ اتّجهوا بعيدًا إلى الغرب من نصّيبين، إلى الرها، التي كانت مركزًا مهمًّا للثقافة السريانيّة.

انتقلت النزاعات السياسيّة والحروب بين الرومان والفرس، بعد ذلك، إلى البيزنطيّين والفرس (٣٢٥-٦٣٠). وفي العام الـ٥٣٢

وقّع الأمبراطور يوستنيانوس معاهدة سلام مع الفرس، إلاّ أنّ جيش قورش احتلّ أنطاكية في العام الـ٥٤٠. وفي العام الـ٦١٣ احتلّ الفرس دمشق ونهبوا أورشليم، ووصلوا إلى مصر، والأناضول حيث استقرّوا العام الـ٦٢٨، عندما دحرهم الأمبراطور البيزنطيّ هرقل.

لم تقبل كنيسة المشرق قرارات مجمع أفسس (٤٣١). كما أحدث الالتباس الحاصل في مجمع خلقيدونية (٤٥١) المزيد من الانقسام في الكنيسة. بقي سويريوس بطريركًا على مدينة أنطاكية منذ العام الـ٥١٢ وحتّى العام الـ٥١٨، إلاّ أنّه نُفي بعدئذ إلى مصر، في العام الـ٥١٨، حيث مات في العام الـ٥٣٨. وهذا ما أحدث انشقاقًا جديدًا في بطريركيّة أنطاكية بين الخلقيدونيّين (الروم الأرثوذكس) واللاخلقيدونيّين (السريان الأرثوذكس).

عانت كنيسة أنطاكية السريانيّة الأرثوذكسيّة عزلة بعد العام الـ٤٥١. وقام يعقوب البرادعيّ (المتوفّى في العام الـ٥٧٨)، الذي كان العام الـ٥٤٣ أسقفًا سريانيًّا أرثوذكسيًّا على الرها، بدعم الجماعات اللاخلقيدونيّة بجهود جبّارة عبر الوعظ ورسامة الإكليروس. وسافر كثيرًا، متنقّلاً في سورية وبلاد ما بين النهرين، وكيليكية، وكبادوكيا وإيصوريا، ووصل إلى الجزيرة العربيّة ومصر. ويصف يوحنّا الأفسسيّ نشاطات يعقوب البرادعيّ، في تاريخه الكنسيّ. وفي العام الـ٥٥٩، نصّب البرادعيّ أحودامه، أوّل «متروبوليت على المشرق». وتحوّل هذا اللقب إلى «مفريان»، مع انتخاب ملروثا (المتوفّى في العام ٦٤٩). وكان مقرّه الرئيس على الأغلب في تكريت والموصل، إلاّ أنّه انتقل أحيانًا إلى أماكن أخرى، مثل دير القدّيس متّى المسمّى مار ماتايّ. ألغيت

المفريانيّة في العام الـ١٨٥٩ بقرار مجمعيّ.

إلى أيّ مدى تحرّك السريان الأرثوذكس باتّجاه الشرق ولماذا؟

حدثت أوّلاً، من العام الـ٢٤١ إلى الـ٢٦٠، أعمال ترحيل السجناء من الأراضي الرومانيّة إلى الأراضي الفارسيّة الساسانيّة. تمّ في العام الـ٦٠٩ ترحيل بعض السريان الأرثوذكس من الرها بعد أن استولى عليها الفرس، وفي العام الـ٦٢٨ رافق بعض التجّار السريان الأرثوذكس هرقل إلى الأرض الفارسيّة. وبخاصّة في زمن الغزوات العربيّة والمغوليّة لبلاد فارس سُبي العديد من السريان الأرثوذكس. وحينئذ صار عدد السريان الأرثوذكس أكبر في المقاطعات الشرقيّة ممّا كان عليه في المقاطعات الغربيّة. وتأسّست ثلاث أسقفيّات، على الأرجح في القرن السابع، وأصبحت بعدها متروبوليّات نحو العام الـ٦٤٠، في حرّان وعقره (وكلتاهما في أفغانستان اليوم)، وفي زارانج (في إيران اليوم). ودُعي جرجس (المتوفّى العام الـ٧٢٤) «أسقف العرب» لكونه يرعى القبائل العربيّة في سورية وما بين النهرين.

وهكذا، امتدّت الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة حتّى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، من آسيا الوسطى إلى سجستان (وهي اليوم بين إيران وأفغانستان)، ومن أورشليم والجزيرة العربيّة إلى أذربيجان (مراغة، تبريز). ومن المعروف أنّ تبريز، العاصمة في عهد المغول، كانت مقرّ أسقفيّة سريانيّة أرثوذكسيّة بين ١٢٦٤ و١٣٠٢. وظلّ السريان الأرثوذكس موجودين في شيراز وأصفهان، في إيران، حتّى القرن السابع عشر على الأقلّ.

حدثت تغيّرات سياسيّة كبيرة عندما احتلّ العرب سورية بين

٦٣٤ و٦٣٨، وأنطاكية نحو العامين الـ٦٣٦ والـ٦٣٨، والرها في العام الـ٦٤٠، وبلاد فارس نحو الـ٦٤٠. وهذا ما أنهى الحكم البيزنطيّ في سورية والحكم الساسانيّ الفارسيّ في الشرق. سمح الحكم العربيّ بتوحيد سورية، وبلاد ما بين النهرين وفارس. وكان على المسيحيّين دفع ضريبة خاصّة، هي الجزية. وأقام الأمويّون من العام الـ٦٦١ وحتّى العام الـ٧٥٠ عاصمتهم في دمشق، وكان لهم في البدء نهج سياسيّ متسامح مع المسيحيّين.

وكانت الفترة الممتدّة من العام الـ٧٥٠ إلى العام الـ١٢٥٨ عصر العبّاسيّين الذهبيّ، وجعل هؤلاء عاصمتهم في بغداد. إلاّ أنّه وُضعت بعض القيود الدينيّة في هذا الوقت. وأيضًا في نهاية القرن الحادي عشر، استولى السلاجقة وهم قبيلة «تركيّة» على بغداد في العام الـ١٠٥٥، ثمّ على أورشليم ودمشق. وفي العام الـ١٠٩٨ وصل أوّل الصليبيّين إلى الرها، وتبعهم الأتراك من العام الـ١١٤٤ إلى الـ١١٤٦.

كان القرنان الثاني عشر والثالث عشر أفضل فترات الازدهار والتجدّد بالنسبة إلى السريان الأرثوذكس، الذين تميّزوا بوجود شخصيّات بارزة أمثال ذيونيسيوس ابن الصليبيّ المتوفّى في العام الـ١١٧١، وميخائيل الكبير المتوفّى في العام الـ١١٩٩، والمفريان يوحنّا ابن العبريّ المتوفّى في العام الـ١٢٨٦.

انهارت الخلافة العبّاسيّة مع وصول المغول الذين مالوا إلى المسيحيّين أوّلاً: وكان لهولاكو، حفيد جنكيزخان، الذي قهر بغداد في العام الـ١٢٥٨، زوجة مسيحيّة. إلاّ أنّ الاضطهاد بدأ في القرن الرابع عشر، وبخاصّة مع تيمورلنك، وحلّ الضعف بالسكّان السريان

الأرثوذكس بشكل كبير في عهده، كما هُدم العديد من الكنائس والأديرة. وهذه كانت البداءة الحقيقيّة لانحطاط دام طويلاً. وقام الأتراك المماليك، في القرن الرابع عشر، بالعديد من أعمال البطش من العام الـ١٢٥٠ إلى العام الـ١٥١٧.

هكذا، وبعد فترة أولى من التعايش السلميّ مع العرب، تبعتها بشكل مُتقطّع، من القرن الثامن فصاعدًا، فترات من الاضطهاد، نجم عنها التحاق كثير من السريان بالإسلام. وحتّى ذلك الحين، كان السريان الأرثوذكس أكبر جماعة مسيحيّة في سورية وشمال غرب العراق. ومن القرن الرابع عشر وحتّى القرن العشرين، تمركزت الجماعات السريانيّة الأرثوذكسيّة على الغالب في الجنوب الشرقيّ من تركيا، وفي شمال العراق، وسورية.

بعد أن فتح الأتراك العثمانيّون القسطنطينيّة في العام الـ١٤٥٣، حكموا سكّان معظم الشرق الأوسط، بما في ذلك سورية وبلاد ما بين النهرين، أي العراق حديثًا، من دون فارس، حتّى ما بعد الحرب العالميّة الأولى في العام الـ١٩١٤. واستولى العثمانيّون على سورية في العام الـ١٥١٦ وكان الشعب السريانيّ الأرثوذكسيّ ضمن الملّة المرتبطة ببطريركيّة الأرمن في القسطنطينيّة، التي كانت تضمّ كلّ المسيحيّين غير الخلقيدونيّين من رعايا السلطان. كانت الأرثوذكسيّتان الأرمنيّة واليونانيّة، اللتان كان بطاركتهما الوسطاء لدى الباب العالي أو السلطة العثمانيّة، إذ كانتا الملّتين الوحيدتين المعترَف بهما رسميًّا حتّى القرن التاسع عشر. وتمّ الاعتراف بالكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة كملّة مستقلّة في عهد البطريرك بطرس الرابع (١٨٧٢-١٨٩٤) في

العام الـ١٨٨٢.

في القرن التاسع عشر كان العديد من السريان الأرثوذكس يعيشون قرب البطريركيّة الموجودة، في ذلك الحين، في دير الزعفران، قرب ماردين، في الجنوب الشرقيّ من تركيا الحديثة. وفي نهاية القرن التاسع عشر، حصل اضطهاد على يد الأكراد والأتراك في تلك المنطقة. وحدثت أولى المذابح المهمّة في دياربكر العام الـ١٨٩٥، تبعتها المذبحة الجماعيّة بين الأعوام الـ١٩١٥ والـ١٩١٧. وهذه الأحداث معروفة في تاريخ الأرمن الحديث المأساويّ. ولكن قلّ ما يُعرف عن حقيقة كون السريان ضحايا الفظائع عينها، في الوقت ذاته، إذ مات ثلثهم، أي نحو ١٠٠٠٠٠، بخاصّة في دياربكر، وخربوت، وماردين، وطورعبدين وأورفا (الرها القديمة). وتمكّن البعض من الهرب إلى البلاد المجاورة، إلى سورية ولبنان، وكذلك إلى أماكن أخرى في الشرق الأوسط وأميركا.

وفي العامين الـ١٩١٩ والـ١٩٢٠، انعقد في باريس مؤتمر السلام، وتبعته معاهدة سيفر في العام الـ١٩٢٠. وتوجّه رئيس أساقفة سورية للسريان الأرثوذكس، سويريوس أفرام، الذي أصبح لاحقًا البطريرك إغناطيوس أفرام الأوّل برصوم، موفَدًا من قبل بطريرك السريان الأرثوذكس لتمثيل طائفته. وكتب مار سويريوس أفرام، قائلاً إنّ الناس، عندما كانوا يرونه بلباسه الكنسيّ، كانوا يحدقون فيه. وأُتيحت له الفرصة لإلقاء كلمة بالفرنسيّة، بدأها بكلمات من الإنجيل: «طوبى لصانعي السلام»، واصفًا الفقر والجوع والحالة التعسة لشعبه، إلاّ أنّه أحسّ بأنّ الناس لم يصغوا إليه، وشعر وكأنّه يتحدّث إلى تماثيل، وأنّه من العبث حضور مؤتمر السلام هذا. وفي اجتماع ثانٍ، تكلّم

على الاغتيالات المرتكبة ضدّ شعبه. ولكنّه شعر ثانية، بأنّه هدر وقته، وأنّ كلّ خطبه كانت من دون جدوى. وروى هذه الأحداث المطران بولس بهنام، في كتابه عن سيرة البطريرك برصوم. وفي السادس عشر من كانون الثاني الـ١٩٢٠، قدّم سويريوس أفرام مذكّرة مؤتمر السلام في باريس، وأضاف إليها ملحقًا في الثاني من نيسان، بلّغ فيهما عن موت أكثر من ٩٠٠٠٠ من السريان الأرثوذكس الأبرياء، خلال المذابح، مطالبًا بالحرّيّة الوطنيّة والدينيّة للناجين من الموت.

وفي العام الـ١٩٢٣ تأسّست الجمهوريّة التركيّة لتكون وطنًا علمانيًّا لكلّ رعايا تركيا، وفي العام ذاته، في ٢٤ تمّوز، اختُتم مؤتمر لوزان، الذي حضره مار سويريوس أفرام. وتضمّنت معاهدة لوزان للعام الـ١٩٢٣ بيانًا عن حقوق الأقلّيّات الدينيّة في تركيا (القسم الثالث الموادّ ٣٧–٤٥)، مشابهًا لما ورد في معاهدة سيفر (الجزء الرابع، الموادّ ١٤٠–١٥١)، إلاّ أنّه لم يكن هناك أيّ ذكر محدّد للطائفة السريانيّة الأرثوذكسيّة.

كان السريان الأرثوذكس، قبل المذابح، يعيشون في منطقة تمتدّ من خربوت في الغرب إلى بدليس في الشرق، ومن دياربكر في الشمال إلى الموصل في الجنوب. ولكونهم مبتعدين جغرافيًّا، ولقلّة عددهم، لم يكن السريان موضع اهتمام القوى الغربيّة الكبرى التي لم تكترث لأمرهم، ولم تفعل شيئًا لمساعدتهم.

وهكذا، بعد أحداث مطلع القرن العشرين، خضعت الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة لتحدّيات كبيرة. وعندما أصبح مار سويريوس أفرام بطريركًا (١٩٣٣–١٩٥٧)، أعاد تنظيم حياة الكنيسة والإكليروس،

مع المحافظة على التقليد، والدفاع الدائم عن حقوق كنيسته. وفي العام الـ١٩٣٣، وبعد انتقال البطريركيّة من دير الزعفران إلى حمص، والذي اعتُبر أوّلاً أنّه انتقال مؤقّت، رحل المزيد من السريان الأرثوذكس متّجهين إلى شمال سورية، وبخاصّة إلى منطقة الجزيرة وحلب. وفي العام الـ١٩٦٤ تمّت إعادة المفريانيّة مع مقرّ في كيرالا في جنوب غرب الهند. وانتقل المقرّ، في أيّامنا هذه، إلى بوثنكروز (إيرنالولم)، ويحتلّه مار باسيليوس توما الأوّل، الذي يرعى الجماعات الهنديّة التي خضعت لبطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس منذ العام الـ١٦٦٥.

أمّا في الستّينات والسبعينات من القرن الماضي، فقد بدأ العديد من السريان الأرثوذكس بالهجرة من تركيا، بحثًا عن العمل في أوروبّا، في هولندا وألمانيا، في بادئ الأمر.

أمّا في تركيا، فواجه السريان الأرثوذكس مضايقات عدّة، خلال القرن العشرين، كما مُنعوا من تعليم لغتهم الخاصّة. ونما شعور بالخوف الدائم وبعدم الاستقرار. والآن، حيث تتصاعد النزاعات الإسلاميّة في تركيا، تواجه الأقلّيّات المسيحيّة صعوبات في التعبير عن هويّتها اللغويّة، والدينيّة والثقافيّة، رغم سعي تركيا المستمرّ للانخراط في العالم الأوروبيّ. وكذلك أجبرت الحرب في لبنان ابتداءً من العام الـ١٩٧٩ العديد من السريان الأرثوذكس على أن ينتقلوا إلى مكان آخر آمن. ويعيش السريان في سورية في ظلّ حكومة علمانيّة تحترم الطوائف المسيحيّة. أمّا في العراق، فترك البلاد، منذ الاحتلال الأميركيّ، في العام الـ٢٠٠٣، أكثر من نصف المسيحيّين، بمن فيهم السريان الأرثوذكس، خوفًا من الجماعات الإسلاميّة المتطرّفة.

نظرًا إلى المضايقات التاريخيّة التي لا تُحصى، كان على بطريركيّة أنطاكية السريانيّة الأرثوذكسيّة، كما تمّ تبيانه آنفًا، أن تنتقل مرّات عديدة، منذ أن أجبرت على مغادرة أنطاكية في العام الـ٥١٨.

فانتقل كرسيّ البطريركيّة، في البدء إلى أديرة مختلفة في سورية في نواحي حلب، ثمّ في العام الـ٩٧٥ إلى دير مار برصوم قرب ملطية، (الآن في شرق تركيا)، ثمّ انتقل ولمرّات عديدة إلى آمد دياربكر، ثمّ ثانية إلى دير مار برصوم، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر (١٠٣٤-١٢٩٣). وفي القرن الثاني عشر رغب البطريرك مار ميخائيل الكبير (في العام الـ١١٩٩) في جعل الكرسيّ في دير الزعفران، بالقرب من ماردين (في تركيا)، إلاّ أنّ ذلك المكان لم يصبح مركزًا لبطريركيّة السريان الأرثوذكس الأنطاكيّة قبل العام الـ١٢٩٣. ونُقل كرسيّ البطريركيّة رسميًّا إلى حمص في العام الـ١٩٣٣، ومنذ العام الـ١٩٥٩ أصبح في دمشق.

في مؤتمر لوزان في العام الـ١٩٢٣، قامت القوى الأوروبيّة الكبرى، أي بريطانيا وفرنسا، بإعادة تقسيم الشرق الأوسط. فظهرت حدود جديدة، وأربعة بلدان جديدة، هي تركيا، وسورية، ولبنان، والعراق. وهذا ما خلق بعدًا سياسيًّا بين رعايا الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وأبرشيّاتها، لم تعرفه، على الأقلّ، في عهد الأمبراطوريّة العثمانيّة، إذ كانت الاتّصالات ما تزال آنئذٍ ممكنة وسهلة بين السريان على مختلف أراضي أجدادهم.

وكتب البطريرك إغناطيوس زكا الأوّل في كتابه كنيسة أنطاكية

للسريان الأرثوذكس ما يلي: «صارع كرسيّ أنطاكية السريانيّ الأرثوذكسيّ عبر كلّ العواصف العاتية بشدّة للحفاظ على استمرارية بطاركته إلى هذا اليوم».

الفصل الثاني

السريان الأُرثوذكس في الشرق الأوسط وعبر العالم

عقب مجازر العام الـ١٩١٥ في تركيا، هرب السريان الأرثوذكس إلى شمال سورية، إلى منطقة الجزيرة وحلب، وأيضًا إلى العراق ولبنان، حيث قطن إخوانهم منذ قرون طوال. وفي سورية نجد العدد الأكبر من أبرشيّات السريان الأرثوذكس، وأكثريّة أتباعهم.

تبع الثورة العربيّة بين الأعوام الـ١٩١٨ والـ١٩٢٠ في سورية، الانتداب الفرنسيّ (١٩٢١-١٩٤٦) ومولد الجمهوريّة العربيّة السوريّة في العام الـ١٩٤٦. وفي العام الـ١٩٣٣ انتُخب مار سويريوس أفرام برصوم، الذي كان مطران حمص منذ العام الـ١٩١٨، بطريركًا على أنطاكية وسائر المشرق، وقرّر نقل كرسيّ البطريركيّة مؤقّتًا من دير الزعفران، في تركيا، إلى حمص في سورية. وما لبث أن نُقل كرسيّ البطريركيّة في العام الـ١٩٥٩ بشكل نهائيّ إلى دمشق. كما أعيد تنظيم عدد من الأبرشيّات، في حلب ودمشق والحسكة لمنطقة الجزيرة، إضافة إلى أبرشية حمص، في عهد البطريرك مار إغناطيوس أفرام. وسوف نلقي نظرة على الأبرشيّات السريانيّة الأرثوذكسيّة الأربع الموجودة اليوم في سورية ويبلغ عدد المؤمنين فيها نحو ١٦٠٠٠٠.

في سورية

١- دمشق

المقرّ الرئيس لبطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق للّسريان الأرثوذكس ولكلّ السريان الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم، هو في

دمشق، في المدينة القديمة، قرب بوّابة القدّيس توما (باب توما)، وهي على مقربة من بطريركيّة الروم الأرثوذكس. وهناك توجد أيضًا الكاتدرائيّة المكرّسة للقدّيس جاورجيوس.

ليست دمشق مقرّ الكرسيّ البطريركيّ فقط، بل هي أيضًا مقرّ أبرشيّة نيابة بطريركيّة. ففي صيدنايا، قرب دمشق هناك ثلاث كنائس مكرّسة للعذراء والقدّيس أفرام، والقدّيسين بطرس وبولس. كما أنّ هناك دير مار أفرام وفيه مدرسة لاهوتيّة، مع أبنية مجاورة له مخصّصة للمؤتمرات، ولقاءات الشبيبة والتعليم الدينيّ.

٢- حمص

تضمّ الأبرشيّة أكثر من ٤٠٠٠٠ نسمة، و١٧ كنيسة، في مدينتي حمص وحماه وفي القرى المجاورة. وعندما كانت كاتدرائيّة السيّدة قيد الترميم في العام الـ١٩٥٢، عثر على علبة ذخائر تحت المذبح الرئيس مع قطعة زنّار. وبعد التحليل ثبت أنّ الزنّار يعود إلى الأزمنة الرومانيّة. وإيمانًا بأنّه زنّار السيّدة العذراء، أقام البطريرك أفرام مقامًا في الكنيسة في العام الـ١٩٥٣ لعرضه. وبحسب التقليد السريانيّ الأرثوذكسيّ أعطت السيّدة العذراء الزنّار للقدّيس توما عند انتقالها.

تشكّل صدد وهي في البادية الشرقيّة، والقرى حولها، مثل زيدل، فيروزة، الفحيلة، مسكنة، الحفر والقريتين، التابعة لأبرشيّة حمص معقلاً سريانيًّا أرثوذكسيًّا قديمًا. إذ أقام السريان في صدد منذ أيّام المسيحيّة الأولى، أمّا اليوم فهي قرية كانت مزدهرة قبل أن تفيض ينابيع المياه في الأرض في الستّينات، حيث انتقل العديد من سكّانها

إلى حمص ودمشق، إلاّ أنّهم يقومون دائمًا بزيارة موطن أجدادهم وأرضهم وبخاصّة لعمادة أطفالهم.

ما زالت هناك سبع كنائس في صدد، وكان عددها أكبر في الماضي.

٣- حلب

في حلب، هناك مجموعتان من السريان الأرثوذكس تمثّلان تقليدين مختلفين في اللغة، والعادات، والطقس، في رعيّتين مختلفتين. فمنذ العام الـ١٨٩٠ وصلت ٤٢٥ عائلة من أورفا، وأقامت في ما يُدعى بحيّ السريان، وهم يتبعون تقليد مدينة أورفا الطقسيّ والرعويّ. كما لجأت ١١٦٠ عائلة جاءت من ماردين، ودياربكر وطورعبدين، إلى حلب لتقيم في حيّ السليمانيّة، حيث بُنيت كنيسة مار أفرام التي كُرّست في العام الـ١٩٢٥، وهي كاتدرائيّة حلب الحاليّة. وهاجر من حلب باتّجاه لبنان نحو خمسين عائلة، بين ١٩٣٢ و١٩٣٣.

في حلب أيضًا مركزان صحّيّان باسم دار شفاء مار أفرام ودار شفاء مار جرجس، ودار للطالبات الجامعيّات الآتيات من الجزيرة وحمص باسم دار مار رابّولا للطالبات الجامعيّات، ودار للمسنّين. وهناك مساعدة تُقدّم لذوي الاحتياجات الخاصّة، ومدرستان كلاهما باسم بني تغلب.

يُقام العديد من النشاطات في المركزين بشكل خاصّ من أجل التعليم الدينيّ. وهناك أكثر من ٣٠٠ عائلة تنتسب إلى عائلات مار جرجس. كما توجد دار النشر المسيحيّة الوحيدة في سورية باسم دار ماردين – الرها.

ويبلغ تعداد أبرشيّة حلب من ٢٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠ نسمة. وهناك اليوم ثلاث رعايا في حلب وثلاث خارج حلب، في الطبقة، والرقّة (كالينيكوم القديمة)، وفي اللاذقيّة.

٤- أبرشيّة الجزيرة والفرات

يعيش فيها نحو ٨٠٠٠٠ أو ١٠٠٠٠٠ من السريان الأرثوذكس، ويتمركزون على الأغلب في القامشلي، عند الحدود التركيّة. وتمتدّ الأبرشيّة من المالكيّة عند الحدود العراقيّة التركيّة إلى رأس العين، وجنوبًا إلى دير الزور. وهي أكبر أبرشيّة في كنيسة السريان الأرثوذكس، فيها ثلاثون كنيسة و١٧ كاهنًا. مقرّ أبرشيّة الجزيرة والفرات هو في الحسكة.

وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من الحسكة شُيّد مركز جديد على اسم العذراء في «تلّ الورود»، في الريف، وهو قريب من القرى الآشوريّة المسيحيّة، والتي يقيم السريان الأرثوذكس مع أهلها علاقة طيّبة. يقوم هذا المركز بتلبية الحاجات الروحيّة والاجتماعيّة والمهنيّة والتعليميّة للطائفة في الجزيرة، بخاصّة للشبيبة.

هناك سبع مدارس ابتدائيّة سريانيّة أرثوذكسيّة في الجزيرة، واحدة في القامشلي وتضمّ ١٨٠٠ طفل، وواحدة في الحسكة وتضمّ ١٠٠٠ طفل. وفي سورية بعامّة هناك تسع حضانات وتسع مدارس ابتدائيّة. وفيها يتعلّم الأطفال اللغة السريانيّة والتعليم المسيحيّ. كما أنّ هناك مساعدة اجتماعيّة تساعد الفقراء والطلاب.

في تركيا

تقع الأماكن الرئيسة في التاريخ السريانيّ الأرثوذكسيّ في ما

يُعرف اليوم بجنوب شرق تركيا: أنطاكية، نصّيبين، الرها أي أورفا، آمد أي دياربكر، ودير مار برصوم المندثر حاليًّا قرب ماطية، وفي طورعبدين، وهي منطقة وديان بين إربيل وماردين ومديات ونصّيبين.

انتشرت المسيحيّة في منطقة طورعبدين،على ما يبدو على يد الرهبان، بين منتصف القرن الثاني والقرن الرابع. وكان مار يعقوب (٣٠٨-٣٣٨) أوّل أسقف على نصّيبين، وهو معلّم القدّيس أفرام السريانيّ ويُقال إنّه هدى العديد من الوثنيّين إلى المسيحيّة.

وفي العام الـ١٩٣٣ نُقلت بطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس من دير الزعفران بالقرب من ماردين حيث كانت منذ العام الـ١٠٩٣، إلى حمص في سورية. وتأمّل الكثيرون، عندما استولى الأتراك الشباب من أتباع أتاتورك على السلطة في العام الـ١٩٠٨، أن تُطلق الحرّيّات ويسود المساواة والعدل والديمقراطيّة. ولكن قُتل في العام الـ١٩٥٩ نحو ألف سريانيّ أرثوذكسيّ في أضنة. أمّا المجازر الكبرى فحصلت في العام الـ١٩١٥ واستمرّت حتّى العام الـ١٩١٨. وفي العام الـ١٩٢٣ قرّرت حكومة الجمهوريّة التركيّة الجديدة فصل الدين عن الدولة.

كان للكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة قبل العام الـ١٨٩٥ سبع أبرشيّات في طورعبدين، بقي منها خمس فقط بعد الحرب العالميّة الأولى. وفي العام الـ٢٠٠٨، كان ما يزال يوجد أربعة مطارنة في إسطنبول وأدياماn، واثنان آخران في دير القدّيس جبرائيل ودير الزعفران. وفي العام الـ١٩٩٧، لم يبق في طورعبدين سوى أقلّ من ٤٠٠ عائلة وستّة كهنة، و٦٥ عائلة وكاهن واحد في ماردين، ونحو ألفي عائلة وستّة كهنة في إسطنبول. وكان عدد السريان في تركيا لا يتجاوز عشرة آلاف نسمة.

أمّا اليوم، فإنّ وضع السريان الأرثوذكس في تركيا غير مشجّع، مع أنّ الحكومة التركيّة، الراغبة في تحسين صورتها تجاه أوروبّا، تساهلت وسمحت لبعض السريان الأرثوذكس، المنفيّين سابقًا، بالعودة إلى بيوتهم وأراضيهم. ولكن تستمرّ الأخطار تحوط بالمسيحيّين السريان، كما يظهر من الدعوى التي أُقيمت في العام الـ٢٠٠٨ ضدّ دير القدّيس جبرائيل. وتبقى الأوضاع اليوميّة صعبة، والقرى مهجورة إذ يرحل السريان الأرثوذكس ليس فقط لأسباب اقتصاديّة، بل بخاصّة لأسباب أمنيّة، ومنها الخوف من الأكراد القاطنين في الجنوب الشرقيّ من تركيا الذين يناضلون من أجل استقلالهم، والذين هاجموا مرارًا السريان الأرثوذكس وقتلوهم. تخلق هذه الحالة وضعًا شديد الصعوبة للسريان، الذين ما زالوا يريدون أن يعيشوا في تركيا، وللذين يريدون أن يعودوا إليها، كما فعلت نحو عشرين عائلة في السنين القليلة الماضية.

في العراق

انتشرت المسيحيّة في العراق، في بلاد ما بين النهرين،على يد الرسول أدّي، الذي أتى من الرها. وفي العام الـ٦٢٩ تأسّست مفريانيّة المشرق لخدمة السريان الأرثوذكس الذين يعيشون قي الأبرشيّات الموجودة في المنطقة الخاضعة قديمًا للأمبراطوريّة الفارسيّة الساسانيّة. وظلّت قائمة إلى العام الـ١٨٥٩. وتركّز تاريخ مفريانيّة المشرق حول تكريت أوّلاً من العام الـ٦٢٩ إلى العام الـ١١٥٢، ثمّ بشكل أساس، في الموصل، بعد تدمير تكريت مرارًا، كما تمركز أيضًا في برطلة، قره قوش، وديري مار متّى ومار بهنام في الجزء الشماليّ من العراق، ومن

ثمّ في تبريز في إيران.

وأثناء الفتوحات العربيّة والمغوليّة، كان عدد السريان التابعين للمفريانيّة في المقاطعات الشرقيّة أكبر ممّا كان عليه في المقاطعات الغربيّة. ومنذ العام الـ٩٣٥ إلى العام الـ١٣٤٥، كانت هناك أربع عشرة أسقفيّة يديرها المفارنة.

بدأ الانتداب الإنكليزيّ في العام الـ١٩٢٠. وفي العام الـ١٩٢٥ أُلحقت ولاية الموصل العثمانيّة سابقًا بالعراق. وأعلن استقلال العراق في العام الـ١٩٣٢. وفي العام الـ١٩٥٨ حلّت الجمهوريّة محلّ الملكيّة، وحصلت حرب بين العراق وإيران من العام الـ١٩٨٠ إلى العام الـ١٩٨٨، تبعتها حرب الخليج في العام الـ١٩٩٠، والاحتلال الأميركيّ في العام الـ٢٠٠٣، الذي خلف آثارًا سلبيّة في البلاد، وبخاصّة على السريان، الذين نزحوا من المدن الكبيرة، أو تركوا البلاد. وفي تشرين الأوّل من العام الـ٢٠٠٨، وقع مسيحيّيو الموصل تحت وطأة ضغوط شديدة، أجبرت نحو ألفي عائلة على مغادرة المدينة.

وفي العراق اليوم أبرشيّتان سريانيّتان أرثوذكسيّتان، واحدة متمركزة في بغداد والأخرى في الموصل. وتشمل أبرشيّة بغداد جماعة البصرة، في جنوب البلاد. أمّا أبرشيّة الموصل، فتشمل قره قوش، وكركوك، والسلمانيّة، وإربيل، وعين قوى وسنجار. ويقيم أحد الأساقفة في دير مار متّى ويرعى القرى المجاورة (بحزاني،برطله، بعشيقة، ميركلي ومغارة).

وكان يعيش، في العام الـ١٩٩٧، نحو خمسين ألف سريانيّ

أرثوذكسيّ في العراق، يتناصفون بين بغداد والموصل، وما يقارب ستّين عائلة في البصرة في الجنوب. وكان لديهم نحو ثلاثين كنيسة وثلاثون كاهنًا. لكن ربّما ترك البلاد نصف عدد العائلات أو أكثر، بُعيد الاحتلال الأميركيّ.

في لبنان

وصل إلى لبنان عدد من السريان الأرثوذكس آتين من سورية بعد الثورات التي قامت فيها في القرن التاسع عشر، وبصورة خاصّة، بُعيد اضطهاد العام الـ١٨٩٥، ومذابح العام الـ١٩١٥ في الأمبراطوريّة العثمانيّة. وفي العام الـ١٩٢١ وصل إلى لبنان آخرون من كيليكية. وأسّسوا أولى رعاياهم في زحلة وحيّ المصيطبة في بيروت. وفي العام الـ١٩١٨ أنشأت أبرشيّة لسوريّة ولبنان، مركزها مدينة حمص. وفي العام الـ١٩٣٣ أنشئت أبرشيّة بيروت، ومركزها المصيطبة وتشمل أيضًا زحلة ودمشق.

وفي العام الـ١٩٩٦ كان هناك نحو ٣٠٠٠٠ سريانيّ أرثوذكسيّ يعيشون في لبنان، مع تسع كنائس وعشرة كهنة. وحياة الكنيسة منظّمة على مثال غيرها من الكنائس في كلّ الأمكنة الأخرى: مدارس ومدارس الأحد وكشّاف وحركات الشبيبة وجمعيّات السيّدات، والمدارس الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة وكلّها تحت رعاية الكنيسة.

ومن العام الـ١٩٢٠ إلى العام الـ١٩٤٣، وُضع لبنان تحت الانتداب الفرنسيّ. وفي العام الـ٢٠٠٨ وُجدت ثلاث أبرشيّات في لبنان، مركز أوّلها المصيطبة، والثانية التي تأسّست في العام الـ١٩٣٦ لرعاية منطقة جبل لبنان مع مركز لها في البوشريّة، والثالثة في زحلة أنشئت في

العام الـ٢٠٠٠. وشيّدت كنيسة في طرابلس في العام الـ١٩٥٨. أمّا الأبرشيّة الأكثر عددًا فهي أبرشيّة جبل لبنان. وتُعتبر طائفة السريان الأرثوذكس من بين الطوائف المسيحيّة الستّ الممثّلة في البرلمان اللبنانيّ.

قبل بدء الحرب الأهليّة العام الـ١٩٧٥، كان هناك نحو ٦٥٠٠٠ من السريان الأرثوذكس يعيشون في لبنان. ولكن بعد العام الـ١٩٧٥، هاجر نصفهم تقريبًا إلى كندا، وأستراليا وبخاصّة إلى السويد. أمّا بعضهم فعاد إلى لبنان في تسعينات القرن الماضي، عندما بدأت أعمال إعادة تعمير لبنان. وفي العام الـ١٩٩٦، كان عدد السريان الأرثوذكس في لبنان لا يتجاوز ثلاثين ألفًا، لهم تسع كنائس، وعشرة كهنة.

السريان الأرثوذكس في العالم

يستشهد ج.ب. شابو، بتاريخ البطريرك ميخائيل الكبير، مقدّرًا أنّ عدد الأساقفة السريان الأرثوذكس كان في القرن الثاني عشر نحو مئة في سورية، وآسيا الوسطى، وبلاد ما بين النهرين وقبرص، إضافة إلى ثمانية عشر أسقفًا تحت سلطة المفريان. والعام الـ١٩٠٠، قدّر فوبوس، أنّه كانت توجد اثنتان وثلاثون أبرشيّة سريانيّة أرثوذكسيّة، عدا تلك التي في الهند. وفي العام الـ٢٠٠٨، شملت أبرشيات الكرسيّ الأنطاكيّ للسريان الأرثوذكس،

- **في الشرق الأوسط:**
  - أبرشيّات دمشق وحمص وحلب والجزيرة في سورية.
  - أبرشيّات بيروت وجبل لبنان وزحلة في لبنان.

- أبرشيّات بغداد والموصل ودير مار متّى في العراق.
- أبرشيّة القدس في فلسطين والأراضي المحتلّة.
- أبرشيّات ميديات وطورعبدين وماردين ودياربكر وإسطنبول وإدييامان في تركيا.

• **في أوروبّا:** أبرشيّة تشمل فرنسا وبريطانيا العظمى وسويسرا والنمسا وبلجيكا وهولندا والسويد ولها أسقفان.

• **في أميركا:** الولايات المتّحدة (في شقّيها الشرقيّ والغربيّ)، وكندا والأرجنتين.

في ما يتعلّق بالجماعات السريانيّة الأرثوذكسيّة عبر العالم التي لم يتمّ وصفها بعد، أعطت السلطات الكنسيّة السريانيّة الأرقام التالية، ولا بدّ من مقابلتها مع التي قدّمها ت.سليس في كتاب «السريان الأرثوذكس والكاثوليك»، إذ يصعب كثيرًا الحصول على أرقام دقيقة. ويبلغ عدد السريان الأرثوذكس، في جميع أنحاء العالم نحو مئة وأربعة ملايين، يوجد منهم نحو ٢٥٠٠٠٠ في الشرق الأوسط، ونحو ١٠٠٠٠٠ في أوروبّا، وأكثر من ٣٥٠٠٠ في أميركا الشماليّة وبضعة آلاف في أميركا الجنوبيّة، ونحو ٣٠٠٠ في أستراليا. ويجب إضافة مليون مسيحيّ في الهند يتبعون البطريركيّة السريانيّة الأنطاكيّة، كما يوجد مليون آخر تابع لكاثوليكيّة مالنكارا المستقلّة.

وتوجد بعض الكنائس المرتبطة مباشرة بالبطريرك، في مصر والبرازيل ونيوزيلندة والكويت.

كما كان يتبع للبطريركيّة، في العام الـ٢٠٠٨، كاثوليكوس و٢٦

مطرانًا هنديًّا، وأسقف واحد في أستراليا.

وبطريركيّة السريان الأرثوذكس في دمشق مسؤولة عن كلّ مؤمنيها في جميع أنحاء العالم. ونُظّمت مؤخّرًا تنظيم أبرشيّات جديدة في أوروبّا والأميركيّتين. وكما رأينا فإنّ الشعب السريانيّ الأرثوذكسيّ الذي يعيش في الشرق الأوسط حسب إحصائيّات العام الـ١٩٩٧، مقيم في سورية (١٦٠٠٠٠ على أقصى حدّ)، وفي العراق (٥٠٠٠٠)، وتركيا (١٠٠٠٠)، ولبنان (٣٠٠٠٠)، بالإضافة إلى الأردن (٣٠٠٠)، والقدس وبيت لحم (٢٥٠٠)، ومصر (٣٠ عائلة). وهناك نحو خمسين عائلة تعيش في كلّ من الأماكن التالية: الكويت (أسّست أوّل رعيّة في العام الـ١٩٥٦)، والإمارات العربيّة المتّحدة، والمملكة العربيّة السعوديّة.

وفي الديار المقدّسة هناك مطران سريانيّ أرثوذكسيّ في القدس، يُقيم في دير القدّيس مرقس، وهو الدير الذي كانت كنيسته، وفقًا للتقليد، البيت الذي أقيم فيه العشاء السرّيّ. هناك مئة عائلة في القدس وأربع مئة في بيت لحم. ويأتي العديد من الحجّاج السريان الأرثوذكس إلى القدس من أنحاء العالم كافّة للاحتفال بعيد الفصح.

أمّا في عمّان، في الأردنّ، وفي منطقة الأشرفيّة، فبُنيت كنيسة مار أفرام والمركز التابع لها، في العام الـ١٩٤٨ من أجل السريان الذين هاجروا من فلسطين. ومنذ حرب الخليج العام الـ١٩٩١، هناك آلاف من السريان الأرثوذكس الذين هاجروا من العراق والذين يمرّون عبر الأردنّ أو يقطنون هناك.

وفي مصر كنيسة سريانيّة أرثوذكسيّة واحدة، في القاهرة، تقع بين

بطريركيّة الأقباط الأرثوذكس ومطرانيّة الأرمن. وهناك كاهن راهب يعتني بالرعيّة الصغيرة المؤلّفة من نحو ثلاثين عائلة.

الأرقام المذكورة أعلاه مبنيّة على إحصاءات العام الـ١٩٩٧، ولا بدّ من أنّها تغيّرت من جرّاء الأوضاع المضطربة في المنطقة، التي سبّبت مزيدًا من النزوح من بلد لآخر.

مفريانيّة الهند

تاريخ السريان الأرثوذكس في الهند شديد التعقيد. بعد زمن القدّيس توما الرسول الذي يقول التقليد إنّه بشّر هناك، عاش المسيحيّون في الهند، بخاصّة على الساحل الجنوبيّ الشرقيّ، في مقاطعة كيرالا، وكان لهم اتّصال وثيق مع كنيسة الشرق ذات الطقس السريانيّ. ومنذ العام الـ١٦٦٥، ومع وصول المتروبوليت السريانيّ الأرثوذكسيّ مار غريغوريوس إلى الهند، التحق قسم من المسيحيّين الهنود مباشرة ببطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس. وفي مطلع القرن العشرين، رغب جزء كبير من أبناء الكنيسة الهنديّة التابعة لبطريركيّة أنطاكية السريانيّة الأرثوذكسيّة في تأسيس كنيسة مستقلّة، تُدعى الآن كنيسة مالنكارا للسريان الأرثوذكس في الهند. ورسم أوّل مفريان (كاثوليكوس) لهذه الكنيسة، مار باسيليوس الأوّل بولس، البطريرك السريانيّ المخلوع، عبد المسيح الثاني في العام الـ١٩١٢، ولم تعترف به البطريركيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة. وبدأ النزاع بين الطرفين، أي السريان الأرثوذكس الهنود الذين رغبوا في أن يكونوا تحت سلطة بطريركيّة أنطاكية، وأولئك الذين أرادوا أن يكونوا مستقلّين. استمرّ سوء التفاهم حتّى العام الـ١٩٦٤. وفي العام الـ١٩٦٤ دُعي

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس، مار إغناطيوس يعقوب الثالث، رسميًّا من قِبَل المجمع المقدّس لكنيسة مالنكارا السريانيّة الأرثوذكسيّة في كيرالا في الهند، لزيارة الكنائس السريانيّة الأرثوذكسيّة، ورسامة أوّل مفريان معترف به من قِبل بطريركيّة أنطاكية السريانيّة الأرثوذكسيّة. ورسم المفريان مار باسيليوس أوجين الأوّل. لكن جرى في العام الـ١٩٧٥، خلاف بينه وبين البطريركيّة في دمشق. قرر المجمع المقدّس للبطريركيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة المنعقد في دمشق رسامة كاثوليكوس آخر للكنائس السريانيّة الأرثوذكسيّة الهنديّة، يتبع مباشرة لبطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس. ومنذ ذلك التاريخ صار للهند كاثوليكوسان، أحدهما للكنيسة المستقلّة، والآخر للمؤمنين الخاضعين لسلطة بطريرك أنطاكية.

وفي العام الـ١٩٩٥، أكّد حكم المحكمة العليا في الهند على أنّ هناك كاثوليكوسًا واحدًا لكنيسة السريان الأرثوذكس في الهند، وشرعة واحدة، ورابطة كنسيّة واحدة، ألا وهي الكنيسة المستقلّة. والآن يتعيّن على كلا الجانبين، أن يبذلا قصارى جهدهما لوضع هذا الحكم موضع التطبيق، والعمل من أجل الوحدة في ما بينهما، وحلّ مشاكلهم الداخليّة. فإذا انتهيا إلى اتّفاق، سيكون ذلك مفيدًا لمستقبل كلّ المسيحيّين من السريان الأرثوذكس في الهند.

وكانت الكنيسة الهنديّة التابعة للبطريركيّة تضمّ، في العام الـ١٩٩٤، نحو خمس مائة رعيّة كبيرة، و٥٥٠ كاهنًا، وعشر مدارس، وثلاثة معاهد، ومعهدًا لدراسة الهندسة وخمسة مستشفيات، وثلاثة مياتم. وتضمّ المدرسة الإكليريكيّة الملتحقة بجامعة سيراميور، بالقرب

من كلكوتا، ثلاثين طالبًا. وبنيت هذه المدرسة في العام الـ١٩٨٨ في فيتيكيل قرب مولانتورونتي، على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الشرق من مطار كوجين. وهي مركز نشاطات كنسيّة، ومركز جمعيّات نسائيّة وطلابيّة وشبابيّة وكهنوتيّة مختلفة. كما أنّها مركز للمؤتمرات والعمل الاجتماعيّ والمسكونيّ، والمطبوعات.

في الشتات

يعيش اليوم عدد كبير من السريان الأرثوذكس في المهجر، في أوروبّا، وفي أميركا الشماليّة والجنوبيّة وفي أستراليا.

منذ نهاية القرن التاسع عشر، وبعد معاهدة لوزان في العام الـ١٩٢٣، بدأ السريان الأرثوذكس بالهجرة من طورعبدين ومن الشرق الأوسط، إلى أميركا الشماليّة والجنوبيّة. وعندما زار المطران مار سويريوس أفرام برصوم، مطران سورية ولبنان، والمقيم في حمص، السريان الأرثوذكس في الهجرة، وبخاصّة في أميركا الشماليّة، أرسل لهم كهنة. ومنذ ستّينات القرن الماضي، هاجر السريان من تركيا، بما فيها طورعبدين، إلى أوروبّا الغربيّة. ومنذ سبعينات القرن ذاته، حصلت هجرة أخرى من الشرق الأوسط من جرّاء الأوضاع المقلقة، بخاصّة بسبب الحرب في لبنان بدءًا من العام الـ١٩٧٥ وتستمرّ الهجرة إلى اليوم.

١- أوروبّا

كان أوّل السريان الأرثوذكس الذين أتوا إلى أوروبّا، جنودًا خدموا تحت إمرة الجيش الفرنسيّ أيّام الانتداب الفرنسيّ في سورية

ولبنان. استقرّوا حول مرسيليا منذ العام الـ١٩٤٧، بعد الحرب العالميّة الثانية. كما قدم أيضًا إلى أوروبّا طلاّب سريان أرثوذكس، معظمهم من العراق وسورية أتوا للتحصيل العلميّ. وفي الخمسينات والستّينات من القرن الماضي، لم تهاجر سوى بضع عائلات من الشرق الأوسط. لكن من العام الـ١٩٦٢ إلى العام الـ١٩٧٥، جاء إلى ألمانيا وهولندا وبلاد أوروبّيّة أخرى، عدد كبير من العائلات من طورعبدين في تركيا بغية العمل. ومنذ ذلك الحين جاءت عائلات أخرى طالبة اللجوء السياسيّ. وتوجّه العديد من المؤمنين منذ السبعينات، وبسبب الحرب في لبنان، على الأغلب إلى السويد، حيث رحّبت الحكومة بالعديد من المسيحيّين من السريان الأرثوذكس، وهولندا وألمانيا. وأرسل كاهن إلى مدينة أوغسبرغ، في ألمانيا، في العام الـ١٩٧١، وكاهن آخر إلى فيينّا في العام الـ١٩٧٣. وفي العام الـ١٩٧٧، أصبح عدد الكهنة المقيمين في أوروبّا ستّة.

في العام الـ١٩٧٧ كُرّست أوّل كنيسة في أوروبّا، في مدينة هينجلو في هولندا، وفي العام عينه، تأسّست أبرشيّتان أوروبّيّتان، واحدة للدول السكندنافيّة، ومقرّها في السويد، وأخرى لأوروبّا الوسطى ودول البينيلوكس، ومقرّها في هولندا.

وفي العام الـ١٩٨١، تمّ شراء دير باسم القدّيس مار أفرام، في لوسير في هولندا. وأصبح مركز أبرشيّة أوروبّا الوسطى، برئاسة مار يوليوس عيسى جيجك، الذي عُيّن متروبوليتًا في العام الـ١٩٧٩. وفي العام الـ١٩٩٧ أنشئت أبرشيّة أخرى في ألمانيا، مقرّها دير واربورغ ويرأسها المطران مار ذيونيسيوس عيسى كوربوز.

وعُيّنت مجالس كنسيّة في كلّ الأبرشيّات لإدارة الرعايا الجديدة.
وفي العام الـ١٩٩٦ كانت أبرشيّة أوروبّا الوسطى ودول البينيلوكس تضمّ ستّين مجلسًا مليًّا أو كنسيًّا، مع خمسين هيئة ثقافيّة، وأربعين كنيسة، وخمسة وخمسين كاهنًا، وخمسة رهبان، وخمس راهبات، وأكثر من ٥٠٠٠٠ مؤمن. وفي العام الـ١٩٩٧ كان في أوروبّا نحو تسعين كاهنًا (٥٦ في أوروبّا الغربيّة، و٣٢ في السويد).

الجماعة في ألمانيا كبيرة، إذ تضمّ أكثر من ٣٥٠٠٠ مؤمن وأربعين كاهنًا، موجودين في برلين وفريبورغ، وأوغسبرغ وهامبورغ، وبُنيت عشرون كنيسة. كما تمّ شراء دير باسم القدّيس يعقوب السروجيّ، في العام الـ١٩٩٥ في واربورغ، قرب كاسيل، على بعد ٢٠٠ كيلومتر من هينغلو.

في هولندا العام الـ١٩٩٨، كان يعيش ثمانية آلاف مؤمن وسبعة كهنة. كما أنّ دير القدّيس أفرام، وفيه ثلاثة رهبان وراهبتان في العام الـ١٩٩٨، هو أيضًا موقع لدار نشر للكتب ولمجلّة الأبرشيّة «قولو سريويو» أي «الصوت السريانيّ»، والتي تُطبع بلغات مختلفة، ولكن على الأغلب باللغة السريانيّة.

أمّا في بلجيكا، فتعيش معظم العائلات الثمانماية التي كانت موجودة في العام الـ٢٠٠٨، في بروكسل، حيث لها ستّ رعايا.

وفي فرنسا نحو ٢٨٠٠ سريانيّ أرثوذكسيّ، منتشرون بشكل رئيس بين باريس، وليون ومرسيليا. ولهم كاهنان. وشيُدت كنيسة كُرّست في مونتفيرمي، شمال شرق باريس، في العام الـ٢٠٠٤.

وفي سويسرا يخدم خمسة كهنة ١٥٠٠ عائلة، التي يعيش معظمها في القسم الناطق باللغة الألمانيّة، والبعض الآخر في تيسان، في الجزء الناطق باللغة الإيطاليّة. وفي العام الـ١٩٩٦ تمّ شراء دير مار أوجين، في آرث، قرب زوريخ، الذي يقيم فيه الأسقف المسؤول عن سويسرا والنمسا.

وفي النمسا، معظم العائلات الخمسمائة تعيش في فيينّا، ولهم كاهنان.

ومنذ العام الـ١٩٧٦ فتحت حكومة السويد الأبواب للاجئين السريان الأرثوذكس. وفي العام الـ١٩٩٧، كان هناك مطرانان، أحدهما هو المطران مار يوليوس عبد الأحد شابو، للأبرشيّة التي تأسّست في العام الـ١٩٧٧، والآخر النائب البطريركيّ المطران مار ذيوسقوروس بنيامين أطاش، الذي التحق في العام الـ١٩٩٥. ويقيم كلاهما في سوديرتاليا جنوب ستوكهولم ولهما سلطة على السريان الأرثوذكس في كلّ البلاد السكندنافيّة. وكان يوجد في العام الـ١٩٩٧، في السويد نحو عشر كنائس، واثنان وثلاثون كاهنًا لرعاية أكثر من ٤٠٠٠٠ مؤمن جاؤوا من لبنان، وسورية، وتركيا، والعراق. ويُرجّح أنّ هذا العدد وصل إلى ٨٠٠٠٠ في العام الـ٢٠٠٩.

الناروج والدانمرك: كان يأتي في العام الـ١٩٩٧ كاهن متجوّل من السويد ليتفقّد العائلات الخمسين من السريان الأرثوذكس.

وفي انكلترا هناك رعيّة في كرويدون، قرب لندن، كانت تضمّ في العام الـ١٩٩٧ نحو مئة وأربعين عائلة، عُيّن لها أسقف في العام الـ٢٠٠٤.

وتُعتبر الأديرة الثلاثة الموجودة في أوروبّا، في هولندا وألمانيا وسويسرا، مراكز روحيّة وثقافيّة، حيث يمكن للسريان في الشتات الاجتماع والصلاة. وتنظَّم لقاءات وندوات فيها لمساعدتهم على الحفاظ على ثقافتهم وهويّتهم، كما تُدرَّس فيها اللغة السريانيّة.

٢- في أميركا الشماليّة

يرجع وجود السريان الأرثوذكس في أميركا الشماليّة إلى أواخر القرن التاسع عشر، مع قدوم المهاجرين من تركيا العثمانيّة آنذاك، وبخاصّة من دياربكر، وخربوت، وماردين، وطورعبدين. فأقاموا أوّلاً في الولايات المتّحدة، في نيوجرسي، ماساتشوستس، وورود أيلاند، وديترويت، وفي مقاطعة كيبك في كندا. وفي العام الـ١٩٠٧ رُسم الأب حنّا خوري ليخدم المؤمنين في نيوجرسي. وفي العام الـ١٩٢٧ كُرّست أوّل كنيسة، في غرب نيويورك، في مقاطعة نيوجرسي. وفي العام الـ١٩٤٩ وصل مار أثناسيوس يشوع صموئيل المتوفّى في العام الـ١٩٩٥ إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، وعُيّن في العام الـ١٩٥٧ متروبوليتًا على أبرشيّة الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة في الولايات المتّحدة وكندا. وفي العام الـ١٩٥٨ قامت كاتدرائيّة في هاكنساك.

وفي العام الـ١٩٩٤ نُقلت الكاتدرائيّة إلى تينيك، في مقاطعة نيوجرسي. وفي العام الـ١٩٨٠ تمّ شراء مكان إقامة لرئيس الأساقفة في لوداي، نيوجرسي. وفي العام الـ١٩٩٦ نُقلت مكاتب الأبرشيّة إلى تينيك. ومع مرور السنين، تأسّس العديد من الرعايا الجديدة في الولايات المتّحدة وكندا. وفي العام الـ١٩٩٥ قسّمت أبرشيّة أميركا الشماليّة إلى ثلاث وكالات بطريركيّة، واحدة لشرق الولايات المتّحدة

الأميركيّة، وفيها ثلاث عشرة رعيّة، وواحدة لغرب الولايات المتّحدة، وفيها ستّ رعايا، والثالثة لكندا، وفيها ستّ رعايا. وأقيم لكلّ واحدة من تلك الوكالات مطران: مار أقليميس أوكين قبلان في لوس أنجليس، ومار كيرلّس أفرام كريم في نيوجرسي، ومار طيمثاوس أفرام عبودي في كندا. بالإضافة إلى ذلك، توجد أبرشيّة خاصّة لكنيسة الهند السريانيّة الأرثوذكسيّة التابعة للبطريركيّة في أميركا الشماليّة، وعلى رأسها مار نيقولاوس زكريّا المقيم في نياك قرب نيويورك. وأوّل كنيسة تمّ الحصول عليها على الساحل الغربيّ كانت في لوس أنجليس، في العام الـ١٩٦٦. وكُرّست أوّل كنيسة في كندا في العام الـ١٩٥٢ في شيربروك. وأنشئ في جامعة فيرلي ديكنسون، في تينيك، في نيوجرسي برنامج دراسيّ لتعليم اللغة السريانيّة الكنسيّة. وتأسّس عدد من المنظّمات، كما تُرجمت النصوص الليتورجيّة والآبائيّة من لغات مختلفة ونُشرت باللغة الإنكليزيّة. ويصدر دليل يتضمّن أسماء المنظّمات العاملة المختلفة. وتؤدّى الصلاة بالسريانيّة، والعربيّة، والتركيّة، والإنكليزيّة، والفرنسيّة في كيبك. وتُعقد مؤتمرات دوريّة إقليميّة، كما يُعقد سنويًّا اجتماع عامّ للشبيبة. وتعمل الرئاسة الكنسيّة المحلّيّة معًا لتنسيق نشاطاتها المتعدّدة. هناك خمس وعشرون رعيّة، يرعاها ثلاثة وعشرون كاهنًا. ويربو عدد السريان الأرثوذكس في أميركا الشماليّة على ٣٥٠٠٠ نسمة. وفي العام الـ١٩٨٨، كان يوجد في كلّ واحدة من الأبرشيّات عشر نشرات إخباريّة دوريّة.

٣- أميركا الجنوبيّة

وصل السريان الأرثوذكس إلى أميركا الجنوبيّة قبل الحرب

العالميّة الأولى وخلالها. وتأسّست رعايا في البرازيل، في ساو باولو وكذلك في كامبوكراندي وبيللّو أوريزنتي، حيث خدم أوّلاً كاهن نحو ٧٠٠ عائلة سريانيّة أرثوذكسيّة. فضلاً عن ذلك اهتدت آلاف عدّة من أهل البلاد البرازيليّين الأصليّين إلى الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة.

- الأرجنتين

للكنيسة في العام الـ١٩٩٧، أربع رعايا، واحدة في لابلاطا، والثانية في بوينس أيرس، والثالثة في فرياس، والأخيرة في كوردوبا. ولكلّ واحدة كاهن. ويجمع عدد السريان نحو ٧٠٠ عائلة وعُيّن أسقف لها في العام الـ٢٠٠٧.

- تشيلي

كان يوجد في العام الـ١٩٩٧ نحو سبعين عائلة وكاهن واحد جوّال يزورها من وقت لآخر.

٤- أستراليا

الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة موجودة في أستراليا ابتداء من سبعينات القرن الماضي. وأرسل إليها في العام الـ١٩٩٨، البطريرك الحاليّ، مار زكّا الأوّل عيواص لتنظيمها. وتأسّست كنيستان، واحدة في سيدني وواحدة في ملبورن. وفي العام الـ١٩٩٧، أصبح عدد الرعايا أربعًا، واحدة في سيدني، واثنتين في ملبورن وواحدة في بيرث. وكان عدد المؤمنين نحو ستمائة عائلة قدمت من أنحاء مختلفة من الشرق الأوسط. وهم يصلّون باللغة السريانيّة والعربيّة والإنكليزيّة. وتأسّست أبرشيّة لأستراليا ونيوزيلندة في العام الـ١٩٩٤، وعُيّن لها أسقف في العام الـ٢٠٠٤، مقرّه في سيدني.

٥- الختام

هاجر العديد من السريان الأرثوذكس إلى أوروبّا، والأميركيّتين، وأستراليا، لأسباب اقتصاديّة وإنسانيّة، مشكلين بهجرتهم الوجود السريانيّ الأرثوذكسيّ في الشتات. ويُجمع معظم السريان الأرثوذكس على أنّ الحياة في المهجر تنطوي على مخاطر، مثل فقدانهم هويّتهم، وبخاصّة تقليدهم الليتورجيّ والإيمانيّ، كما تاريخهم. لكنّهم يصرّون على الاعتقاد أنّ الهويّة السريانيّة واللغة السريانيّة كنزان أساسيّان لا بدّ من حمايتهما والحفاظ عليهما. لذلك يعتقد بعض السريان الأرثوذكس بأنّه من الأفضل فعلاً لشعبهم البقاء في الشرق الأوسط، أو العودة إليه. ويعود بعضهم لقضاء العطلة. ويقدّم المؤمنون في المهجر مساعدة مستمرّة لرعايا الشرق الأوسط بإرسال هبات سخيّة.

ويزور البطريرك والمطارنة وبعض الكهنة شعبهم في المهجر بشكل منتظم، للإبقاء على الصلة مع الكنيسة الأمّ، ولتفقّد الحياة الكنسيّة والليتورجيّة والروحيّة للمؤمنين في المهاجر. ويبذل الأساقفة الشباب المعيّنون في الأبرشيّات المستحدثة قصارى جهدهم، بالتعاون الفعّال مع المؤمنين، للإبقاء على الشعب قريبًا من الكنيسة، وذلك بتنظيم مدارس الأحد، والقيام بالترجمات، وتعليم اللغة السريانيّة. وقام المطران أثناسيوس صموئيل في لوداي بطباعة النوافير السريانيّة الأرثوذكسيّة الرئيسة وخدمة القدّاس الإلهيّ باللغة الإنكليزيّة، من أجل رعاية شاملة وتعليم دينيّ أفضل. كما تُرجمت الصلوات في الهند إلى اللغة المحكيّة هناك، المليالم، من العام الـ١٨١١. وتُستعمل اللغة المحلّيّة، الألمانيّة، والهولنديّة، والسويديّة، والإنكليزيّة، والإسبانيّة، والبرتغاليّة في المهاجر في الصلوات بشكل متزايد، وكذلك اللغة

العربيّة، لا بل التركيّة. ويُحتفظ باللغة السريانيّة للأجزاء المهمّة من القدّاس الإلهيّ. وكلّ هذه الأمور وغيرها، تساعد على الحفاظ على التقليد القديم حيًّا، بقدر المستطاع في المهاجر، وعلى مستويات مختلفة.

كتبت فتاة شابة هاجرت إلى ألمانيا، في «صوت طورعبدين» العام الـ١٩٩٦، قائلة: «نحن نعيش هنا حياة جيّدة ونحصل على كلّ ما نحتاج إليه من أشياء ماديّة، كما نتمتّع بالديمقراطيّة. إلاّ أنّ علينا أن نفكر أيضًا بحياة أرواحنا، التي طالما نسيناها بسبب رنين المال ومشاعر الكراهية في القلب. إنّني أجد أنّ أولئك السريان الأرثوذكس الذين يعيشون بطريقة بائسة في بلادنا الأصليّة، ما زالوا يعيشون بمحبّة الله والتفكير به، وهم بالنسبة إليّ، أهمّ مخلوقات في العالم».

في العام الـ١٩٦٥ سأل سريانيّ أرثوذكسيّ أسقف ماردين، المطران دولباني: «هل تكون نهاية الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة إذا سبّبت هجرة المؤمنين احتمال فقدانهم هويّتهم وإيمانهم التقليديّ؟». فأجاب المطران: «لن تحلّ النهاية بكنيستنا، يا بنيّ. فإنّ غربت شمس السريان الأرثوذكس في تركيا، فستشرق ثانية في مكان آخر من العالم. فجذورنا الطيّبة كانت وستبقى دائمًا هنا، حتّى وإن قُطعت الشجرة بشكل عنيف، مرّات ومرّات، سوف تستمرّ في الازدهار، نظرًا إلى جذورها التي لم تُتلف».

الفصل الثالث

اللغة والآداب والدراسات السريانيّة

الآراميّون هم الشعب الذي استقرّ منذ القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل المسيح في بلاد ما بين النهرين وسورية. أمّا لغتهم فكانت الآراميّة، وهي لغة ساميّة قديمة كانت مستعملة بشكل واسع في الشرق الأوسط، ومرتبطة باللغة العبريّة والعربيّة. والآراميّة الفلسطينيّة هي اللغة التي تكلّم بها يسوع المسيح.

اللغة السريانيّة

كانت اللغة السريانيّة اللهجة الآراميّة في الرها. وأضحت اللغة المحكيّة ولغة الكتابة في المقاطعات الرومانيّة لبلاد ما بين النهرين وسورية وجوارها، وحتّى فلسطين وبلاد فارس. أمّا موطن اللغة السريانيّة الفصحى فهو الرها ومقاطعة أسروين التي أصبحت مسيحيّة في القرن الثاني. بقيت السريانيّة لغة الغالبيّة العظمى لشعب تلك المناطق الذين اهتدوا إلى المسيحيّة.

ظلّ استعمال اللغة السريانيّة على انتشاره الواسع، كلغة أدبيّة، إلى نهاية القرن الثالث عشر، حتّى بعد أن بدأت اللغة العربيّة تصبح اللغة المحكيّة الرئيسة في الشرق الأوسط، منذ نهاية القرن السابع. وبقيت اللغة السريانيّة قاعدة الوحدة الداخليّة بين السريان الأرثوذكس وعلامتها الفارقة. وما زالت مستعملة منهم كلغة أدبيّة حتّى اليوم. فهي مرتبطة بإيمانهم، إذ كانت لغتهم الليتورجيّة، ولغة

آبائهم، وما زالت تُستعمل في القدّاس الإلهيّ.

والقلم الإسطرنجيليّ هو أقدم شكل من أشكال خطوط الأبجديّة السريانيّة المؤلّفة من أحرف تميل إلى الاستدارة. وكانت مستعملة نحو القرن الثاني عشر والثالث عشر. ومنذ القرن السابع، تطوّر الخطّ عند السريان، وأصبح يُعرف بالسرطو، أي الخط المستقيم أو الرقعة. وبعد القرن الرابع عشر صار الأدب المسيحيّ في الشرق الأوسط يُكتب على الأغلب باللغة العربيّة. ومنذ أواخر القرون الوسطى، كُتبت المخطوطات السريانيّة، في المناطق الناطقة باللغة العربيّة، بالكرشونيّة، أي بالعربيّة المكتوبة بأحرف سريانيّة.

وتتضمّن اليوم اللهجة العربيّة المحكيّة في سورية بعض العبارات السريانيّة. وتتضمّن اللهجة المحكيّة قبلاً في صدد، قرب حمص، نحو خمسمائة كلمة من أصل سريانيّ.

وما زال السريان الأرثوذكس يتكلّمون بعض اللهجات السريانيّة الحديثة، مثل الطورانيّة في منطقة طورعبدين في تركيا الحديثة، ولهجة سورث في القرى الواقعة حول الموصل، في العراق. أمّا اليوم، فاللغة اليوميّة للسريان الأرثوذكس في الشرق الأوسط، وفي بعض الأماكن التركيّة القريبة من سورية، هي على الأغلب العربيّة. وفي تركيا يتكلّمون أيضًا اللغة التركيّة، لا بل الكرديّة في بعض قرى شمال طورعبدين.

أمّا السريانيّة المدعوّة «غربيّة» فهي أيضًا لغة الموارنة المرتبطين بكنيسة روما منذ الحرب الصليبيّة في القرن الثاني عشر. واستعمل

بعض الأرثوذكس الخلقيدونيّون، في منطقة أنطاكية، السريانيّة في القدّاس الإلهيّ، على الأقلّ حتّى القرن السابع عشر. وما زالت لهجة آراميّة غربيّة حديثة مستعملة في معلولا، قرب دمشق، في سورية. وحتّى القرن السابع عشر كانت أختام رئاسة دير البلمند للروم الأرثوذكس، قرب طرابلس، لبنان، مكتوبة بأحرف سريانيّة.

أمّا اللغة السريانيّة «الشرقيّة»، التي يستعملها مؤمنو كنيسة المشرق، فتتميّز عن اللغة السريانيّة «الغربيّة» في الكتابة وبعض صور اللفظ، وبخاصّة في: آ (A)، الطويلة بدلاً من الـ أو (O).

المخطوطات السريانيّة

تشهد المخطوطات السريانيّة على نشاط أدبيّ عظيم، ويرجع بعضها إلى القرنين الخامس والسادس. ويوجد ما يزيد على خمسين مخطوطًا قديمًا لأجزاء مختلفة من الكتاب المقدس باللغة السريانيّة، يعود تاريخها إلى ما بين القرن الخامس والقرن السابع. ونُسخ أقدم مخطوط باللغة السريانيّة في الرها، في العام الـ٤١١، وهو محفوظ الآن في المكتبة البريطانيّة. وهناك العديد من المخطوطات السريانيّة التي لم تُترجم بعد. بعضها محفوظ في الأديرة، أو في البطريركيّة، وبخاصّة في مركز الدراسات السريانيّة الجديد، في معرّة صيدنايا بالقرب من دمشق. ومنذ القرن السابع عشر أصبحت أكثر من ألفي مخطوط في الغرب، وهي موجودة الآن في مكتبات شهيرة في لندن، والفاتيكان، وباريس، وبرلين، وبرمنغهام، وكمبريدج، والولايات المتّحدة الأميركيّة. كما يوجد عدد آخر في دير القدّيسة كاترينا في سيناء، وفي العراق وتركيا ولبنان. ونظرًا إلى الصعاب التي قاستها الكنيسة عبر التاريخ، حيث

هُدم العديد من الأديرة والمكتبات والكنائس، اختفى كلّيًا العديد من المخطوطات الثمينة.

الدراسات السريانيّة

تطوّرت أولى الدراسات السريانيّة بشكل خاصّ في المدرسة المدعوّة «مدرسة الفرس» في الرها، وكانت مركزًا للدراسات الدينيّة والعلميّة. تأسّست في نهاية القرن الرابع. واتّسع مجال عملها في مطلع القرن الخامس، عندما طوّر الدراسات اليونانيّة فيها الأسقفان رابّولا (توفّي في العام الـ٤٣٥) وهيبا (توفّي في العام الـ٤٥٧). وأُغلقت المدرسة في العام الـ٤٨٩، ثمّ نُقلت إلى نصّيبين، في الأمبراطوريّة الفارسيّة حيث كانت بدأت أعمالها في السابق. ودرّس القدّيس أفرام في نصّيبين، ثمّ في الرها، على مدى السنوات العشر الأخيرة من حياته. كما ازدهرت مدارس مماثلة في أمكنة أخرى، بما في ذلك في الأمبراطوريّة الفارسيّة.

كانت المدارس، في معظم الأحيان، مرتبطة بالأديرة، وكانت لها وظيفة تعليميّة وثقافيّة. ولم يكن يُعطى فيها التعليم المدرسيّ الأساس وحده، بل أيضًا دراسات على مستوى رفيع من العلم. وقام الرهبان التابعون لكلّ المدارس بترجمة المخطوطات السريانيّة ونسخها. وهكذا أصبح لدى المدارس مكتبات ذات أهمّيّة بالغة. ومنذ القرن الرابع وحتّى القرن الثالث عشر، كانت أكثر المدارس السريانيّة شهرة، موجودة بشكل رئيس في الأديرة التالية أسماؤها الواقعة اليوم في سورية وتركيا والعراق: تلعدا، مار متّى، مار بهنام، مار جبرائيل، الزعفران، مار برصوما قرب ملطية، ومار زكّا قرب الرقّة وقنسرين

على ضفاف نهر الفرات، الذي غمرته مؤخّرًا مياه السدّ الجديد.

الأدب السريانيّ

١- الكتاب المقدّس

منذ القرن الثاني قبل المسيح، تمّت ترجمة العهد القديم إلى اللغة السريانيّة. واعتُمدت رسميًّا الترجمة التي وُضعت في القرن الرابع، والتي تُدعى الفشيطا، أي الترجمة «البسيطة» أو «العامّة».

وعُرف العهد القديم باللغة السريانيّة منذ القرن الثاني الميلاديّ. وهناك ثلاث ترجمات قديمة للإنجيل إلى السريانيّة أقدمها «الدياتاساريون»، التي وضعها ططيانس نحو العام الـ١٧٠. لكنّ نصّها الأصليّ فقد، ويعتبر البعض أنّها كُتبت أوّلاً باللغة اليونانيّة، ثمّ تُرجمت إلى السريانيّة. أمّا النصّان الآخران للعهد الجديد فهما يَستعملان ما يُسمّى بالسريانيّ القديم ويرجع تاريخهما، إلى القرن الثالث. أمّا النصّ البسيط «الفشيطا» فقد وُضع في أوائل القرن الخامس، وأصبح يمثّل مع ترجمة العهد القديم التي تمّت في القرن الرابع، الكتاب المقدّس المعتمد في الكنائس السريانيّة. وكان يتعلّم تلامذة المدارس القراءة في الفشيطا، ثمّ عند الآباء من التقليدين السريانيّ واليونانيّ. وصدرت في العام الـ٢٠٠٧ طبعة جديدة لفشيطا العهد الجديد، قام بوضعها الملفونو عيسى كولتان وآخرون من دير مار جبرائيل بالتعاون مع جمعيّة الكتاب المقدّس.

ونُقل العهد الجديد من السريانيّة إلى العربيّة، نحو القرن الثامن، وإلى الفارسيّة في العام الـ١٢٢١ على يد يوحنّا التبليسيّ، كما إلى

المليالم على يد الربّان فيليب، في الهند، في مطلع القرن التاسع عشر. وحديثًا، صدرت ترجمة أولى في العام الـ١٩٩٥ على يد الأب كوريان كانيامباررامبيل، وأخرى في العام الـ١٩٩٨ على يد الأب ماثيو أوباني.

ونجد في الأدب السريانيّ العديد من تفسيرات للكتاب المقدّس.

٢- الأدب السريانيّ العامّ

تشكّل هذا الأدب وتطوّر في بلاد ما بين النهرين. استعمل أوّل الكتّاب الرموز التصويريّة. ولا يتضمّن الأدب السريانيّ الأرثوذكسيّ التفسير الكتابيّ البسيط فقط، بل التفسير النقديّ، واللاهوت، والتاريخ، والعظات، وأعمال النسك وأيضًا الفلسفة، والجغرافيا، والنحو، وعلم اللغة، وعلوم الفلك والطبّ والعلوم والشعر، كما يتضمّن ترجمات عديدة من لغات أخرى. ومن أشهر العلماء في هذه الحقول: يعقوب الرهاويّ (المتوفّى في العام الـ٧٠٨)، وموسى بن كيفا (المتوفّى في العام الـ٩٠٣)، وذيونيسيوس بن الصليبيّ (المتوفّى في العام الـ١١٧١)، ويعقوب بن شاقو (المتوفّى في العام الـ١٢٤١). ويوحنّا ابن العبريّ (المتوفّى في العام الـ١٢٨٦). وكانوا علماء حقيقيّين يتحلّون بنزعة إنسانيّة حقيقيّة، وذوي إلمام في العديد من المجالات. ألّف يعقوب الرهاويّ أوّل بحث طويل منظّم في قواعد اللغة السريانيّة، لم يبق منه سوى بضع نسخ فقط. واستعمل يوحنّا ابن العبريّ مقتطفات مهمّة منه في كتابه في القواعد «الأشعة» (Le livre des splendeurs) والذي شرح فيه اللهجتين السريانيّتين الشرقيّة والغربيّة، من بين الأشياء الأخرى التي تمّ شرحها. وفي العام الـ١٢٢٨ كتب جبرائيل الرهاويّ كتبًا في الفلسفة والطبّ.

أمّا في حقل الطبّ، فاشتهر عدد من الأطبّاء السريان. كان سرجيوس الراسعينيّ (في العام الـ٥٣٦) أوّل طبيب في العالم الناطق باللغة السريانيّة. ترجم أعمال غاليان إلى السريانيّة. كما أنّ المفريان يوحنّا ابن العبريّ نفسه كان طبيبًا متميّزًا، ألّف العديد من الأبحاث الطبّيّة المطوّلة. وكتب رومانوس، الذي كان طبيبًا وراهبًا من دير مار جبرائيل، مؤلّفات في الطبّ، وأصبح بطريركًا في العام الـ٨٨٧. وكان العالم الرياضيّ سويريوس سابوخت (المتوفّى في العام الـ٦٦٧) من أوائل مَن ذكر الأعداد الهنديّة في الشرق الأوسط.

تُرجمت كتابات آباء الكنيسة من اليونانيّة إلى السريانيّة. وهكذا حُفظت بعض الأعمال الآبائيّة، المكتوبة أصلاً باللغة اليونانيّة، والتي فقدت لاحقًا، عبر ترجماتها إلى اللغة السريانيّة، كأعمال سويريوس الأنطاكيّ مثلاً (في العام الـ٥٣٨). وفي القرون الأولى للإسلام، كان معظم الشعب، الناطق باللغة السريانيّة، متفوّقًا في العلوم والآداب. ومنهم مَن نقل إلى العربيّة، بخاصّة في عهد العبّاسيّين، الفلسفة والعلوم الإغريقيّة القديمة، التي وضعت في غالب الأحيان، عبر ترجمات إلى السريانيّة. وهكذا بدأت هذه النهضة في العلوم، التي شجّعها بعض المستنيرين من خلفاء بغداد، مع الترجمات التي وُضعت في القرن التاسع.

تجلّى العصرالذهبيّ للأدب السريانيّ بخاصّة في الفترة الواقعة بين القرن الرابع ونهاية القرن السابع، وبقي حيًّا إلى القرن العاشر. ومن بين المؤلّفين الكبار، في أوائل الفترة العربيّة، يعقوب الرهاويّ، وجاورجيوس، أسقف العرب، ويوحنّا الداريّ، وموسى بن كيفا.

وحصلت نهضة فكريّة سريانيّة مع ذيونيسيوس ابن الصليبيّ (القرن الثاني عشر)، وميخائيل السريانيّ (القرن الثاني عشر)، ويوحنّا ابن العبريّ (القرن الثالث عشر) الذي كتب بالسريانيّة والعربيّة. ويجمع الكتّاب السريان الكبار في العصور الوسطى بين المواضيع الدينيّة والتاريخيّة. وبعد أن أسلم الغزاة المغوليّون في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، خفّ الإنتاج الأدبيّ لدى السريان وبقي العديد من المؤلّفين السريان في القرون التالية غير معروفين، ولا بدّ اليوم من اكتشاف أعمالهم مجدّدًا. واستشهد البطريرك أفرام برصوم بأسماء بعضهم، في كتابه اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانيّة.

٣- الآباء السريان

كان الآباء الأنطاكيّون على الأقلّ حتّى العام الـ٤٥١، مشتركين في التقليدين الخلقيدونيّ واللاخلقيدونيّ، مثل إغناطيوس الأنطاكيّ، الذي مات شهيدًا في روما، في عهد الأمبراطور تراجان (٩٨-١١٧). كتب رسائل شهيرة باليونانيّة للجماعات المسيحيّة الأولى، تشكّل تعليمًا دينيًّا ما زالت مصدر إلهام على الصعيد الروحيّ. وكذلك الحال مع يوحنّا الذهبيّ الفم المنحدر أيضًا من أنطاكية وكثيرون غيرهما.

أمّا أشهر كتّاب التقليد السريانيّ، الذين كتبوا باللغة السريانيّة، وبعضهم أيضًا باللغة اليونانيّة أو العربيّة، فهم:

· أفراهاط (توفّي بعد العام الـ٣٤٥)، ويُدعى «الحكيم الفارسيّ». كتب في كتابه البراهين عن أمور رعائيّة مختلفة. ويمثّل هذا الكتاب الوثيقة الرئيسة الأولى التي تشهد على التقليد النسكيّ السريانيّ.

· القدّيس أفرام المتوفّى في العام الـ٣٧٣، المدعو «كنّارة الروح

القدس»، الذي كان لاهوتيًّا وشاعرًا في آن. اشتهر بخاصّة بتفسيره الكتابيّ، وعظاته الموزونة، أو ميامره. وكان يرتّل مداريشه، أي ترانيمه العقائديّة، مستعملاً القيثارة. وما يزال العديد منها محفوظًا في الصلوات السريانيّة، وتبقى مثالاً يُحتذى به.

ويُعتبر أفراهاط وأفرام ممثّلَين للثقافة السريانيّة، التي كانت في معظمها ما تزال ساميّة، في القرن الرابع.

· رابّولا، أسقف الرها، (توفّي في العام الـ٤٣٥)، وهو ذائع الصيت «بقوانينه الكنسيّة» كما هو الحال بالنسبة إلى ماروثا، متروبولت تكريت (توفّي في العام الـ٦٤٠).

· توجد أعمال تمّ تداولها تحت اسم إسحق. وهناك ثلاثة على الأقلّ حملوا هذا الاسم وعاشوا في القرنين الخامس والسادس، أحدهم إسحق الأنطاكيّ (المتوفّى في العام ٤٦٠)، وهو تلميذ القدّيس أفرام.

· سويريوس الأنطاكيّ (المتوفّى في العام ٥٣٨) الذي كتب باليونانيّة بحوثًا لاهوتيّة وعظات والعديد من الرسائل. وهذه الكتابات باقية فقط في ترجماتها السريانيّة.

· يعقوب السروجيّ (المتوفّى في العام الـ٥٢١) الذي أصبح أسقف بطنان، التي تقع على بعد أربعين كيلومترًا إلى الجنوب الغربيّ من الرها، في مقاطعة سروج. ويشتهر بشكل خاصّ بمئات الترانيم، التي جعلته يستحق أن يُدعى «مزمار الروح القدس».

· فيلكسينوس (المتوفّى في العام الـ٥٢٣)، أسقف منبج، الواقعة على بعد ثمانين كيلومترًا إلى الشمال من حلب، الذي كتب تفاسير للأناجيل، وعظات في الحياة والكمال المسيحيّين، والصلوات، وأعمالاً في الثالوث والتجسّد، واعترافات إيمان، والعديد من الرسائل ذات

الطابع العقائديّ والروحيّ.

• يعقوب (المتوفّى في العام الـ٧٠٨)، أسقف الرها نحو العام الـ٦٨٤، الذي أكمل مراجعة النصّ السريانيّ لأجزاء من العهد القديم. وكان مفسّرًا، ولاهوتيًّا، ومؤرّخًا، ومترجمًا، وقانونيًّا، وفيلسوفًا، ولغويًّا. كما اخترع الرموز لتمثيل الأحرف الصوتيّة السريانيّة. ويُظهر تفسيره في الـHexaemeron، أي الأيّام الستّة، إدراكًا للعلوم الطبيعيّة والدراسات الجغرافيّة في زمنه.

• موسى بن كيفا (المتوفّى في العام الـ٩٠٣)، كان المؤلّف الأكثر إنتاجًا في القرن التاسع، والذي أصبح أسقف الموصل باسم سويريوس. وممّا كتبه تفاسير كتابيّة، وبحوث متنوّعة في الوعظ والفلسفة واللاهوت والتفسير الكتابيّ.

• أنطون الفصيح، الذي كان من أشهر المؤلّفين في تكريت، خلال عصرها الذهبيّ من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر، والذي ألّف عملاً في البلاغة والشعر.

• ذيونيسيوس يعقوب بن الصليبيّ (المتوفّى في العام الـ١١٧١)، الذي صار أسقفًا على مرعش ثمّ منبج، ونُقل في ما بعد إلى آمد دياربكر. كتب العديد من التفاسير اللاهوتيّة، والكتابيّة، والليتورجيّة، كما كتب تاريخ الآباء والقدّيسين والشهداء.

• ميخائيل الكبير (المتوفّى في العام الـ١١٩٩)، رئيس دير برصوما، العالم واللغويّ اللامع، الذي انتُخب بطريركًا في العام الـ١١٦٦، ومن أهمّ أعماله، كتاب التاريخ.

• يعقوب ابن شاقو (المتوفّى في العام الـ١٢٤١)، الذي صار

الأسقف سويريوس في دير القدّيس متّى، والذي كتب «حواراته» في الفلسفة واللسانيّات، وكتاب «الكنوز» في اللاهوت.

• غريغوريوس يوحنّا أبو الفرج (المتوفّى في العام الـ١٢٨٦)، والمعروف باسم ابن العبريّ، درّس الطبّ، والفلسفة، واللغتين السريانيّة والعربيّة، وعلى الأرجح اللغة العبريّة أيضًا. وفي العام الـ١٢٦٤، انتُخب مفريانًا للمشرق. لخّص كلّ اللاهوت السريانيّ الأرثوذكسيّ القديم في كتابه: منارة الأقداس بالإضافة إلى تفاسيره الكتابية، وكتاب الهدايات (Nomocanon) في القانون الكنسيّ، وكتب في القواعد والمعرفة الفلسفيّة والعلميّة (الفيزياء، والفلك، وعلم وصف الكون، والطبّ)، ما جعل منه موسوعة كنيسته. كما كان مؤرّخًا معروفًا، ومن أعماله التاريخ السريانيّ، والتاريخ الكنسيّ. وكان أبًا روحيًّا بارزًا، ومن أعماله: الإيثيقون وكتاب الحمامة، كما كان أيضًا شاعرًا.

• ترجم مراد فؤاد حقّي (المتوفّى في العام الـ١٩٥٨)، وهو من ماردين، كتاب شابو في الأدب السريانيّ إلى العربيّة.

اللغتان اليونانيّة والسريانيّة

يمكننا العثور، منذ بدء المسيحيّة، لا بل قبل ذلك، بجوار أنطاكية، وفي سورية وفلسطين، على شواهد من تداول اللغتين اليونانيّة والسريانيّة في آن، وبخاصّة في المدن الكبرى المهيلنة، حيث كانت اللغة اليونانيّة، لغة الإدارة، والتجارة، والفكر، حتّى ظهور الإسلام. وبحسب قول سيبستيان بروك، أثّرت الثقافة والآداب المسيحيّين المكتوبين باللغة

اليونانيّة، في الكتّاب باللغة السريانيّة، وبخاصّة خلال القرون الخامس والسادس والسابع. وتُرجم العديد من الأعمال المكتوبة باليونانيّة إلى اللغة السريانيّة، وقرئت هذه الأعمال في أوساط الرهبانيّة السريانيّة، واستشهد بها المؤلّفون السريان. ومن بينها، العظات المكاريوسيّة، وأعمال الأنبا أشعيا، والعديد من الأعمال الرهبانيّة المصريّة، ومرقس الناسك، وكتابات منسوبة إلى ذيونيسيوس الأريوباغيّ، وقبل كلّ شيء، إيفاغريوس البنطيّ (المتوفّى في العام الـ٣٩٩).

وتُرجمت بعض أعمال القدّيس أفرام وصلواته إلى اليونانيّة، وإلى العديد من اللغات الأخرى، منذ أيّام حياته. وفي أوائل القرن السابع، ترجم بولس التلّيّ العهد القديم، كما ترجم توما الحرقليّ العهد الجديد، من اليونانيّة إلى السريانيّة. وكانت بعض الأديرة مراكز مهمّة للدراسات الهيلّينيّة. وفي أواخر القرن السابع، تعلّم يعقوب الرهاويّ اللغة اليونانيّة ثمّ قام بتعليمها وترجمة بعض الأعمال المكتوبة بها. وكان من الرهبان المثقّفين الذين شكّلوا حلقة أساسيّة في نقل العلوم والفلسفة اليونانيّة إلى العالم العربيّ، الذي نقلها بدوره إلى الغرب، في العصور الوسطى، من طريق إسبانيا. ويوجد في بعض أديرة الروم الأرثوذكس، أمثال دير البلمند في لبنان، ودير القدّيسة كاترينا في سيناء، العديد من الكتب الليتورجيّة والمخطوطات المكتوبة باليونانيّة والعربيّة والسريانيّة. وما زالت ترد حتّى اليوم كلمات يونانيّة في المعجم السريانيّ. كتب سويريوس الأنطاكيّ باللغة اليونانيّة، كما كتب ثيوذورس أبو قرّة (القرن التاسع)، وهو تلميذ للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ، باللغات اليونانيّة والعربيّة والسريانيّة.

اللغة والدراسات السريانيّة اليوم

ماذا عن الدراسات السريانيّة اليوم؟

١- لائحة المراجع

من أجل الحصول على دليل كامل عن الأدب السريانيّ والدراسات السريانيّة، يمكن الرجوع إلى C. Moss, Catalogue of Syriac Printed Books and Related Literature in the British Museum. لندن، ١٩٦٢. وتابع هذا العمل س. بروك في Syriac Studies: a Classified Bibliography، ١٩٦٠-١٩٩٠، الكسليك، ١٩٩٦.

أمّا لائحة المراجع للسنوات الـ١٩٩٦ و الـ٢٠٠٠، فقد نُشرت في Parole de l'Orient، العدد ٢٩، ٢٠٠٤، وللسنوات بين الـ٢٠٠١ و الـ٢٠٠٥، في الموقع الإلكترونيّ

Hugoye, Journal of Syriac Studies، وBulletin de l'Arabe Chrétien في Bundy، المجلّد الأوّل (١٩٧٦-١٩٩٢)، وتول وفون رومبي، في Newsletter Arabic Studies، المجلّد الأوّل (١٩٩٥-١٩٩٦) في Parole de l'Orient، رقم ٢١، ١٩٩٦، وتول وشيينس في Christian Arabic Bibliography منذ الـ١٩٩٠ الـ١٩٩٥، في Journal of Eastern Christian Studies، العدد ٥٧، ٢٠٠٥.

٢- المجموعات

أمّا المجموعات الرئيسة للنصوص السريانيّة، مع بعض الترجمات فهي:

Patrologia Orientalis, Patrologia Syriaca، Corpus Scriptorium Christianorum Orientalium وبعض الأعمال المنشورة في مجموعة Sources Chrétiennes.

وتوجد أيضًا مجموعات جزئيّة مثل A. Mingana Woodbrooke Studies, Christian Documents in Syriac, Arabic and Garshuni. (في سبعة أجزاء، كمبردج، من ١٩٢٧–١٩٣٣) وأي شميث لويس، وم. غيبسون، في Studia Sinaitica، (١٢ مجلّدًا، كمبردج)، ١٨٩٤–١٩٠٧، مع بعض الترجمات).

٣- المجلاّت العلميّة

أمّا المجلاّت الرئيسة المرتبطة بالدراسات السريانيّة فهي:

L'Orient Syrien, Le Muséon, Oriens Christianus, Orientalia Christiana Periodica, Orientalia Christiana Analecta, Journal of the Iraqi Academy, (مجلّة المجمع العراقيّ) Parole de l'Orient, Revue de l'Orient Chrétien, The Harp, Aram & Journal of the Canadian Society of Syriac Studies.

وهناك أيضًا مجلّة إلكترونيّة للدراسات السريانيّة، تُدعى Hugoye. (http:www.acad.cua.edu.Syrcom.Hugoye)

٤- الجامعات

أمّا الجامعات الرئيسة التي تُدرس فيها اللغة السريانيّة فهي:

أوكسفورد، كمبردج، دارهام، مانشستر، أدنبورغ، باريس، ليدين، غرونينغن، لوفان -لا- نوف، غراز، غوتنغن، توبنغين، برلين، ميونخ، روما، هارفارد، واشنطن، تورنتو وكيبيك.

٥- المؤتمرات

يُعقد مؤتمر للدراسات السريانيّة مرّة كلّ أربع سنوات، منذ العام الـ١٩٧٠. وتُنشر أعماله في Orientalia Christiana Analecta. كما تُشكّل الدراسات السريانيّة جزءًا من المؤتمرات العالميّة في الدراسات الآبائيّة المنعقدة في أوكسفورد، والمؤتمرات العالميّة للدراسات الآسيويّة والإفريقيّة الشماليّة، والمؤتمرات السريانيّة العالميّة التي تُعقد مرّة كلّ أربع سنوات في معهد القدّيس أفرام للأبحاث المسكونيّة في قطيام، في كيرالا.

تأسّس في إكليريكيّة مار أفرام السريانيّة الأرثوذكسيّة في معرّة صيدنايا مركز «سريانيّ» يضمّ مخطوطات وميكروفيلم، موضوعة في تصرّف الباحثين. كما يُقام فيه بعض الندوات وينشر بعض المطبوعات. وأسّست جامعة الكسليك المارونيّة، قرب بيروت، في العام الـ٢٠٠٨، معهدًا للدراسات السريانيّة العليا.

٦- المطبوعات

في العام الـ١٨٣٩ كان لدى النائب البطريركيّ كيرلّس يعقوب، الذي أضحى بطريركًا باسم يعقوب الثاني، مطبعة في القسطنطينيّة، ونشر كتاب المزامير وكتاب الصلوات. ومنذ العام الـ١٨٦٦ عملت مطبعة أخرى في دير الزعفران، عندما كانت البطريركيّة ما زالت قائمة فيه. وفي القرن العشرين وُجدت مطابع أخرى، أمثال التي في

دير القدّيس مرقس في القدس، وفي العطشانة، في لبنان، وفي الموصل، وفي بامباكودا، كيرالا، الهند. ومنذ العام الـ١٩٨٥ إلى العام الـ١٩٩٢ صار لدير القدّيس أفرام في هولندا، مطبعته الخاصّة، التي ما زالت تنشر كثيرًا من المطبوعات.

٧- المجلات

ومنذ العام الـ١٩١٣، طُبعت مجلّة «الحكمة» لمدّة سنة في دير الزعفران، واستمرّ طبعها من العام الـ١٩٢٧ إلى الـ١٩٣١ في القدس، ومنذ العام الـ١٩٥٢ ولسنوات عدّة، في ماردين، ومنذ العام الـ١٩٩٠، أُعيد طبعها ثانية في القدس. ومنذ العام الـ١٩٦٢ «المجلّة البطريركيّة» هي المجلّة الأهمّ للكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة.

ومنذ العام الـ١٩٤٦ إلى الـ١٩٤٧ طُبعت مجلّة «المشرق» في الموصل، وتبعتها «لسان المشرق» من العام الـ١٩٤٨ إلى العام الـ١٩٥٢.

وأمّا مجلّة «الصوت السريانيّ» (قولو سريويو) فهي مجلّة أبرشيّة أوروبّا الغربيّة منذ العام الـ١٩٧٩، ويحرّرها المطران جيجك في دير القدّيس أفرام في هولندا، بلغات مختلفة: الألمانيّة والسريانيّة والتركيّة. ومنذ العام الـ١٩٨٦ تصدر مجلّة «الشمس» (شمشو) في هولندا.

أمّا «النشرة السريانيّة» (سفرو سريويو) فهي المجلّة التي تمّ إحياؤها في حلب على يد المتروبوليت غريغوريوس يوحنّا إبراهيم. وفي إسطنبول هناك نشرة كنسيّة باسم «ضوء اليوم الجديد» (يني غون ايشري)، وفي الولايات المتّحدة الأميركيّة هناك نشرات عديدة تنشرها الكنيسة.

المطران غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، مطران حلب، مسؤول عن العديد من المنشورات في سلسلة ماردين، باللغات العربيّة والسريانيّة والإنكليزيّة، المتمحورة حول الدراسات السريانيّة، واللاهوت، والتاريخ والروحانيّة، والابائيّات والعظات. وتنوي دار النشر هذه الاستمرار في إبراز تراث الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، وبخاصّة أعمال بعض الكتّاب السريان الأرثوذكس من الماضي. ويمكن العثور على مقال عن تلك المنشورات والكتب في العدد الأوّل من المجلّة الإلكترونيّة «هوغوي» (Hugoye)، كتبه أندرو بالمر.

أسّس المتروبوليت جيجك دار نشر ابن العبريّ في لوسير، هولندا. ومنذ العام الـ١٩٧٨ إلى العام الـ١٩٩٨ أصدرت ما يزيد عن مئة وعشرين كتابًا، بالألمانيّة، والعربيّة، والتركيّة، والإنكليزيّة، حول التاريخ، والعقائد، والكتاب المقدّس، وتعليم السريانيّة، وكذلك المعاجم، وسير القدّيسين، وكتب الصلوات. وقام المتروبوليت جيجك بنسخ العديد من كتب التراتيل والصلوات باليد، ثمّ تمّ إصدارها. صدر أيضًا العديد من الكتب الليتورجيّة بالسريانيّة لاستعمال رعايا الشتات.

لا بدّ لنا أيضًا من ذكر الكتب الليتورجيّة التي قام المتروبوليت أثناسيوس يشوع صموئيل، بطباعتها باللغة الإنكليزيّة في لوداي، نيوجرسي، في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

٨- الصحف من العام الـ١٩١٠ إلى العام الـ١٩١٤

«دليل الآشوريّين» (١٩٠٩)، «ونجم المشرق» (بين الـ١٩١٠

والـ١٩١٢) و«البوق» (من العام الـ١٩١٢ إلى العام الـ١٩١٥) هي أوّل الصحف الصادرة في شرق تركيا، إلاّ أنّها توقّفت جميعها في زمن المذابح. ومنذ العام الـ١٩٢٧ إلى العام الـ١٩٤٦، طُبعت مجلّة «لسان الأمّة» في بيروت.

وهناك الآن العديد من الصحف تصدر في جميع أنحاء العالم، وبخاصّة في السويد، حيث تصدر Bahro Suryoyo منذ العام الـ١٩٧٩، ونصّيبين منذ العام الـ١٩٨٧، وآروم منذ العام الـ١٩٩١، ... وفي تركيا تصدر «صوت طورعبدين» (Kolo Turabdin). وهناك العديد من الصحف تصدر في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وفي الهند، وفي بلدان أخرى.

٩- المدارس الإكليريكيّة

بدأت أوّل مدرسة إكليريكيّة لاهوتيّة بطريركيّة في الزمن الحاليّ في دير الزعفران العام الـ١٩٠٥، إلاّ أنّ نشاطاتها توقّفت مع أحداث العام الـ١٩١٤. وأعيد تنظيمها كمدرسة إكليريكيّة صغرى فعملت من الخمسينات إلى السبعينات من القرن الماضي. وفي العام الـ١٩٥٥ أُعيد تنظيم مدرسة إكليريكيّة في دير القدّيس جبرائيل في طورعبدين. وكذلك أنشأ البطريرك برصوم، في زحلة، لبنان، مدرسة إكليريكيّة أخرى، قامت منذ العام الـ١٩٣٩ حتّى العام الـ١٩٤٥، حيث تمّ نقلها إلى الموصل. وفي العام الـ١٩٦١، أُعيدت إلى زحلة، وفي العام الـ١٩٦٨، استقرّت أخيرًا في العطشانة، قرب بيروت. وفي العام الـ١٩٧٨، نُقلت إلى دمشق لمدّة عامين، بسبب الحرب اللبنانيّة، ثمّ عادت إلى العطشانة في العام الـ١٩٨٠ لمدّة سنة أو سنتين، وعادت إلى دمشق قرب مقرّ

البطريركيّة في العام الـ١٩٨٢.

ووُجدت أيضًا مدارس إكليريكيّة أخرى: إحداها في العام الـ١٩٢٣ في دير مار متّى في العراق، وأخرى، في الفترة الممتدّة بين الـ١٩٦٠ والـ١٩٦٣، في دير القدّيس مرقس في القدس. وكذلك نُقلت مدرسة الموصل إلى دير مار متّى في العام الـ٢٠٠٧.

أمّا المدرسة الإكليريكيّة الرئيسة فتقع الآن في معرّة صيدنايا، قرب دمشق. وافتُتحت في أيلول العام الـ١٩٩٦، ويمكنها استقبال نحو مئة طالب. كما توجد أيضًا مدرسة لاهوتيّة في الهند، في فينتيكيل، على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الشرق من كوشين. مع ذلك، تستمرّ بعض الأديرة في تأدية دور في نشر الروحانيّة والثقافة السريانيّة الأرثوذكسيّة للمؤمنين.

١٠- المدارس

في العام الـ١٨٣٨ افتُتحت مدرسة في دير الزعفران، وأخرى «نموذجيّة» في دياربكر، من العام الـ١٨٦٠ إلى العام الـ١٨٧١، كما عملت مدرسة صغيرة في ماردين، في عهد البطريرك بطرس الرابع (١٨٧٢-١٨٩٤).

وفي العام الـ١٩١٨ وجدت مدرسة ابتدائيّة كبيرة في أضنة، استقبلت عددًا من أيتام المذابح. وفي العام الـ١٩٢٣، نُقلت المدرسة إلى بيروت، وتحوّلت إلى ميتم.

وفي العام الـ١٩٩٨، شملت المؤسّسات التعليميّة السريانيّة، في سورية، ولبنان، والعراق، ستّ عشرة حضانة، وثماني عشرة مدرسة

ابتدائيّة وسبع مدارس إعداديّة، ومدرسة واحدة ثانويّة، يلقّن فيها اللغة السريانيّة والتعليم الدينيّ إلى جانب المواد التعليميّة الأخرى. وتجدر افشارة إلى أنّ الكنيسة تدفع رواتب المدرّسين في سورية ولبنان.

١١- تعليم اللغة السريانيّة

ما زالت اللغة السريانيّة الفصحى (سوريويو) تدرّس اليوم ليس فقط من أجل القراءة والكتابة، بل من أجل ترتيلها في الكنيسة، بخاصّة في المدارس الإكليريكيّة وبعض الأديرة، وفي العديد من الكنائس والمدارس، كما في مدارس الأحد في الشرق الأوسط وفي المهاجر. ويلاقي تعليم اللغة السريانيّة حماسًا متجدّدًا. وصدر عدد من الكتب لتلقين هذه اللغة، في منشورات هيبراوس في هولندا، وفي القامشلي، وحلب. علّم السريانيّة الملفونو أبروهوم نورو (المتوفّى في العام الـ٢٠٠٨) في حلب وفي أمكنة أخرى، كما كتب في العام الـ١٩٨٩ كتابًا لتعليم اللغة السريانيّة الفصحى، مع أشرطة كاسيت وأشرطة فيديو باسم سولوقو (Suloko). فاللغة السريانيّة الفصحى ليست إذًا لغة ميتة، إذ ما تزال اللغة المحكيّة في أوساط البطريركيّة، وفي المدارس الإكليريكيّة، والأديرة، من قبل بعض الكهنة، وحتّى بعض العلمانيّين، كما يمكنهم كتابتها. أمّا اللغة التي يتكلّمها السريان الأرثوذكس في مناطق طورعبدين والجزيرة، والذين انحدروا من تلك المناطق، في بيوتهم، فهي لهجة نادرًا ما تُكتب. وتُدعى اللهجة السريانيّة التي ما زالت مستعملة في منطقة الموصل، السورث (Sureth).

تُعطى الأولويّة لتعليم السريانيّة الفصحى السوريويو (Suryoyo) في الجزيرة، بخاصّة في القامشلي، حيث تُنظّم دورات

مكثّفة طوال العام، وبشكل خاصّ خلال الصيف، بمعدّل ثلاث ساعات في اليوم وستة أيّام في الأسبوع، كما تنظّم أيضًا دورات مخصّصة للشمامسة.

عمل بعض العلماء من السريان الأرثوذكس، في القرن العشرين، لإبقاء اللغة السريانيّة لغة حيّة، وشجّعوا استعمالها في الكتابة والتعليم. ومن بينهم، البطريركان أفرام الأوّل برصوم ويعقوب الثالث، والمطران فيلكسينوس يوحنّا دولباني، والأرشدياقون نعمة الله دنو (المتوفّى في العام الـ١٩٥١). من الموصل، والأب إلياس شعيا (المتوفّى في العام الـ١٩٧٠)، من برطلة في العراق. نشر عبد المسيح نعمان من قرّه باش، المولود في العام الـ١٩٠٣، قرب دياربكر (المتوفّى في العام الـ١٩٨٠)، ويوحنّا قاشيشو (المتوفّى في العام الـ٢٠٠١) كتبًا لتعليم اللغة السريانيّة. وساهم كثر آخرون، أمثال دنحو مقدسي إلياس من أضنة، وإبراهيم صومي (اللذين هاجرا إلى البرازيل حيث توفّيا)، في الحفاظ على التراث السريانيّ حيًّا، باستعمالهم اللغة السريانيّة في مقالاتهم وكتبهم.

اخبرني المطران جيجك قائلاً: «اللغة السريانيّة هي لغة كنيستنا، وتاريخنا وتقليدنا. ويرغب بعض الشباب بتعلّم السريانيّة، إلاّ أنّ الأمر يستغرق وقتًا. كما منحنا الإذن في أوروبّا بتدريس اللغة السريانيّة الفصحى (سوريويو) في المدارس الحكوميّة، في ألمانيا والنمسا وهولندا والسويد».

وقال لي مار أسطاثيوس متّى، مطران الجزيرة: «إنّنا فخورون بلغتنا السريانيّة، مع أنّ بعض المؤمنين لا يفهمونها عند استعمالها

في الصلاة، إلاّ أنّهم يقولون إنّهم بحاجة إليها. ولدينا في القامشلي مهرجان سنويّ للغة السريانيّة، والخطّ السريانيّ، والأغاني السريانيّة، يكتب فيه الشباب قصائد وقصصًا قصيرة باللغة السريانيّة الفصحى، وكذلك بالطورانيّة. وما زال معظم الناس في القامشلي يتكلّمون الطورانيّة في بيوتهم، ما يؤكّد أنّ لغتنا ما زالت حيّة. ولكن لا يكفي أن نصلّي باللغة السريانيّة، بل يجب تفسير المعنى الروحيّ واللاهوتيّ للنصوص الليتورجيّة أيضًا باللغة العربيّة أو بأيّة لغة يفهمها المصلّون».

وقال لي طالب في القامشلي: «عندما أُرزق أولادًا سأعتبر من واجبي تعليمهم الطورانيّة، اللهجة السريانيّة المستعملة في تركيا، والتي علّمتني إيّاها جدّتي. عندما أتكلّمها مع أحد، أشعر أنّني في البيت. فهي تساعد شعبنا وكنيستنا على البقاء أحياء. وأفضّل أيضًا الصلاة بالسريانيّة، لغة كنيستنا القديمة». واللغة السريانيّة هي، بالنسبة إلى السريان الأرثوذكس، من أهمّ عناصر هويّتهم. وعندما سألت أطفالاً في حلب، في العاشرة من عمرهم، إذا كانوا يحبّون تعلّم اللغة السريانيّة، أجابوني: نعم لأنّها لغتهم الخاصّة، ولغة صلواتهم وإيمانهم.

قرّر طوني صليبا، وهو شاب سريانيّ أرثوذكسيّ من بيروت، دراسة اللاهوت، بعد قراءة مقطع من الإنجيل، لكي يعيش بحسب مقتضيات الكتاب المقدّس. وهو الآن يدرّس اللغة السريانيّة للشباب، قائلاً: «من المهمّ تعليم اللغة السريانيّة للأولاد، على الأقلّ الصلوات الرئيسة، لأنّ اللغة السريانيّة لا يمكن فصلها عن تقليد كنيستنا وعن

حياتنا. ولكن من المهمّ أن يفهم الأولاد منذ طفولتهم، كيف يجب أن يستفيدوا من الحياة الروحيّة الكامنة في الكلمات السريانيّة. فالكنيسة هي كالعصفور، ولا يمكنها أن تطير بدون جناحيه الاثنين، أي التقليد والروحانيّة. فعلينا الحفاظ على هذه الحياة الروحيّة ونقلها إلى شعبنا».

ومن أجل كلّ هذه الأسباب، يتمّ تشجيع الشبيبة على دراسة اللغة السريانيّة، لكي يتمكّنوا من الغوص في كنوز التقليد السريانيّ. وبدأ بعض الشباب من السريان الأرثوذكس دراسات أكاديميّة في اللغة والآداب السريانيّة.

وبالإضافة إلى المصادر الأدبيّة، يمكن العثور على معلومات مهمّة عن التقليد السريانيّ في الكتابات المنقوشة، في مجال الفن وعلم الآثار، وفي بعض الأديرة والكنائس جداريّات رائعة، ومنمنمات في عدد من الأناجيل المصوّرة والمخطوطات وغيرها من الآثار المكتوبة.

الفصل الرابع

الحياة الليتورجيّة

التقليد الليتورجيّ السريانيّ الأرثوذكسيّ هو من أغنى وأجمل مظاهر الإرث الروحيّ المسيحيّ. يُنسج شعره اللاهوتيّ من موادّ كتابيّة، تسبيحًا للثالوث القدّوس، ولله الذي صار إنسانًا من أجل التدبير الخلاصيّ، ولوالدة الإله وكلّ القدّيسين.

هيمن التقليد الأنطاكيّ على ليتورجيا القرون الأولى، عبر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، وآخرين غيره. أثّرت هذه الليتورجيا في ليتورجيا القسطنطينيّة. وكان يُحتفل بالقدّاس الإلهيّ، في منطقة أنطاكية، وفي المدن الكبرى المهلينة، باللغة اليونانيّة. أمّا في الأماكن الأخرى، فسادت اللغة السريانيّة. وعلى حسب قول الأب تافت (Taft)، وهو العالم الليتورجيّ الشهير، أدّت مراكز ليتورجيّة ثلاثة دورًا مهمًّا في أصول الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ، وهي: أورشليم وأنطاكيّة (باليونانيّة) والرها (بالسريانيّة). ويجمع الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ بين العناصر السريانيّة، وبخاصّة الأناشيد، وعناصر تُرجمت من النصوص الليتورجيّة اليونانيّة المستعملة في أنطاكية وأورشليم. عمل على جمعها الرهبان الناطقون باللغة السريانيّة، في الأراضي الداخليّة من سورية، وفلسطين وبعض أجزاء من بلاد ما بين النهرين.

وتؤدّي الأناشيد دورًا مهمًّا في هذا الطقس، ويُنسب أجملها إلى شعراء لاهوتيّين كبار، أمثال القدّيس أفرام أو القدّيس يعقوب

السروجيّ. ويمكن اعتبار القدّيس أفرام أبًا لكلّ التقاليد الليتورجيّة السريانيّة التي تطوّرت عبر القرون، والتي تُرجم بعضها، وبخاصّة الأناشيد، إلى لغات مختلفة، ودخلت الصلوات اليونانيّة والأرمنيّة والسلافيّة لاحقًا.

وضع كتّاب أمثال جرجس، أسقف العرب، ويعقوب الرهاويّ، ويوحنّا الداريّ، وموسى بن كيفا، وذيونيسيوس بن الصليبيّ، ويوحنّا بن العبريّ، تفسيرات حول الليتورجيا.

وفي ما يتعلّق بانتقال أمور من طقس الكنيس اليهوديّ إلى طقس الكنيسة الأوّل، تأثّرت المسيحيّة بعامّة به إلى حدّ كبير، وبخاصّة التقليد المسيحيّ السريانيّ.

مبنى الكنيسة

في شمال سورية، وبخاصّة في المنطقة الواقعة بين أنطاكية وحلب، تشهد بقايا مئات من الكنائس، على وجود مسيحيّ ناشط قديم. تُمثّل كنائس كرك بيزة وقلب لوزة، وغيرهما في المنطقة، نماذج معماريّة لافتة. وكذلك توجد كنائس قديمة في طورعبدين وشمال العراق.

يُقسم مبنى الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة التقليديّة إلى ثلاثة أجزاء:

- الهيكل أو قدس الأقداس، (beth qudsho).
- صحن الكنيسة (Haiklo).
- القسطروم (qestromo)، حيث يقف أعضاء الجوقة والشمامسة، والذي يرتفع عن صحن الكنيسة، وفيه مقرآن، الكود (مفرد

gudo) لوضع كتب الصلوات والقراءات، والذي منه ترتّل الجوقتان بشكل متناوب. وللكنيسة شكل مستطيل ذا صحن واحد أو ثلاثة. ويمكن إيجاد في قدس الأقداس، ثلاثة مذابح (المفرد madhbo)، بخاصّة في الكنائس الكبيرة.

يجب تكريس المبنى قبل القيام بخدمة القدّاس الإلهيّ. ويوضع لوح من الخشب المكرّس، يُدعى طبليث (tablito)، على المذبح ويُغطّى بغطاء. وفوق المذبح هناك أحيانًا البلدشين (baldachino) الذي يرمز إلى مظلّة موسى أو السماء.

وتوجد على المذبح، خزانة صغيرة، وهي بيت القربان (beth qourbono)، حيث تحفظ القرابين المقدّسة من أجل مناولة المرضى. أمّا الأواني الليتورجيّة (الصينية، والكأس...) فهي مشابهة للتي تستعملها الكنيسة ذات الطقس البيزنطيّ.

ويلاحظ أنّ صحن الكنيسة أطول في كنائس الرعايا منه في كنائس الأديرة، بيد أنّ الأخيرة هي أكثر عرضًا. ويتمّ الوصول إلى الهيكل من طريق ثلاث درجات. وتفصله عن الجوقة ستارة تسدل خارج وقت الخِدَم، كما تسدل في بعض لحظات من القدّاس الإلهيّ. ويرجع تقليد الستائر إلى القرون الأولى من حياة الكنيسة، غالبًا في القرن الرابع.

عندما لا يُحتفل بالقدّاس الإلهيّ، يُعرض الإنجيل على مقرأة خاصّة تُدعى الجلجثة (بالسريانيّة غوغولثو gogultho)، وهي موضوعة أمام ستار الهيكل وخارجه. أمّا جرن المعموديّة فيكون على

العموم في الجزء الجنوبي الأماميّ من صحن الكنيسة.

ويوجد عادة إلى اليسار، عندما يدخل المرء الكنيسة من الباب الغربيّ، رفات القدّيسين، في ما يُدعى «بيت القدّيسين» (Beth qadishe). ويُدعى هذا المكان بيت الشهداء (Beth Sohde) إن كان يوجد فيه رفات للشهداء. يمكن دفن الأساقفة داخل الكنيسة، وأحيانًا في بيت القدّيسين، لا بل تحت أحد المذابح الجانبيّة. وتوجد غالبًا في كلّ كنيسة أيقونات للسيّد والعذراء والأعياد الرئيسة والقدّيسين. كما توجد في بعض الكنائس جدرايّات، منها آثريّة كما في صدد ومار موسى في سورية، أو في دير السريان في وادي النطرون، في مصر، حيث أقام في الماضي رهبان سريان أرثوذكس.

ونجد أحيانًا في الكنائس القديمة، ما يُدعى بـ«البيما»، وهي منبر أو منصّة مرتفعة، في وسط صحن الكنيسة، وكانت تُستعمل للقراءات أو الترتيل. وكما في العهد القديم، ما تزال تُقرأ اليوم التوراة من على البيما، في كنيس اليهود.

الليتورجيا الإفخارستيّة

تشير العبارة السريانيّة (qourbono alohoyo) إلى القدّاس الإلهيّ، كما تشير عبارة (qourboyo) إلى «التقدمة» أو الذبيحة. ويُقسم القدّاس الإلهيّ إلى الأقسام التالية: التقديسات الثلاثة، وقراءات الكتاب المقدّس، وقانون الإيمان، وقبلة السلام، ثمّ الأنافورا، وتتبع المناولة، ثمّ الدعوة إلى الانصراف.

تقليديًا تُتلى ثلاث قراءات من العهد القديم (التوراة وأعمال

الحكمة والأنبياء) وثلاث من العهد الجديد (أعمال الرسل، والرسائل والإنجيل). وتحلّ أحيانًا رسالة جامعة محلّ الأعمال. وأثناء تلاوة الإنجيل يحمل شماسان شمعتين يحوطان بهما الكاهن القارئ.

وفي الطقس السريانيّ، المتعلّق بقبلة السلام، يخرج الشمّاس من الهيكل، وينقلها إلى أقرب المصلّين في الصفّ الأوّل، وينقلها هؤلاء تباعًا إلى أن تصل إلى آخر الكنيسة. وقضت العادة أيّام الآحاد والأعياد الكبرى، بقراءة «سِفر الحياة» (Sefro d'haye)، أي الكتاب الذي يحتوي على أسماء الأموات، وكان يُتلى قبل قبلة السلام.

وكما يشهد بعض الكتّاب السريان الأرثوذكس، كان زيّاح القرابين يقام، كما في التقليد البيزنطيّ، بعد صلاة انصراف الموعوظين.

أمّا القسم الرئيس من القدّاس الإلهيّ، ويُدعى الأنافورا، فيتضمّن تقديس الخبز والخمر، وذكر أحداث الخلاص أو ذكر تأسيس الإفخارستيّا، واستدعاء الروح القدس، وصلوات ابتهاليّة طويلة. ويتضمّن طقس المناولة، صلاة كسر القربان والصلاة الربّيّة، ورفع القرابين، والمناولة، وصلاة الشكر يتبعها إعطاء البركة، ثمّ انصراف المؤمنين، وصلوات ما بعد المناولة.

تُغطّى القرابين الموضوعة في الكأس وعلى الصينيّة، خلال صلاة التقدمة. ويرفع الكاهن ستارًا فوقها يرمز إلى الحجر فوق قبر المسيح، محرّكًا إيّاه إلى الأعلى والأسفل، فوق القرابين. وبعد ذكر أحداث الخلاص، يتمّ استدعاء الروح القدس. وفي هذا الوقت، يحرّك الكاهن يديه فوق القرابين واضعًا اليمنى فوق الصينيّة، واليسرى

فوق الكأس. أمّا أثناء صلاة التقديس، فيحرّك الكاهن يده اليمنى فوق القرابين، رامزًا إلى حلول الروح القدس. ثمّ يعطي الكاهن المناولة مباشرة من الكأس بيده اليمنى. ثمّ يعطي البركة، ويتلو الصلاة الأخيرة. فيقبّل المؤمنون الإنجيل ويأخذون بعضًا من الخبز المبارك، قبل مغادرة الكنيسة. ويتناول الكاهن ما تبقى من القرابين المقدّسة، ثمّ يغسل كلّ الأواني الليتورجيّة قبل مغادرة الكنيسة.

وفي بعض الأوقات، مثلاً عند تلاوة الإنجيل، أو عند التقدمة أو أثناء صلاة التقديس واستدعاء الروح القدس، وقبل المناولة، يحرّك الشمّامسة مروحتين، وهي أقراص معدنيّة مرسوم عليها الشيروبيم والسيرافيم، تحمل في أعلى قضيب وتُعلّق عليها أجراس، وذلك للإشارة إلى أهمّيّة تلك الأوقات الليتورجيّة. ويوجد في التقليد الأرمنيّ ما يشابه هذه المراوح.

الأنافورات

تمثّل الأنافورا الجزء الرئيس من القدّاس الإلهيّ. وتوجد في التقليد السريانيّ ثمانون أنافورا. وينسب العديد منها إلى شخصيّات سريانيّة شهيرة أمثال يعقوب السروجيّ، (المتوفّى في العام الـ٥٢١) وسويريوس الأنطاكيّ (في العام الـ٥٣٨)، وفيلكسينوس المنبجيّ (المتوفّى في العام الـ٥٢٣)، وذيونيسيوس يعقوب بن الصليبيّ (المتوفّى في العام الـ١١٧١)، وغريغوريوس يوحنّا ابن العبريّ (المتوفّى في العام الـ١٢٨٦)، والمفريان ماروثا (المتوفّى في العام الـ٦٤٩)، ويوحنّا أسقف دارا، والمعاصر له البطريرك ذيونيسيوس التلمحريّ (القرن التاسع)، وموسى بن كيفا (المتوفّى في العام الـ٩٠٣)، وميخائيل الكبير (المتوفّى

في العام الـ١١٩٩).

أمّا الأنافورتان الأكثر استعمالاً، فهي أنافورا الرسل الاثني عشر (من التقليد الأنطاكيّ) وأنافورا القدّيس يعقوب (من التقليد الأورشليميّ). وتشبه بعض أجزاء الأنافورا الأولى ما يوازيها في أنافورا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم البيزنطيّة.

أضيفت إلى هاتين الأنافورتين، مؤلّفات جديدة تتالت عبر العصور. إنّما معظم الأنافورات وغيرها من الكتابات الليتورجيّة، وُضعت بين القرون الخامس والسادس والقرن الرابع عشر. يحمل بعضها أسماء الرسل أو آباء الكنيسة، أمثال مرقس، وبطرس، ويوحنّا الإنجيليّ، وزيستوس ويوليوس الرومانيّ، ويوحنّا الذهبيّ الفم، وكيرلّس الإسكندريّ. ويمكن للكاهن اختيار إحدى هذه الأنافورات للاحتفال بالقدّاس الإلهيّ. ولكن تُستعمل حصرًا الأنافورا المنسوبة إلى القدّيس يعقوب، الأسقف الأوّل لأورشليم، في جميع الأعياد السيّديّة، وأثناء رسامة الكهنة، كما يستعملها الكاهن المرسوم حديثًا، في أوّل قدّاس إلهيّ له، وأثناء أوّل قدّاس إلهيّ يُقام على مذبح مكرّس حديثًا.

تشبه الهيكليّة الأساسيّة للأنافورات السريانيّة إلى حدّ كبير، الأنافورات البيزنطيّة المنسوبة إلى القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، والقدّيس باسيليوس الكبير. لكن توجد بعض الفروقات، أهمّها:

١- يُتلى دستور الإيمان قبل التقدمة وقبلة السلام في الطقس السريانيّ الأنطاكيّ، وبعد قبلة السلام في الطقس البيزنطيّ.

٢- يُصار إلى كسر القربان قبل الصلاة الربّيّة في الطقس السريانيّ، وبعدها في الطقس البيزنطيّ.
٣- أُضيفت عبارة «الذي صُلب من أجلنا» في الطقس السريانيّ إلى التسبيح الشيروبيميّ، بعد المجمع الخلقيدونيّ، حيث تُرجمت بعض الصلوات من اليونانيّة إلى السريانيّة مع تعديلها أو إدخال عبارات جديدة عليها.

الكتب الليتورجيّة

يستعمل الكاهن بصورة رئيسة كتاب الأنافورات الذي يحتوي، في طبعته الحديثة عادة على عشر أو خمس عشرة أنافورا، ويتضمّن النصوص الليتورجيّة التي تُتلى قبل الأنافورا وبعدها. ويتمّ اختيار القراءات الإنجيليّة، كما قراءات من الرسائل، من كتابين خاصّين بتلك القراءات. ويوجد دليل مرجعيّ يجمع القراءات الكتابيّة خلال العام الواحد يُدعى (Mehawyono d-Qeryone)، كما توجد بعض النصوص الخاصّة بالأعياد في كتاب (Ma'de'dono) المعذعذان.

يستعمل الشمّاس والإيبوذياكون، أثناء القدّاس الإلهيّ، كتاب «طقس الخدمة» (Tekso d'Qourobo). وهناك أيضًا كتاب خاصّ بالترانيم (Qinotho)، يستعمله الشمّاس والمؤمنون فقط أثناء القدّاس الإلهيّ خلال كلّ السنة، بما في ذلك الأعياد والصوم الكبير.

ويُدعى كتاب طقوس رسامة الإكليروس (المرتّل، والإيبوذياكون، والشمّاس، والكاهن، والأسقف والبطريرك)، ونذور الرهبان والراهبات، الـ«أمولوغيا» (omologia). أمّا صلوات تكريس الميرون،

أو الزيت المقدّس، أو تكريس الكنائس والأديرة الجديدة أو المذبح، والمائدة والأيقونات، فتوجد في كتاب (koudosho).

وتوجد صلوات أسرار المعموديّة والزواج، ورتبة صلاة دفن الموتى في كتب طقسيّة خاصّة تُدعى (Tekso).

ويعتبر كتاب الخرونيقون (kronikon) تقويمًا كنسيًّا (Sourgodo) يُعطي تواريخ الأعياد المتنقّلة، وأعياد القدّيسين.

ويستعمل الكاهن كتاب (Slawotho d'Kohne) الذي يجمع الصلوات المقامة للمؤمنين في الكنيسة وعند زيارتهم في بيوتهم، للتبريك والاعتراف والمرض... ويتضمّن أيضًا هذا الكتاب أنافورا القدّيس يعقوب. أمّا خدمة مسحة المرضى، فتُقام ضمن خدمة يهيمن عليها طابع التوبة، وتوجد في كتاب (Ktobo d'Qaudelo).

وللرهبان والراهبات كتابهم الخاصّ للصلوات يُدعى شبيثو (Chbitho)، ويتضمّن كلّ المزامير والخدم اليوميّة السبع (Sloutho).

في ما عدا الإنجيل وسِفر المزامير (وغالبًا ما يُدعى سفر داود)، فإنّ الكتب الرئيسة المستعملة للخدم اليوميّة هي، الإشحيم (Chehimo)، والفنقيث (Fanqitho)، والحساية (Housoyo). ويستعمل الكتاب المسمّى الإشحيم (Chehimo) الذي يعني البسيط، للأيّام العاديّة من الأسبوع، ويشتمل على المزامير والتراتيل، ولكن بدون القراءات الكتابيّة.

أمّا كتاب ترانيم الأعياد، المسمّى فنقثو (Fanqitho) أي المجلّد،

فهو يجمع تراتيل مختلفة لأيّام الآحاد والأعياد على مدار السنة، وأيضًا أعياد بعض القدّيسين.

جمع البطريرك ميخائيل الكبير في القرن الثاني عشر، في كتاب الحسايات (Housoyo) أي استغفار وغفران، الصلوات المرافقة لخدمة البخور، أمثال الـ(Sedro) أو الـ(Pro'ormion).

تُرجمت بعض هذه الكتب إلى الإنكليزيّة بخاصّة في الهند والولايات المتّحدة، كما أنّ بعضها تُرجم أيضًا إلى اللغة الألمانيّة.

الخِدَم اليوميّة

هناك سبع خدم قانونيّة في اليوم الواحد، تُقسم إلى مجموعتين: قسم للمساء (الساعة التاسعة، صلاة الغروب، صلاة النوم) والأربع الأخرى للصباح.

وتتألّف الخِدَم السبع من مزامير وأناشيد وتراتيل شعريّة مؤلّفة من القرن الرابع وصاعدًا.

أنماط متنوّعة من الأناشيد

تحتلّ الأناشيد في التقليد السريانيّ مكانة في الليتورجيا غاية في الأهمّيّة. وهي موجودة في كلّ الكتب الليتورجيّة. توجد منها أعداد كبيرة وأغلبها موحى به من الكتاب المقدّس. يرجع بعضها إلى زمن القدّيس أفرام وإلى آباء سريان آخرين، مثل يعقوب السروجيّ، وبالايّ، ورابّولا، وماروثا، وسعيد بن الصابونيّ (المتوفّى في العام الـ١٠٩٦)، ويوحنّا أسقف ملطية.

وتشكّل المداريش أقدم نوع من هذه الأناشيد وأشهرها. وهي قصائد تعليميّة، أو سلسلة من المقاطع الشعريّة تُرتّل إفراديًّا، بينما تردّد الجوقة اللازمة، بعد كلّ واحدة منها. وتُنسب معظم تلك المداريش إلى القدّيس أفرام وقد رتّلتها في أيّامه جوقات مؤلّفة من العذارى.

اشتهر البطريرك يوحنّا الثالث (المتوفّى في العام الـ٦٤٨) بتأليف ما يُسمّى السدر (الترتيب). كما اشتهر في هذا المجال ماروثا التكريتيّ وأثناسيوس البلديّ (القرن السابع) وابن الصليبيّ، وميخائيل الكبير.

والسجدات (سوغيثو Soughotho) هي نوع آخر من المداريش ذات المقاطع الشعريّة القصيرة. وتكون أحيانًا على شكل حوار، أو مؤلّفة من أبيات شعريّة وضعت في تسلسل أبجديّ. ويرجع بعضها إلى زمن القدّيس أفرام، كما أنّ يعقوب السروجيّ اشتهر في تأليفها.

ويوجد أيضًا عنصر آخر مكوّن للخدم، هو الميامر أو العظات الشعريّة، والتي تكون غالبًا ذات صبغة روائيّة، وذات الأبيات المزدوجة التي كانت تُقرأ بشكل موزون. يُنسب بعضها إلى القدّيس أفرام، وإسحق الأنطاكيّ، (القرن الخامس)، ويعقوب السروجيّ. كتب بالايّ (القرن الخامس)، أسقف باليس (مسكنة)، قرب حلب، ميامر تُستعمل اليوم في صلاة السحر وصلاة الغروب اليوميّة. ويُستعمل ميمر القدّيس أفرام الشهير عن يونان النبيّ وتوبة نينوى، في صيام أهل نينوى.

ويُقال إنّ شمعون الفخّاريّ، وهو خزّاف، وضع، في القرن

السادس، نوعًا من الأناشيد يُدعى قوقويو (qouqoyo)، وهي غالبًا ما تتألّف من أربعة مقاطع شعريّة.

وكتب رابّولا (المتوفّى في العام الـ٤٣٥)، أسقف الرها، أناشيد تُدعى تخشفتو (takshefto)، وهي مكرّسة للعذراء والقدّيسين وتُستعمل للتوبة ولذكر الموتى.

وتُعرف الأناشيد التي كتبها لاحقًا كتّاب مجهولون بالـ قَل (qolo).

الموسيقى الكنسيّة

كتاب بيث كاز (Beth Gazo) هو كتاب ليتورجيّ مهمّ يُعنى بالموسيقى الكنسيّة. ويعني اسمه المخزن، (وغالبًا ما يُدعى الـ Octoechos)، أي الألحان الثمانية. ويحتوي على كلّ الألحان والتراتيل السريانيّة، بما فيها ألحان وتراتيل الأعياد. وهو أقدم كتب الأناشيد الرسميّة وتُنسب مجموعة أقدم من التراتيل إلى سويريوس الأنطاكيّ (المتوفّى في العام الـ٥٣٨)، ترجمها بولس، أسقف الرها (في أوائل القرن السابع)، وراجعها لاحقًا يعقوب الرهاويّ (المتوفّى في العام الـ٧٠٨). ولم يتمّ حتّى الآن ترتيبها وفق الألحان الثمانية. ويرجع كتاب الـOchtoechos السريانيّ الحاليّ إلى العصور الوسطى، وهو يوازي تقريبًا الـHirmologion البيزنطيّ.

في الخِدَم اليوميّة السبع، تُرتّل المزامير والأناشيد وفقًا للألحان الثمانية. وصنّفها السريان في فئات تُدعى الباردة والحارّة، الرطبة واليابسة، المطربة والمحزنة، المنبّهة والمذلّلة. واستعمالها أكثر تعقيدًا

ممّا هي عليه في التقليد البيزنطيّ، إذ يستعمل لحنان خلال الأسبوع الواحد. فبعد عيد الفصح، مثلاً، يتناوب اللحن الأوّل مع الخامس كلّ يومين، ويتناوب اللحن الثاني مع السادس، وهكذا دواليك. ولكلّ لحن استعماله الخاصّ. فعلى سبيل المثال، يُرتّل اللحن السادس أو الثامن بطابعه الحزين للأموات، واللحن الأوّل الأكثر فرحًا في عيد الفصح. ويُستعمل نمط موسيقيّ خاصّ في وقت الصوم الأربعينيّ الكبير. وتختلف طريقة الترتيل من منطقة أخرى (طورعبدين، ماردين، الموصل...).

مؤخّرًا قام، الأستاذ نوري إسكندر، الموسيقيّ في حلب، بتسجيل علامات «بيث كاز» الموسيقيّة. ولديه مشروع لتسجيل كلّ أناشيد التقليد السريانيّ وألحانه من أجل تعليم السريان الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم. والموسيقى الليتورجيّة السريانيّة الرائعة متوفّرة الآن على أشرطة وCD. وضع الدكتور جورج كيراز الـ«بيث كاز» بأجمعه مرتّلاً من البطريرك يعقوب الثالث على الإنترنيت.

حياة الصلاة

عند دخول الكنيسة وقبل مغادرتها، يقبّل المؤمنون الإنجيل. ويرسمون إشارة الصليب على جباههم بالزيت المأخوذ من السراج المشتعل أمام الأيقونات، ويقبّلون الأيقونات ورفات القدّيسين (إن وجد) ويضيئون الشموع. وبحسب التقليد، تلقّى الملك أبجر، ملك الرها، منديلاً طُبع عليه وجه المسيح، ويُقال إنّ هذه الصورة هي النموذج الأصليّ للأيقونات التي تمثّل المسيح في التقاليد الأرثوذكسيّة. وتوجد في الكنيسة السريانيّة صلاة خاصّة لتقديس الأيقونات قبل

المناولة. ويعترف الناس وهم راكعون، غالبًا على إحدى درجات الـ Rostromo. ويعترف المؤمنون (mawdyonoutho) قبل المناولة. ترتّل الصلوات تقليديًّا باللغة السريانيّة.

ويُقرأ الإنجيل باللغة المحلّيّة، بينما تُتلى كلمات التقديس وأجزاء من القدّاس الإلهيّ، باللغة السريانيّة. ونقل القدّاس الإلهيّ والصلوات إلى اللغة العربيّة، وإلى المليالم في الهند، والإنكليزيّة والألمانيّة والهولنديّة والسويديّة، والإسبانيّة والبرتغاليّة والإيطاليّة. أمّا المطبوعات فتوضع النصّ المترجَم جنبًا إلى جنب النصّ السريانيّ المكتوب في الأبجديّة الأصليّة أو في نسخ لفظيّ لها.

في العادة جوقتان تقومان بخدمة الساعات، تردّ واحدتهما على الأخرى، وأحيانًا ترتّل الجوقة بمفردها. ويقف أفراد الجوقة في الـ Qostromo. وتترافق الصلوات أحيانًا بالسجدات، وبخاصّة خلال الصوم الكبير، ولكن ليس في أيّام الآحاد والأعياد.

ويقف الرجال عادة في الجانب الأيمن من الكنيسة، والنساء في الجانب الأيسر، أو حتّى في آخر الكنيسة كما كانت العادة في الماضي، غير أنّ المصلّين اليوم مختلطون في بعض الكنائس.

الألبسة الليتورجيّة

وفي ما يتعلّق باللباس، يرتدي البطريرك والأساقفة والرهبان غطاءً صغيرًا للرأس يُدعى الإسكيم (Skimo)، وعليه صليب، يمتدّ من الخلف إلى الكتفين. ويرتدي الكهنة، أثناء خدمة القدّاس الإلهيّ، قبّعة صغيرة، «فيرو» (Firo)، ويلبسون القفطان الواسع الأبيض

(Kutino) والهمنيخ (hemniko)، الذي يشبه البطرشيل البيزنطيّ. كما يرتدي البطريرك والأساقفة أيضًا برنسًا واسعًا (masneftho)، الذي يشابه الهمنيخ (Hemniko)، إلاّ أنّ له قطعة إضافيّة خلفيّة. ويلبس الكهنة جميعًا زنّارًا (Zunoro)، وزندين (Zende)، وغفّارة أو الـ فينو (faino) والتي يمكن أن تكون متعدّدة الألوان. وينتعل أيضًا الكهنة والشمّامسة خفّافات خاصّة (msone) أثناء القدّاس الإلهيّ. أمّا في الحياة اليوميّة فيرتدي الأساقفة جبّة سوداء أو حمراء، مع زنّار أحمر، وعمّامة سوداء، القاووق (qawough)، كما يضعون صليبًا على الصدر، ويحملون عصى أسقفيًّا (hutro)، وأثناء القدّاس الإلهيّ عصى مختلفة الـ(mouronitho). يعتمر الكهنة قلنسوة سوداء مستديرة (kusitho) ويرتدون جبّة سوداء (aba).

السنة الطقسيّة

تقسم السنة الطقسيّة إلى سبعة مواسم، كلّ واحد منها يمتدّ على سبعة أسابيع ويتزامن مع الأعياد السيّديّة:

- البشارة.
- الميلاد، المعموديّة، أو الظهور الإلهيّ.
- الصوم الكبير والأسبوع العظيم.
- القيامة والعنصرة.
- الرسل.
- التجلّي.
- الصليب.

وتكرّس أيّام الأسبوع على النحو التالي: الأربعاء للعذراء

والجمعة للصليب، والسبت للموتى، والأحد للقيامة. كتب إغناطيوس أفرام برصوم (المتوفى في العام الـ١٩٥٧)، في «التحفة الروحيّة» أنّ السنة الطقسيّة تبتدئ في الأحد الثامن قبل الميلاد. ويُدعى هذا الأحد الأوّل أحد «تقديس البيعة»، والأحد الثاني «تجديد البيعة» (Houdoth Ayto). وتكرّس أيّام الآحاد الستّة الأخرى قبل الميلاد لبشارة زكريّا، لوالدة الإله، وزيارة العذراء مريم لأليصابات، وولادة يوحنّا المعمدان، والظهور ليوسف (متّى ٢٢: ١٣-١٥)، وآخرها هو الأحد الواقع قبل ميلاد ربّنا والذي تُذكر فيه سلالة يسوع.

وأيّام الصيام السنويّة ستّة: صيام الميلاد وصيام نينوى، والصيام الأربعينيّ ويدوم سبعة أسابيع قبل الفصح، وصيام الرسل، وصيام انتقال العذراء، وصيام الصليب، بالإضافة إلى أيّام الأربعاء وأيّام الجمعة. ويسبق صيام نينوى الذي يدوم ثلاثة أيّام الصيام الكبير، مذكّرًا بالنبيّ يونان الذي تنبّأ بالعقاب الإلهيّ. اختصرت مدّة صوم الرسولين بطرس وبولس إلى ثلاثة أيّام قبل عيدهما في ٢٩ حزيران. ولا يؤكل خلال الصيام الطعام المصنوع من مصادر حيوانيّة.

الأعياد السيّديّة، الصوم الكبير والأسبوع العظيم

يُحتفل بميلاد مخلّصنا يسوع المسيح، في ٢٥ كانون الأوّل، منذ تبنّي التقويم الغريغوريّ الجديد، في مجمع الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة المنعقد في العام الـ١٩٥٤، في حمص.

وفي الأوّل من كانون الثاني، يُحتفل بختان المسيح. كما يُحتفل بعيد الظهور الإلهيّ (E'edo d'Denho) في السادس من كانون

الثاني، حيث يُصار إلى زيّاح تُبارك خلاله المياه. وفي الثاني من شباط، يقع عيد تقدمة يسوع إلى الهيكل حيث يحمل الكاهن أثناء الزيّاح، الصليب بين ذراعيه، تشبّهًا لحمل سمعان الشيخ ليسوع في الهيكل، كما يتمّ تبريك الشموع.

أمّا يوم الأربعاء في منتصف الصوم الكبير، فتتمّ قراءة من إنجيل متّى (٤: ١-١١) «التجربة في البرّيّة». وتكرّس معظم أيّام الآحاد في الصوم الكبير لبعض أعمال المسيح (لو ١٧: ١٩-١١) العجائبيّة، أي عرس قانا حيث تحوّل الماء إلى خمر، وشفاء الأبرص (لو ١٧: ١٩-١١)، وشفاء المُقْعَدة وشفاء ابنة المرأة الكنعانيّة، وشفاء الرجل المولود أعمى. ويُقرأ مثل السامريّ الشفوق في الأحد الخامس من الصوم الأربعينيّ.

وفي أحد الشعانين، ينطلق زيّاح أثناء القدّاس الإلهيّ، مع الشموع المضاءة، وأغصان الزيتون أو النخيل، ويرشق المؤمنون أوراقها باتجاه الإنجيل عندما يُقرأ مقطع دخول المسيح أورشليم.

وخلال الأسبوع العظيم، يُحتفل في يوم خميس العظيم (أو خميس الأسرار المقدّسة) بالقدّاس الإلهيّ صباحًا، وبعد الظهر، يغسل الأسقف (إن وجد) أو الكاهن أرجل اثني عشر شخصًا، كاهنًا أو شمّاسًا، أو إبيوذياكون، الذين يمثّلون تلامذة المسيح الاثني عشر. ويجب أن يكون مَن يمثّل بطرس كاهنًا أو شمّاسًا متزوّجًا. وعندما يغسل المتقدّم الأرجل يتلو الصلاة التالية أمام كلّ واحد من الاثني عشر: «فليغسل الربّ الإله فيك كلّ سلوك الإنسان العتيق، ويجدّدك بالروح والحقّ، ويجدّدنا نحن جميعًا معك». وكانت تقتضي العادة بأن يتمّ تقديس الميرون في هذا اليوم، إلاّ أنّ البطريرك يقوم الآن بذلك، عندما تصبح

الحاجة إلى الميرون ضروريّة. وفي يوم الجمعة العظيم يوم آلام المسيح، وعند انقضاء الساعة الثالثة، يتمّ زيّاح أوّل في الكنيسة يحمل خلاله المتقدّم الصليب على كتفه اليمنى، ليرمز إلى حمل ربّنا صليبه، من بلاط بيلاطس إلى الجلجلة، وعند عودته إلى الهيكل، يضعه على قاعدة فوقها شمعتان مضاءتان من كلّ جانب، ترمزان إلى اللصّين اللذين صُلبا مع المسيح. وعند قراءة الإنجيل، في الساعة السادسة عندما يرد في القراءة «إلاّ أنّ الآخر وبخّه» (لوقا ٤٠: ٢٣) تُطفأ فقط الشمعة الموضوعة إلى الجهة اليسرى من الصليب والتي ترمز إلى اللص الذي جدّف على المسيح. عند قراءة الإنجيل (لو ١٩: ٣٧- ٣١)، أثناء خدمة السجود للصليب، عندما يرد «أن الظلمة حلّت على الأرض بأسرها»، تُكسر الشمعتان. وعند انقضاء الساعة التاسعة، تُطفأ جميع الأنوار في الكنيسة، أثناء قراءة إنجيل (لوقا ٢٣: ٤٤). وفي آخر الخدمة يُنزل الصليب من على القاعدة، ويوضع على المنضدة. ثمّ تبدأ خدمة السجود للصليب، وعند نهايتها، يقوم زيّاح آخر، مع الصليب محمولاً، يطوف حول الكنيسة.

ثمّ تجري خدمة الدفن حيث يرمز الصليب إلى المسيح. فيمزج المتقدّم الخلّ بالمرّ في حوض صغير، ويبلّل الصليب في أطرافه الأربعة، ثمّ يغسله بماء الورد أو بماء نقيّة، ليرمز إلى قيام يوسف ونيقوذيمس بغسل جسد المسيح قبل دفنه. ويضمّخ الصليب بالبخور، ويُغطّى بالقطن النقيّ، ويُلفّ بقطعة قماش من الكتّان الناعم الأبيض، ويوضع في حفرة تحت المذبح، ولها باب صغير يُختم بالشمع، رمزًا إلى ما حصل في قبر المسيح. وتوضع أمامه شمعة مضاءة ومروحتان ليتورجيّتان، تشيران إلى الحارسين الضابطين القبر. وفي نهاية الصلوات يمرّ المؤمنون تحت

النعش المرفوع على أكف الشمّامسة، عند مخرج الكنيسة، ثمّ يشربون من مزيج مرّ ليتذكّروا آلام مخلّصنا وأوجاعه.

ويُخرج الصليب ليلة السبت العظيم من تحت المذبح ويُترك القبر مفتوحًا. ويغسل الصليب بماء الورد، ويزيّن بمنديل من الحرير الأحمر (أش ٦٣: ١)، وتكون الكنيسة في ظلام تامّ. ثمّ يأتي الإكليروس أمام الهيكل حاملين المصابيح المضاءة، لإعلان قيامة المسيح للمؤمنين ويصرخ المطران، أو الكاهن، بصوت عالٍ: «يا إخوتي وأخواتي، إنّي أتيكم بنبأ عظيم، لقد قام المسيح من القبر، داحرًا أعداءه». فيجيب الشعب: «نؤمن، ونعترف بأنه حقًّا قام». ثمّ يوضع الصليب على قاعدة أمام المذبح، مع شمعتين مضاءتين في كلّ جانب، ويبقى الصليب في هذا المكان إلى حلول عيد الصعود. وفي آخر الصلاة المخصّصة للعذراء وقبل القيام بصلوات المناولة، يطوف زيّاح آخر بالصليب والشموع المضاءة ويرتّل الجميع «المسيح قد قام». وفي نهاية القدّاس الإلهيّ يقبّل المؤمنون الصليب وكأنّهم يقبّلون المسيح القائم. أمّا تاريخ عيد الفصح فيتبع التقليد الشرقيّ المعروف باليوليانيّ.

ويُقام القدّاس الإلهيّ للموتى يوم الاثنين بعد الفصح، تزور بعده العائلات المقابر. ثمّ يُقام القدّاس الإلهيّ يوميًّا حتّى عيد الصعود. وفي عيد العنصرة، يركع الجميع، خلال القدّاس الإلهيّ، بعد قراءة إنجيل (يوحنا ١٤: ١-١٧)، لتهئية نفوسهم لحلول المعزّي. ويدور الشمّاس حول الكنيسة، ثلاث مرّات، وهو يرشّ المؤمنين بالماء المقدّس، بواسطة أوراق شجر الجوز، للدلالة على مواهب الروح القدس التي حلّت على التلاميذ في العلّية. ثمّ يردّد الكاهن ثلاث مرّات: «انهض بقوّة

الله». ويُحتفى في السادس من آب بعيد التجلّي، وفي ١٤ أيلول بعيد الصليب.

أعياد والدة الإله

هناك سبعة أعياد للعذراء: أوّلاً في ٢٥ آذار، عيد البشارة الذي يذكّر بالتجسّد وفداء البشريّة. ثمّ في ١٥ آب عيد انتقال العذراء (Chounoyo) عندما التفّ الرسل الاثنا عشر حول فراش رقادها. ويُحتفل بميلاد السيّدة العذراء في ٨ أيلول. وفي ٢٦ أيلول، يحلّ عيد تمجيد العذراء مريم، وفي ١٥ كانون الثاني يصادف عيد العذراء مريم المباركة الزرع. وفي ١٥ أيّار يُقام عيد العذراء مريم المباركة الحصاد. وفي ١٥ حزيران، يُحتفل بعيد الكنيسة الأولى التي بنيت في يثرب على اسم عذراء (وهي اليوم في المملكة العربيّة السعوديّة). أمّا عيد العذراء (Zounoro)، فيُحتفل به في حمص يوم انتقال السيّدة العذراء في ١٥ آب.

ويمكن العثور على المزيد من التفاصيل عن أعياد الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، باللغة الإنكليزيّة، في كتاب «المعذعذان» The Book of the Church Festivals according to the rite of the Syrian Orthodox Church of Antioch الصادر في العام الـ١٩٨٤، على يد المتروبوليت أثناسيوس صموئيل، والذي استعملته في ما وصفته من هذه الأعياد.

الأسرار المقدّسة

أمّا الأسرار المقدّسة (roze)، في التقليد السريانيّ الأرثوذكسيّ

فهي: العماد (Tekso da'modo) الذي يشبه طقسه التقاليد البيزنطيّة والمشرقيّة، بما يخصّ دخول الموعوظيّة، ورفضه الشيطان والاعتراف بالإيمان بالمسيح. وبعد تبريك الماء، يُغطّس الكاهن الطفل أو الشخص المتقدّم، في الماء، ثمّ يرسم إشارة الصليب بالميرون على الأجزاء الرئيسة من جسمه، ويمسح الجسم بأكمله، كما تتمّ مناولة المعمّد الجديد أثناء القدّاس الإلهيّ. ويوضع شريط من القماش يُدعى الإكليل (klilo) حول جبهة الطفل، عند نهاية المعموديّة، رمزًا إلى تاج الملوك الذي أصبح منهم بمعموديّته.

خلال الاحتفال بطقس الزواج (Tekso d'zuwogo). يوضع تاجان على رأسي العروس والعريس.

وتُعطى مسحة المرضى (Tekso d'qandilo) للمرضى.

أمّا كتاب صلوات الجنّاز فيُدعى (Tekso d'oufoyo d'inide). وعند صلاة جنازة المطارنة يكون هؤلاء جالسين على كراسيهم، قبل أن يوضعوا في القبر.

يُفرض الاعتراف (mawdyonutho) قبل المناولة، ويتمّ ركوعًا.

ويشابه طقس رسامة الكهنة (boco)، بدءًا من المرتّل البطريرك، (أي ٩ درجات) الطقوس الموجودة في تقاليد أرثوذكسيّة أخرى.

وكما قال لي الملفونو أيسى غولتن، من دير مار ميخائيل: «نتذوّق الصلوات التي وضعها آباؤنا، وبخاصّة التي وضعها القدّيس أفرام، كما يتذوّق الإنسان العسل، إذ إنّها تنبض من ينابيع المسيحيّة الكلّيّة النقاوة».

الفصل الخامس
الروحانيّة

مقدّمة

يقول س.ب. بروك، في كتاب «الروحانيّة في التقليد السريانيّ»، إنّ الروحانيّة السريانيّة القديمة، بخاصّة قبل القرن الخامس، عبرّت عن ذاتها بأنماط فكريّة سامية لم تكن قد تأثّرت بعد بالثقافة والفكر اليونانيّين، وذلك في «أودية سليمان» (أواخر القرن الثاني)، و«أعمال توما» (القرن الثالث)، وكتابات أفراهاط (القرن الرابع)، وكتاب «المراقي»، والقدّيس أفرام (القرن الرابع). أمّا المواضيع التي تتطرّقت إليها، بشكل خاصّ، فهي نزول المسيح إلى الجحيم، ورجوعه إلى الفردوس مجدّدًا، ومواضيع المسيح العريس الإلهيّ، والتدبير الخلاصيّ كشفاء للنفس، والعين الداخليّة، أو عين الإيمان النيرّة، وأيضًا نقاوة الإنسان بعيدًا عن الخطيئة التي تمكّنه من إدراك التناغم الذي أعاده المسيح إليه وإلى الكون. وترد مواضيع أخرى، أمثال المحبّة الإلهيّة، وإفراغ الذات (kenosis) والتواضع، والبتوليّة الداخليّة، والصلاة.

واتّبع القدّيسون والشهداء والرهبان والراهبات، أنماطًا كتابيّة وجدوها في حياة النبيّ أليشع، والنبيّ إلياس الغيور، والقدّيس يوحنّا المعمدان، والقدّيس بولس، الذين قرّروا «بذهن موحّد» اتّباع حياة زاهدة محبّة بالله. ونلاحظ في التقليد السريانيّ المتعلّق بالحياة الرهبانيّة والنسكيّة، تقشّفًا صارمًا يُعبرّ عنه، ليس فقط بواسطة الصلاة الدائمة، بل أيضًا ببعض العلامات الخارجيّة، أمثال العيش في أمكنة ساحقة

البعد، أو الامتناع عن وفرة الأكل والشرب، والاكتفاء بأكل بعض الأعشاب البرّيّة عند من سُمّي بالرهبان آكلي الأعشاب. وكان بعض النسّاك يعيش في الأشجار، وقد سُمّوا بالـdentrites وآخرون حملوا سلاسل معدنيّة، وآخرون عاشوا بصحبة الحيوانات المفترسة، كما عاش بعضهم في أعالي الأعمدة وهم الـ«العموديّون».

وكان للرهبان منذ البدء، تأثير كبير في المؤمنين الذين كانوا يقصدونهم من أجل الصلاة والتبريك. وكان الرهبان يؤدّون لهم الإرشاد الروحيّ. وتحلّى بعض الرهبان بموهبة الشفاء، فكانوا يشفونهم. وجمع بعضهم موهبة اللاهوت بموهبة شعريّة. ترجم س. ب. بروك، وس. هارفيه، في كتاب Holy Women of the Syrian Orient، سيرة عدد من النساء ذات الحياة الرائعة والمؤثّرة. ويذكران فيه ما قاله يوحنّا الأفسسيّ (القرن السادس) بشأن حياة مريم الورعة التي كانت راهبة في آميد، تعيش في الزهد، والصلاة الدائمة، والأصوام، ومساعدة المحتاجين. وقرّرت ذات يوم الحجّ إلى أورشليم. وبينما كانت في موقع الجلجلة، اختُطفت، وبقيت في هذه الحال ثلاثة أيّام كاملة. ثمّ عاشت هناك ثلاث سنوات، ممارسة الصلاة الدائمة، وباكية أحيانًا، ومعاشرة الفقراء. وكانت تمضي لياليها في الكنيسة. واعتبرها البعض مصابة بالخرف أو الجنون. وكانت تسبّب المعجزات، لمجرّد حضورها، وليس نتيجة لكلامها أو فعل إرادتها. وكانت تحفظ ذاتها من الكبرياء، وتحارب المجد الباطل. وهناك نساء سريانيّات عديدات مارسن النسك والصلاة والقداسة يمكننا الاستفادة من سيرتهنّ.

جعلت بعض تصرّفات هؤلاء النساك المتّسمة بالقداسة

الجنون في آن، أن دُعي بعضهم «القدّيسين المجانين» أو «المجانين في المسيح». ومنهم سمعان الأبله، الذي عاش في حمص، وروّعت أفعاله الكثيرين، لا سيّما ليونطيوس من نيبابوليس.

الكتّاب الروحيّون

وهاكم أسماء بعض الكتّاب الروحيّين الذين يجلّهم السريان الأرثوذكس. أهمّهم القدّيس أفرام الذي يُدعى «قيثارة الروح القدس». ويعني اسم «أفرام» مَن يُنتج ثمرًا. بقي شمّاسًا طيلة حياته. ويُعرف بخاصّة بأناشيله المتعلّقة بالحياة الرهبانيّة، والبتوليّة، وحياة التوبة وتأنيب الذات، والإيمان، بما في ذلك التعاليم المتعلّقة بالمسيح، والكهنوت، وجميع نواحي الحياة المسيحيّة. ويدعوه يعقوب السروجيّ «إكليل جميع السريان». ويمكن تلخيص أعمال أفرام بأمرين أساسيّين: السرّ الإلهيّ، والدعوة ليُصبح الإنسان إلهًا، أو التألّه.

ويتكلّم أفراهاط، في كتاب «البراهين»، على الحياة الروحيّة والمكرّسة. وكتب يوحنّا الآفاميّ، المعروف باسم يوحنّا المنعزل (القرن الخامس) أعمالاً في الصلاة الداخليّة استعملتها الجماعات النسكيّة. شدّد في لاهوته وروحانيّته على مفاهيم الرجاء والقيامة الآتية. وفسّر علاقة المعموديّة وسائر الأسرار بتغذية الحياة الروحيّة. وميّز درجتين في الصلاة، الصلاة الشفهيّة، والصلاة الصامتة. ومع أنّه كتب باللغة السريانيّة، فهو يمثّل بوضوح التأثير اليونانيّ على التقليد النسكيّ السريانيّ، لكنّه حافظ، طيلة حياته، على روحانيّة سريانيّة أصيلة.

ولم يؤلّف فيلوكسينوس، أسقف منبج، في شمال سورية، كتبًا

لاهوتيّة وحسب، بل أيضًا أعمالاً، أمثال «الخطب الثلاثة عشر في الحياة النسكيّة»، والخطاب في «حلول الروح القدس»، كما أنّه وضع أعمالاً أخرى مختلفة في الصلاة، أحيانًا في رسائله. وتحثّ مواعظه المؤمنين على حفظ الوصايا، والتمثّل بكمال المسيح، وتبشير الآخرين في كيف «يُصبح المرء تلميذًا للمسيح، وما هي القواعد والتصرّفات التي يجب اتّباعها للوصول إلى المحبّة الروحيّة».

وكذلك نجد نزعة صوفيّة في مواعظ يعقوب السروجيّ الشعريّة (الميامير)، وبخاصّة في الموعظة المتعلّقة بحجاب موسى. وتتكلّم رسائله على الحياة الداخليّة.

وتترك سِيَرُ بعض الكتّاب أثرًا روحيًّا حاسمًا، كحياة يوحنّا التلّيّ أو مار أحودمّه، وكلتاهما كُتبتا في القرن السادس.

كتب المفريان ابن العبريّ كتابين في الروحانيّة، في أواخر حياته، في العام الـ١٢٨٦، كما وضع مرشدًا لحياة العلمانيّين والرهبان المسيحيّين، في كتاب «المناقب»، حيث يُوصي بعدد من الممارسات الروحيّة والجسديّة للوصول إلى المبتغى. وكتب أيضًا مرشدًا روحيًّا للرهبان والنسّاك، يُدعى «كتاب اليمامة».

وفي القرن الخامس عشر، كتب البطريرك مسعود صلاح من طورعبدين، كتابًا في الصوفيّة والرهبنة، يُدعى «الشراع الروحيّ».

ويذكر البطريرك أفرام برصوما، في كتاب «تاريخ العلوم والأدب السريانيّين»، وجوهًا أخرى من الكتّاب، أمثال المفريان باسيليوس سمعان، ويوحنّا الأفطونيّ، ودانيال الصلاحيّ، وأثناسيوس أبو الغليب،

وأشعيا الناسك، ومار برصوما، وأشعيا الحلبيّ، ورابّولا، أسقف الرها.

القدّيسون

يعطي البطريرك أفرام برصوما، في كتابه المذكور أعلاه، بعض المراجع للحصول على المعلومات التالية المتعلّقة بالقدّيسين الذين يكرّمهم السريان الأرثوذكس. فنجد في «كتاب الحياة»، أو الذيبتيكا، أسماء الأنبياء، والرسل، والتلاميذ، والآباء، والقدّيسين، والشهداء، والنسّاك، والبطاركة، والأساقفة، وسائر أعضاء الإكليروس، والرهبان والراهبات، والعلمانيّين الأتقياء. ويحدّد التقويم الكنسيّ، الموضوع في العام الـ٤١١، مواعيد تذكار القدّيسين والشهداء. وتوجد تقاويم أخرى لاحقة، بما فيها تقويم دير قينشريه. عُدّلت هذه التقاويم كثيرًا حسب أمكنة استعمالها بشكل ملحوظ. ويسود اليوم تقويم منسوب إلى يعقوب الرهاويّ (القرن السابع) على جميع الآخرين، إلاّ أنّه لا يذكر القدّيسين المحلّيّين. زاد عليه، في القرن الحادي عشر، سعيد برصابونيّ أسماء بعض الصوفيّين والأساقفة. وزاد عليه أيضًا، في القرن الرابع عشر، راهب من حاح، صليبا برخيرون، أسماء بعض الأساقفة، والرهبان، والروحانيّين، والقدّيسين، وآباء من طورعبدين. ويُذكر القدّيسون المحلّيّون في تقاويم محلّيّة، كتقويم طورعبدين، وتقويم شمال العراق.

كما ترد مواعيد تعييد للقدّيسين السريان الأرثوذكس، باللغة الفرنسيّة، في Synaxaire arabe jacobite، الصادر عن ر. بسّيه، في الباترولوجيا الشرقيّة. وكذلك نشر ف. نو، في البترولوجيا عينها، أسماء الشهداء والقدّيسين الشرقيّين.

أمّا الذيبتيكا المتعلّقة بأنافورا القدّيس يعقوب، فتشمل الأسماء التالية: يعقوب أخو الربّ، أوّل أسقف على أورشليم، والرسل والشهداء، والقدّيسين إغناطيوس، وإقليمنذس، وذيونيسيوس وأثناسيوس، ويوليوس، وباسيليوس، وغريغوريوس، وذيوسكوروس، وتيموثاوس، وفيلوكسينوس، وأنثيموس، وبصورة خاصّة، القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، «هذا الوجه العظيم، والقاعدة غير المتزعزعة، الذي أعلن تجسّد كلمة الله، سيّدنا يسوع المسيح. الذي صار إنسانًا». ويذكر أيضًا البطريرك سويريوس في «إكليل» السريان الأرثوذكس، القدّيس أفرام، والقدّيس يعقوب البرادعيّ، والقدّيس إسحق، والقدّيس بلاي، والقدّيس برصوما، أبا النسّاك، والقدّيس سمعان العموديّ، والقدّيس أبحي المختار.

ويذكر يوحنّا الأفسسيّ، الذي كان راهبًا في دير القدّيس يوحنّا في آمد، في «تواريخ القدّيسين» عددًا كبيرًا من قدّيسي القرنين الخامس والسادس. وهناك قدّيسون عديدون آخرون يُكرّمهم السريان الأرثوذكس. ففي «المفتاح الذهبيّ للعبادة الإلهيّة»، الذي كتبه البطريرك أفرام، باللغة العربيّة، في العام الـ١٩٢٩، (له ترجمة إنكليزيّة)، يذكر، بين مَن يذكر، أسماء القدّيسين أو الأعياد التالية: باسيليوس، وغريغوريوس (في أوّل كانون الثاني)، وقطع رأس يوحنّا المعمدان (في ٧ كانون الثاني)، وإستفانوس أوّل الشهداء (في ٨ كانون الثاني)، وسمعان القديم (في ٢ شباط)، وشهداء سيبستيا الأربعين (في ٩ أذار)، وجاورجيوس (في ٢٣ نيسان)، والرسولين بطرس وبولس (في ٢٩ حزيران)، وتوما الرسول (في ٣ تمّوز)، وقيروس وأمّه يوليت (في ١٥ تمّوز)، وبهنام وشقيقته ساره والأربعين شهيدًا (في ١٠ كانون الأوّل)،

وذبح الأطفال الأبرياء (في ٢٧ كانون الأوّل).

وكذلك ينبّه البطريرك إلى أنّه «لا بدّ من نقل عيد الأربعين شهيدًا، إذا حلّ ضمن فترة الصوم الكبير، إلى أقرب سبت، بين ٩ و ١٤ آذار، على ألاّ يقع في منتصف الصوم أو في يوم سبت، أو الأربعاء، أو يوم أحد. ويذكر أيضًا أنّ مواعيد بعض الأعياد حسب المناطق، أمثال عيد شموني، «والدة المكّابيّين، وأولادها الشهداء السبعة»، الذي يُعيّد له في ١٥ تشرين الأوّل في الموصل، وفي ٣١ تمّوز و٨ أيّار في ماردين. وينبّه أيضًا إلى أنّ «عيد القدّيس برصوما، في الخميس بعد العنصرة، هو بالحقيقة عيد القدّيس برصوما، أسقف كفرتوتا، الذي سقط شهيدًا، مع أنّنا نعيّد اليوم للقدّيس برصوما، أبي النسّاك». ويذكر البطريرك أيضًا أسماء بعض القدّيسين المحلّيين، أمثال أحودمّه المفرعان الأوّل (في ٢ آب)، ومتّى الناسك (في ١٨ أيلول في كنيسة الموصل)، ومار دانيال (في ٢٠ تشرين الأوّل في برتلاّ ومنطقة الموصل)، وميخائيل الناسك (في أوّل أيّار)، ومار أوسيو، ومار أشعيا الحلبيّين (في ١٥ تشرين الثاني في ماردين)، ومار قومه في كنيسة دياربكر، ومار مارون في خربوط، ومار ملكه (في أوّل أيلول)، وراهب من تلاميذ أوجين، في طورعبدين، ومار فيلوكسينوس (في ١٨ آب في مديات)، ومار إليان، ومار موسى الحبشيّ (في ١٨ أيلول في سورية وأورشليم). وتعيّد كنيسة الموصل، يوم الخميس الذي يلي صوم نينوى، لعيد مار إغناطيوس نورونو، لكنّ هذا العيد هو حديث العهد.

ويشترك الخلقيدونيّون وغير الخلقيدونيّين في أعياد القدّيسين الذين عاشوا قبل مجمع خلقيدونية، أمثال النبيّ إلياس (في ٢٠ تمّوز)،

ويوحنّا المعمدان (في ٧ كانون الثاني)، وأدّي، رسول الرها، وأبجاية (أوّل تشرين الأوّل)، والأسقف يعقوب من نصّيبين (في ١١ أيار)، وعددًا من النسّاك، كأنطونيوس الكبير المصريّ (في ١٧ كانون الثاني). وتعيّد الكنيستان معًا للشهداء إغناطيوس الأنطاكيّ، وبربارة ويوليانا اللتين استشهدتا في أوائل القرن الرابع (في ٤ كانون الأوّل)، وشهداء بلاد فارس قبل العام الـ٤٥١، أمثال يعقوب المدعو «الأنترسيّ»، لأنّ جميع أعضائه قُطعت ومات شهيدًا، أيّام شهبور الأوّل (في ٢٧ تشرين الثاني)، وشيرين وخريستينا (في ١٣ أذار)، وفيفرونيّا (في ٢٤ حزيران)، وسرجيوس وباخوس (في ٧ تشرين الأوّل). وكان مقام القدّيس سرجيوس في الرصافة (سرجيوبوليس)، في شمال سورية، مركزًا بارزًا يحجّ إليه العرب البدو المسيحيّون، إذ كانت تعتبر قبيلة تغلب، التي عاشت في منطقة نصّيبين، وسنجار، وبالقرب من تكريت، القدّيس سرجيوس شفيعًا لها.

وأمّا عيدا الملك أبغار والقدّيس أفرام، فيتغيّران بحسب موعد الصوم الكبير. فيُعيّد للقدّيس أبغار، يوم رفع الصليب، في الأربعاء الواقع في منتصف الصوم. ويُعيّد للقدّيس أفرام في أول سبت من الصوم الكبير، كما يُعيّد في اليوم عينه للقدّيس الشهيد ثيوذوروس. ويعتبر السريان الأرثوذكس سمعان العموديّ من بين قدّيسيهم، ويذكره يعقوب السروجيّ في أناشيده، مع أنّه مات في العام الـ٤٦٩، ويعيّدون له في ٢ أيلول.

بين قدّيسي السريان الأرثوذكس عدد من البطاركة والأساقفة والرهبان، أمثال أوجين (في ٢٠ نيسان)، وراهب من أصل مصريّ

أطلق الرهبنة في منطقة نينوى، في القرن الرابع، وآهو، الذي أسّس ديرًا في طورعبدين (في ٥ أيّار)، ويعقوب البرادعيّ، الذي نظّم الكنيسة السريانيّة في القرن السادس (في ٣١ تمّوز)، وأحودمّه، أوّل المفارنة (١٨ أيلول)، وماروثا (في ١٠ اذار)، وجبرائيل، رئيس دير طورعبدين وأسقف، في القرن السابع، وسمعان الزيتونيّ، من دير مار جبرائيل، في القرن الثامن (أوّل حزيران)، ويعقوب السروجيّ (في ٢٩ تشرين الثاني)، وساره وأخيها الأسقف زينا اللذين ماتا شهيدين (في ٢٢ تشرين الثاني).

الشهداء

تاريخ السريان الأرثوذكس مليء بالشهداء. عُذّب مسيحيّون وقُتلوا في العهد الرومانيّ، أيّام نيرون (٥٤-٦٨)، وتراجان (٩٨-١١١)، وأدريانوس (١١٧-١٣٨)، وبصورة خاصّة أيّام ذاسيوس (٢٥٠-٢٥١)، وذيوكليسيانوس (٣٠٣-٣٠٥)، وذلك في الرها والمناطق المجاورة. واضُطهد المسيحيّون أيضًا على يد الأمبراطوريّة الفارسيّة الساسانيّة، التي كانت تدين بالزوروستريّة. وكان الاضطهاد بخاصّة في عهد شهبور الثاني (٣٣٩-٣٧٩)، ويزدغارد الأوّل (٣٩٩-٤٢٠)، وبهران الخامس (٤٢١-٤٣٨)، ويزدغارد الثاني (٤٣٨-٤٥٧)، واستمرّ إلى القرن السابع، وفي بعض المناطق، إلى بعد هذا التاريخ.

قُتل العديد من المسيحيّين في منطقة أربيلا (إربيل)، وعديبين، والخليج الفارسيّ، وجنوب شبه الجزيرة العربيّة، في نجران (الآن في العربيّة السعوديّة)، في منتصف القرن الخامس والقرن السادس، كما هو مدوّن في «أعمال الشهداء».

وتُعرف أسماء بعض الشهداء أكثر من غيرهم. ومن المعروفين القدّيس بهنام الذي استشهد في المكان الذي شُيّد فيه دير مار بهنام جنوب الموصل. ولكن يقضي الواجب عدم نسيان باقي الشهداء الكثيري العدد الذين ماتوا لمجرّد كونهم مسيحيّين. ففي عهد الأمبراطور ذيوكليسيانوس، استشهدت راهبة اسمها فيفرونيّا عاشت بالقرب من نينوى. وكتبت عنها رئيسة ديرها: «دوّنتُ سيرتها لأمجّد هذه المرأة العظيمة وأمدحها، ومن أجل خلاص وتشجيع من يسمع السيرة، آملة أن يوقظ نضالها من أجل الإيمان أذهانهم، فنؤهّل أيضًا لملكوت السموات، بيسوع المسيح، ربّنا، الذي له القدرة والمجد، إلى أبد الآبدين، آمين».

بقي السريان الأرثوذكس أوفياء للمسيح في الأوضاع القاسية التي عانوها، وما يزالون. ويذكر نعمان عيدين، في كتابه «المجزرة»، الذي صدر عن دير مار أفرام، في هولندا، في العام الـ١٩٩٧، أسماء بعض الشهداء الذين سقطوا في القرن العشرين. ويُعتبر شهيدين أيضًا الكاهنان اللذان قُتلا مؤخّرًا بطريقة وحشيّة، في العراق، من قبل مسلمين أصوليّين، وهما الأبّ بولس إسكندر، في الموصل في العام الـ٢٠٠٦، والأب يوسف عادل عبّودي، في بغداد، في العام الـ٢٠٠٨.

ذخائر القدّيسين والحجّ

حُفظت غالبًا ذخائر القدّيسين والشهداء في الأمكنة التي استشهدوا فيها. ونُقل بعضها إلى مقرّ البطريركيّة، والأديرة الرئيسة، وبعض الكنائس. ويوصي رابّولا، في وصيّته الثانية عشرة، أن تحفظ بقايا الشهداء في أمكنة خاصّة تُدعى الـ(martyria) وأن تُكرّم فيها.

وكانت توجد قديمًا، في مدينة الرها، ذخائر القدّيس أدّي، والشهيدين الطبيبين قزما ودميانوس، والقدّيس أفرام، وتوما الرسول. وكانت تُكرّم أيضًا هناك رسالة اعتبرها التقليد مُرسَلة من المسيح إلى الملك أغبار، مع رسمه على المنديليون. أمّا الآن، فما عادت هناك كنيسة للسريان الأرثوذكس في الرها (وهي مدينة أورفا، في جنوب شرق تركيا). دُفن القدّيسان سرجيوس وبلخوس في سرجيبوليس (الآن الرصافة، في سورية)، ويُقال إنّ قسمًا من رفاتهما نُقل إلى القسطنطينيّة، بين العام الـ٥١٤ والعام الـ٥١٨. أمّا القدّيس يعقوب السروجيّ، فقد دُفن في كنيسة السيّدة، في دياربكر. ودُفن القدّيس أفرام، بموجب مشيئته، في مقبرة الغرباء، في الرها. وتوجد في برتلا، بالقرب من الموصل، في كنيسة القدّيسة شموني، ذخائر مار أحودمّه ويوحنّا البرنغاريّ. ويُقال إنّ بعض الشهود رأوا، في كنيسة مار أحودمّه القديمة، أعمدة من نار، وإذ نُبشت الأرض مكان ظهورها، وُجدت مقابر ثلاثة أساقفة، نُقل رفاتهم إلى كنيسة القدّيسة شموني.

وكان تكريم الذخائر شائعًا، وكان يأتي الحجّاج بوفرة لزيارتها والحصول على الزيت المقدّس. أمّا الآن، فانهدمت معظم هذه الأمكنة التاريخيّة، ولا يبقى منها سوى القليل، أمثال قاعدة عمود القدّيس سمعان العموديّ، أو تلّ عاده، أو مار زكّا في الرقّة (Callinicum) في سورية، ودير مار أوجين في تركيا ودير مار دانيال في العراق. أمّا الأماكن التي يقصدها الحجّاج، والتي ما تزال تحتوي على ذخائر، فهي دير القدّيس مرقس في القدس، ودير الزعفران، ودير مار جبرائيل في طورعبدين، ودير مار متّى في العراق. وما تزال تحفظ بعض الذخائر في كنائس القرى، مثل كنيسة مار دودو في باسبرين، بالقرب من دير

مار جبرائيل. وتُحفظ ذخائر القدّيس توما في الموصل وفي الهند. وتُكرَّم ذخائر القدّيس يعقوب من نصّيبين في الكنيسة التي تحمل اسمه، في نصّيبين (الآن نوصيبيم في تركيا). كما يُكرَّم زنّار العذراء، الذي وُجد في العام الـ١٩٥٣، في كاتدرائيّة السريان الأرثوذكس، في حمص.

وتحصل معجزات، مباشرة أو غير مباشرة، مع الحجّاج الذين يقومون بتكريم رفات القدّيسين والشهداء، وذخائرهم. صرّح القدّيس أفرام أنّ ذخائر القدّيس يعقوب حفظت مدينة نصّيبين سالمة من الغزوات الفارسيّة.

وقد يلجأ المؤمنون إلى بعضِ القدّيسين لتحقيق أمور معيّنة. فيشفي مار متّى ومار جبرائيل، مثلاً، الأمراض كافّة، وبخاصّة العقر. ويشفي مار دودو في أسفس، ومار زكّا في كالينيكوم، من الخلل العقليّ. ويزور المسيحيّون دير مار ملكه، في طورعبدين، للشفاء من الجنون والصرع. ويقصد هذه الأمكنة أيضًا المسلمون، طالبين الشفاء.

تجترح قوّة الصلاة العجائب، حتّى في أيّامنا هذه. ففي العام الـ١٩٦٧، شوهد مثلاً الزيت يتساقط من مصباح في كنيسة مار دومط، في زاز، في طورعبدين. وفي العام الـ١٩٦٦، رأى أحد الكهنة نورًا يسطع من خراب كنيسة مار يعقوب، في طورعبدين، وبعد الكشف، وُجدت بعض الذخائر في الكنيسة، مخبّأة في أحد جدرانها. وفي العام الـ١٩٦٦، سال الزيت من أيقونة المسيح، في كاتدرائيّة حلب. وفي المالكيّة، شمال شرق سورية، يسيل الزيت أيضًا على أحد جدران كنيسة السيّدة، منذ العام الـ١٩٤٤، كما ظهرت العذراء في هذا المكان مرارًا. ويقصد الكنيسة العديد من الحجّاج، وبخاصّة النساء العاقرات. ويُعتبر

ماء البئر المحفور في كنيسة مار أحودمّه عجائبيًّا. ويُقال إنّ القدّيسة شموني وأولادها السبعة، وهم من القدّيسين الأكثر تكريمًا في المنطقة، يظهرون سنويًّا على جدران الكنيسة التي تحمل أسماءهم، في قراقوش، يوم عيدهم، في ١٥ تشرين الأوّل.

ويُزار كثيرًا في أومالور، في الهند، ضريح البطريرك إلياس الثالث (١٩١٧-١٩٣٢)، حيث تُقترف المعجزات والأشفية. وكان البطريرك أوّلاً راهبًا في دير الزعفران، وكان أوّل مَن أهتمّ باليتامى والمشرّدين، بُعَيد مجازر العام الـ١٨٩٥. وكان من همومه الرئيسة إعادة الوئام إلى كنيسة السريان الأرثوذكس في الهند. فذهب إليها في العام الـ١٩٣٢، ومات هناك، ودُفن. ويُحتفل بعيده في ١٣ شباط، إذ أعلنت قداسته في العام الـ١٩٨٢. ويُروى أيضًا أنّ كثيرين حصلوا على الشفاء بصلوات البطريرك أفرام برصوما، الذي يوجد قبره في كاتدرائيّة حمص (توفّي في العام الـ١٩٥٧). وحصل، فيما كان البطريرك يعقوب الثالث (المتوفّى في العام الـ١٩٨٠) يكرّس الميرون، في دير مار جبرائيل، في العام الـ١٩٦٤، أن فاض الميرون في اليوم التالي، وشفى المؤمنين.

صلاة القلب

تكمن صلاة القلب أو صلاة يسوع، في التقليد الأرثوذكسيّ، في تلاوة اسم يسوع المتكرّرة. ويبدو أنّ لا وجود لها في التراث السريانيّ الأرثوذكسيّ، علمًا أنّه توجد فيه بعض الصلوت القصيرة المتكرّرة، ولكنّها لا تتمحّور دومًا حول اسم يسوع. فينصح، مثلاً، يوحنّا المعتزل، الذي عاش في منطقة حماه، بترداد عبارة «أبّا»، و«يا ربّي، أعطني الحكمة والقدرة». ويؤكّد أفراهاط أنّ القلب هو المكان حيث تستقرّ الصلاة.

فالقلب، في التقليد السريانيّ، كما في الكتاب المقدّس، هو مركز الإنسان الروحيّ. وكما يقول أفراهاط، تقتضي «الصلاة النقيّة» «قلبًا نقيًّا». ويردّد القدّيس أفرام أنّ القلب «النورانيّ» يتمكّن من رؤية الأشياء «بنظر نورانيّ». ويستعمل يعقوب من أفاميا العبارات ذاتها. وينصح القدّيس أفرام بالبكاء، أثناء الصلاة، لكي يتنقّى الجسد من كلّ ذنب.

الخاتمة

ذات مرّة قال لي جورج بطرس غرزاني: «يعلّم القدّيس أفرام أنّ من واجب كلّ إنسان أن يعيش حياة روحيّة، وليس فقط الرهبان. لا تمايز بين الروحانيّة والحياة. وتبينّ لنا صلاة نتلوها مساء كلّ خميس، وهي دعاء (bo'outho) منسوب إلى القدّيس أفرام، ومأخوذ من كتاب الشيشيمو، كيف يجب أن نعيش في الكنيسة، وكيف يجب أن نصلّي. علينا أن نفكّر بالله، وليس بأحد سواه، عندما نصلّي. وكان آباؤنا الكبار ما يزالون مجرّد تلامذة في مدرسة الله، وكانوا يعيشون بقوّة الروح القدس. ويذكر ابن العبريّ أنّه توجد درجات لا حدّ لها في الطريق المؤدّي إلى كمال المسيح. وخصّص فيلوكسينوس، أسقف منبج، الرهبان بكتاب يشرح فيه كيفيّة الوصول إلى الكمال، بواسطة الصلاة الكثيرة. علينا أن نغتني بالروحانيّة والإيمان. النعمة هبة مجّانيّة من الله. علينا أن نتواضع، محترمين، ومحبّين بعضنا البعض. الروحانيّة السريانيّة قريبة من الإنجيل، ومن أقوال المسيح. علينا أن نقبل ما يريد المسيح أن يقوله لنا، وما يعلّمنا. إذا اتّبعنا وصاياه، فلا يعوزنا شيء. الحياة المسيحيّة بسيطة وسهلة، مع أنّ الكثيرين لا يفهمونها. غير

أنّ الجميع يمكنه تحقيق ما يعلّمه المسيح. ولكن، علينا ألاّ نعلّم فقط وصاياه، بل نطبّقها في حياتنا اليوميّة. هدف الصلاة النهائيّ أن تعلّمنا كيف يجب أن نعيش ونتصرّف، وليس فقط كيف نصلّي في الكنيسة. كما أنّ الصوم لا يقتصر على الامتناع عن الطعام، بل يذكّرنا بأوان التوبة. الحياة المسيحيّة أمر سهل المنال، لكن يصعب الكلام عليها».

وكذلك قال لي الأسقف متّى الحسكيّ: «الروحانيّة السريانيّة كثيرة الغنى، وهي ملهمة من الكتاب المقدّس والآباء. ونعيشها عبر الليتورجيا، والصلوات اليوميّة. فيها نستقي إيمان كنيستنا. هي هويّتنا، والإرث الوحيد الذي نفتخر به. ولكن ليس من السهل الإبقاء عليها حيّة. هناك أمور عديدة تُبعدنا عن الكنيسة والإيمان. علينا بذل العمل الجدّيّ لمساعدة رعايانا لتتمحور حول إرثنا الروحيّ، لكي تحافظ على وجودها، ضمن جسد المسيح الروحيّ».

الفصل السادس

الحياة الرهبانيّة

قبل الانشقاق الخلقيدونيّ (٤٥١) نُظّمت الحياة النسكيّة ومن ثمّ الحياة الرهبانيّة، في سورية في التلال والجبال الواقعة حول أنطاكية، وفي أفاميا وقورش وطورعبدين، شمال العراق الحاليّ. كانت الحياة الرهبانيّة مفعمة بالحيويّة، في تلك المناطق، من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر، كما تثبت الشواهد المكتوبة. وساهم الرهبان والراهبات في تقوية الثقافة الفكريّة السريانيّة بعملهم، من طريق نسخ الكتب، وإنتاجها، وترجمتها، وإيجاد مكتبات، ومراكز تعليميّة كبيرة، والقيام بالتعليم في المدارس التابعة للأديرة. وكذلك قاموا بضيافة الفقراء والمرضى والعناية بهم. وكانوا أيضًا مبشّرين، وآباء روحيّين كما سقط منهم شهداء أيّام الاضطهاد.

كتب أفراهاط في القرن الرابع على النسك في «براهينه»، وأشار إلى أبناء وبنات العهد (bnai bnat qyama)، واصفًا إيّاهم بأنّهم رجال ونساء علمانيّون، يعيشون حياة القداسة في البتوليّة. ويشهد على الواقع عينه القدّيس أفرام. وبحلول القرن الرابع، كوّن أبناء وبنات العهد جماعة ملتزمة بالحياة النسكيّة، اعترفت بها الكنيسة، إلاّ أنّهم لم يُدعوا رهبانًا أو راهبات. بعضهم كان يعيش في بيته، وآخرون في مجموعات صغيرة لم تكن بمعزل عن العلمانيّين الآخرين. ووفقًا للأستاذ س.ب بروك، عاش العذارى والرجال والنساء والمكرّسون (qaddishé) نمطًا من الحياة النسكيّة يمكن تحديدها «بما قبل الرهبنة»

في سورية وشمال بلاد ما بين النهرين.

أمّا الأسماء السريانيّة لمواهب الراهب المختلفة (dayroyo) فهي: الناسك (Ihidoyo) والعموديّ (estounoyo)، والحافي القدمين (chmitoyo)، وقاطن الجبل (touroyo)، وقاطن الصحراء (madbroyo)، والحبيس (hbishoyo)، والنائح (abilo)، أي الذي ينوح من أجل خطاياه الشخصيّة وخطايا العالم.

وكان رئيس الدير (rishdayro) هو مَن يسهر على حياة الرهبان. أمّا المشرف على الملل أو «ربّ البيت» (rab bayto)، فكان يدير حياة الدير الاقتصاديّة.

عاش بعض النسّاك حياة منعزلة. وتعني كلمة (Ihidoyo) التي تشير إلى هؤلاء الوحيد أو المعتزل، وهي موازية لعبارة monachos اليونانيّة. ويصف القدّيس أفرام، في نشيده العشرين عن الإيمان، جهاد الزاهد للمحافظة على وحدة ذهنه.

ويخبرنا أفراهاط وأفرام كيف بدأت الأنماط الأولى المنظَّمة للحياة النسكيّة، في العالم الناطق باللغة السريانيّة. مالت هذه الرهبنة على الدوام إلى حياة شاقّة في العزلة، تمضي وقتها كلّه في الصلاة والصيام الدائمين، وغالبًا ما تكون في أماكن تصعب الحياة فيها. عاش يوحنّا الذهبيّ الفم (٣٧٥-٣٨١)، وأفراهاط الفارسيّ (٣٦٠-٤٠٧) ناسكين على جبل سيلبيوس، جنوب أنطاكية. كما عاش نسّاك آخرون على جبل سكوبيلوس، شمال أنطاكية. يذكر سوزومينس (٤٣٩-٤٥٠) وجود نسّاك سريان، في كتابه: التاريخ الكنسيّ وكذلك يفعل ثيوذوريطس

القورشيّ. وبقي قائمًا عدد من الأبراج حيث كان يعيش المنعزلون، والكهوف التي سكنها النسّاك، والأعمدة التي عمّها العموديّون. وكان العموديّون (من الكلمة اليونانيّة ستيلوس التي تعني العمود) نسّاكًا عاشوا على أعلى الأعمدة. وكان هذا النمط من حياة الزهد شائعًا في سورية بشكل خاصّ، وفي شمال بلاد ما بين النهرين، وآسيا الدنيا (mineure). وكان سمعان العموديّ (٣٨٦-٤٥٩) من أشهر العموديّين. أعطى هذا «الرجل السماويّ والملاك الأرضيّ» دفعًا للرهبنة. وكان يأتي إليه مسترشدين، كبار القوم. كما هدى وشفى العديد من الحجّاج، ليس فقط من القبائل العربيّة المحيطة، بل ممّن جاء من بعيد لرؤيته، من أرمينيا، وبلاد فارس، ومصر، وإيطاليا وبلاد الغال (فرنسا اليوم). وكتب معاصره، ثيوذوريطس، أسقف قورش، سيرته، في كتاب «التاريخ الدينيّ». وبعد موته أمر الأمبراطور البيزنطيّ زينون (المتوفّى في العام الـ٤٩١) ببناء كنيسة باسيليكا، قرب العمود حيث عاش سمعان. وما زالت أطلالها مرئيّة، شمال حلب، في قلعة سمعان.

كما تشير الكتب إلى عموديّين آخرين، أمثال القدّيس دانيال السميساطيّ (المتوفّى في العام الـ٥٠٢)، والقدّيس سمعان الرهاويّ الصغير (المتوفّى في العام الـ٥٩٢) والقدّيس يوحنّا الأتاربيّ، قرب حلب (ما بين القرنين السابع والثامن)، وتوما قرب تلا (نحو العام الـ٦٧١) ويوحنّا التلّيّ. وأُنزل زكريّا قصرًا عن عموده ليرسم أسقفًا على الرها (نحو العام الـ٧٦٣). تنبأ مارو العموديّ الذي عاش قرب آمد، بغزو قبائل الهون. كما اشتهر، في طورعبدين، العموديّ مار هابيل، في القرن الخامس. وعندما اعتكف ثيوذوطوس، أسقف آمد في نهاية القرن السابع، في أقليم دارا، أقام لنفسه عمودًا. وما زلنا نرى

عمود ناسك في دير مار لعازر، قرب حبسناس، في طورعبدين.

عند اجتماع عدد من النسّاك وقرارهم العيش المشترك، نشأت الأديرة، في القرن الرابع، وتمحورت حياتها حول الصلاة والعمل تحت إشراف أب روحيّ. وقبل أن يصبح أسقفًا على نصّيبين، عاش مار يعقوب (المتوفّى في العام الـ٣٣٨) متوحّدًا في الجبال، وكان معه جوليان سابا (المتوفّى في العام الـ٣٦٧)، الذي عاش في كهف، في صحراء أوسروين، وإبراهيم القيدونيّ، وكان الثلاثة من كبار وجوه التقليد النسكيّ السريانيّ الأوّل. وكان للمؤسّسات الرهبانيّة، في أقليم أوسروين، نحو العام الـ٣٢٠، أثر في الحياة الرهبانيّة السريانيّة في إقليم أنطاكية، وبخاصّة في جيندارس (نحو العام الـ٣٣٠). وفي تلعدا (نحو العام الـ٣٥٠)، وفي جبل الأمانوس (٣٨٠)، وفي المنطقة الواقعة شرق أنطاكية، في مطلع القرن الخامس.

وأسّس جوليان سابا بين العامين ٣١٧ و ٣٢٥ ديرًا في جلاّب، على بعد ثلاثة وعشرين كيلومترًا شرق الرها، وهو الدير الذي عاصر دير بوبليوس، قرب زوقما (نحو العام الـ٣٥٠)، التي تدعى اليوم بلقيس، على الضفّة اليمنى من الفرات، في منطقة الفرات (Euphratesia). وفي الفترة الممتدّة من العام الـ٣٣٠ إلى العام الـ٣٣٧ تقريبًا، أنشأ استيريوس، وهو راهب من جلاّب، دير جنداروس، على بعد سبعة وأربعين كيلومترًا إلى الشمال الشرقيّ من أنطاكية، وكان أقدم دير في شمال سورية، في الربع الأوّل من القرن الرابع (نحو العام الـ٣٣٠). كما قام رهبان من جلاب (نحو العام الـ٣٥٠) بتنظيم أديرة أخرى في سهل تلعدا. وما زال من الممكن رؤية أطلال دير تلعدا، الذي أسّسه

أمانيوس. بقيت هذه المنطقة من مقاطعة سورية الأولى الرومانيّة، التي تشمل تلعدا، ومار باسّوس، وقنسرين، مركزًا للرهبنة السريانيّة، بعد انشقاق خلقيدونية، إلى القرن التاسع. وفي العام الـ٤٤٤، بدأ تلامذة مرقيانوس، وهو ناسك في صحراء قنسرين (Chalkis) بإقامة مؤسّسات رهبانيّة في منطقة (Nikertai)، على بعد خمسة وأربعين كيلومترًا إلى الشمال من أفاميا (في الستّينات من القرن الثالث)، وكانت أفاميا عاصمة منطقة سورية الثانية الرومانيّة، وبقيت هذه المنطقة خلقيدونيّة بعد العام الـ٤٥١.

يعطي أ. فوبوس لائحة بأديرة أخرى بارزة، في بلاد ما بين النهرين، وفي طورعبدين، وفي منطقة آمد وإقليم أوسروين، حيث قام العديد من الأديرة، في الرها وحولها، وفي الجنوب دير مار زكّا الشهير، قرب الرقّة (Callinicus)، ودير القدّيس سرجيوس وباخوس في الرصافة. وكان يوجد في منطقة الفرات، (Euphratesia)، إلى الشمال من سميساطا، وقرب ملطية، دير برصوم، الذي أضحى لاحقًا، وفي مناسبات عديدة، مقرًّا بطريركيًّا للسريان الأرثوذكس. وفي فينيقيا الثانية، قرب حمص، نشأ أيضًا العديد من الأديرة. وفي القرن السادس، قامت أديرة سريانيّة أرثوذكسيّة في مقاطعة العربيّة بالقرب من دمشق.

صار الآن مقبولاً أن يُقال إنّ الحركات الرهبانيّة في مصر وسورية ظهرت بطريقة متوازية، وكان لكلّ منهما، تأثير مختلف على بدء الحياة النسكيّة المسيحيّة. ولم يؤثّر التقليد الرهبانيّ الجماعيّ المصريّ، على سورية وبلاد ما بين النهرين إلاّ قبيل نهاية القرن الرابع. واندمج التقليدان خلال القرن الخامس.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ المسيحيّين في منطقة أنطاكية وسورية كانوا ينخرطون في الحياة الرهبانيّة ذاتها، رغم اختلاف أصلهم العرقيّ. واستمرّ هذا الوضع إلى الانشقاق الذي حصل بعيد المجمع الخلقيدونيّ في العام الـ٤٧١ وإليكم بعض المعلومات عن هذه الحياة قبل مجمع خلقيدونيّة وبعده.

لم يؤسّس العملاق الروحيّ القدّيس أفرام (المتوفّى في العام الـ٣٧٣)، أيّ دير، لكنّه كان مرشدًا روحيًّا لكثير من الرهبان عبر حياته وكتاباته. وخدم طوال حياته كشمّاس الرعيّة في نصّيبين أوّلًا، ثمّ في الرها. ويؤكّد تقليد حديث العهد أنّه تنسّك في الجبال القريبة من الرها، مع بقائه على صله برعيّته. ولم تلهم كتاباته الرهبانيّة الجماعات السريانيّة وحسب، بل الرهبانيّة جمعاء في أيّامه، وفي جبل آثوس وروسيا لاحقًا. أمّا خلفه، إسحق الأنطاكيّ (القرن الخامس)، فأصرّ على حياة الانعزال والوحدة.

أمّا ثيوذوريطس القورشيّ (٣٩٣-٤٦٦)، فكان راهبًا في نيكرتايّ، قبل أن يُصبح أسقف قورش في العام الـ٤٢٣. وكتابه: التاريخ الدينيّ، أو تاريخ رهبان سورية، هو المصدر الرئيس عن الرهبانيّة في شمال سورية، في القرنين الرابع والخامس. وكتب عن حياة النسّاك وحياة الجماعات الرهبانيّة المشتركة، في الأقاليم الواقعة حول الرها، وقورش، وأفاميا. ويذكر مدى تأثير «الشيوخ» من الرهبان في توجيه حياة الرهبان العاديّين الروحيّة. ويشكّل كتابه صلة الوصل بين حقبة التاريخ الرهبانيّ الأولى وأيّام سمعان العموديّ (السريانيّ أو اليونانيّ). وكتب في تاريخ الرهبان: «إنّي على يقين بأنّ كلامي عن هؤلاء الرجال

العظام سيخلّد ذكراهم، ويجعلهم يتذكّرونني أمام ربّ العالمين».

وضع بوبليوس، في دير زوقما، في القرن الرابع، قواعد مفصّلة وصارمة لحياة الدير، والمتعلّقة بخاصّة بضرورة عيش حياة فقر وصيام. ويقول إنّ حياة الرهبان الجماعيّة تمكّنهم من مساعدة بعضهم البعض للوصول إلى الكمال، وذلك من طريق التأديب الأخويّ، والحثّ على المحبّة والطاعة والتواضع. ويهتمّ الرهبان بالغرباء والفقراء من الزوّار، مستقبلين إيّاهم في بيت مخصّص لهم.

عاش أغابيوس وسمعان، في القرن الخامس، وبعدهما أوسابيوس، وهم من تلامذة مرقيانوس، في دير في نيكرتايّ قرب أفاميا. وفي زمن مرقيانوس، أُعطي مزيد من الحرّيّة لمجموعات النسّاك العائشين حياة مشتركة، بإدارة أب روحيّ، على أن يتبعوا القوانين بما يختصّ بتلاوة الأناشيد والصلاة ومطالعة الكتاب المقدّس.

عشرون عامًا بعد أن كتب إلياس سيرة يوحنّا التلّيّ (المتوفّى في العام الـ٥٨٩)، يعطي يوحنّا الأفسسيّ (المتوفّى في العام الـ٥٨٩)، الذي عاش في إقليم آمد، قرب طورعبدين، في الستّينات من القرن الخامس، موجزًا عن حياة الرهبان، في كتابه: الرهبان الشرقيّون. ويورد فيه ٥٨ قصّة عن حياة نسّاك، بخاصّة من بلاد ما بين النهرين وسورية، التقاهم خلال حياته، وعن آخرين عاشوا في مصر والقسطنطينيّة، كما أنّه يذكر أيضًا أديرة للراهبات.

أمّا حياة ثيوذوريطس الآمديّ، في القرن السابع، فهي مصدر كبير لتاريخ الرهبانيّة، إذ زار أورشليم، وسيناء ومصر.

وفي كتاب عن طريق الكمال، وضع الأسقف فيلكسينوس المنبجيّ، ثلاثة عشر بحثًا عن الحياة الرهبانيّة. وكذلك يتحدّث يوحنّا ابن العبريّ عن الحياة الرهبانيّة في كتاب الحمامة.

كتب أعلام السريان الأرثوذكس في كلّ الأزمنة عن تقليدهم وتاريخهم الرهبانيّين بما في ذلك في القرن العشرين، أمثال البطريرك أفرام في تاريخ طورعبدين، وتاريخ دير الزعفران، والبطريرك يعقوب الثالث في كتاباته عن دير مار متّى، والمطران دولبانيّ في كتاباته عن ديري مار جبرائيل ومار يعقوب الصلحيّ، والمطران بولس بهنام في كتاباته عن دير مار برصوم ودير مار مرقس في أورشليم. كما وضع البطريرك أفرام برصوم الأوّل في كتابه: اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانيّة، لائحة بثلاثة وثمانين ديرًا من الأديرة القديمة المعروفة في التاريخ.

أمّا قوانين الحياة الرهبانيّة فكانت أوّلاً شفهيّة، وما برحت أن تنظّمت وحدّدت حياة الجماعات الرهبانيّة. كتب أهمّها رابّولا الرهاويّ (المتوفّى في العام الـ٤٣٥)، ويوحنّا بن قُرسس (المتوفّى في العام الـ٥٣٨)، ويعقوب الرهاويّ (المتوفّى في العام الـ٧٠٨)، وخرستوفوروس سرجيس (المتوفّى في العام الـ٩١٤) من أبرشيّة دير مار متّى، ويوحنّا الماردينيّ (المتوفّى في العام الـ١١٦٥)، ويوحنّا ابن العبريّ (المتوفّى في العام الـ١٢٨٦).

وعندما كتب رابّولا، أسقف الرها، بعض الإرشادات للرهبان، ميّز بين مجموعتين من القواعد الصارمة، إحداهما للرهبان العائشين في أديرة جماعيّة، والأخرى للكهنة «وأبناء العهد»، مركّزًا على سلطة

الرئيس، والصلوات المشتركة، وضرورة التبشير.

ووضعت لبعض الأديرة، قوانين خاصّة بها، كالقوانين الأربعة والعشرين لدير مار متّى مثلاً، التي يعود تاريخها إلى العام الـ٥٠٨، أو قوانين دير مار زكّا، قرب كالينيكوم. وفي القرن الثاني عشر، كتب مار ميخائيل الكبير اثني عشر قانونًا للرهبان، كما كتب يوحنّا الماردينيّ سبعة. وهناك مجموعة من القوانين تُنسب إلى فيلكسينوس، أسقف منبج (المتوفّى في العام الـ٥٢٣).

في كتابات القدّيسين أفرام وإسحق الأنطاكيّ أقوال تشبه أقوال آباء الصحراء المصريّة. أبدى دومًا السريان تعلّقًا كبيرًا بآباء الصحراء المصريّين، وترجموا أقوالهم السريانيّة، في القرن الخامس أو السادس.

وكان لروحانيّة أيفاغريوس البنطيّ كبير الأثر في حياة الرهبانيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة.

ويُسجَّل وجود رهبان سريان في مصر منذ القرن الرابع. وفي القرن الثامن، قام محسنون سريان أرثوذكس من تكريت، يعيش بعضهم في القاهرة، بشراء الدير المكرّس للعذراء، في صحراء الإسقيط، في مصر. وصار معروفًا بدير السريان، مع أنّه عاد إلى السلطة القبطيّة منذ القرن السابع عشر.

ويُقال إنّ عدد الرهبان السريان الذين عاشوا في هذا الدير، في القرن الحادي عشر، زاد على ستّين راهبًا سريانيًّا أرثوذكسيًّا.

وفي أورشليم، ما زال دير القدّيس مرقس القديم، قائمًا وفاعلاً.

وهناك ثلاثة أديرة في أوروبّا، هي دير القدّيس أفرام في لوسير، هولندا، ودير القدّيس يعقوب السروجيّ، في واربورغ، ألمانيا، ودير القدّيس أوجين في آرث، في سويسرا.

وفي الهند هناك أربعة أديرة للراهبات (دير القدّيسة مريم في بوثنكروز، ودير القدّيسة مريم في فينيكل، ودير القدّيسة مريم في كوثا منغالم، ودير القدّيسة مريم في مينانغادي) وثلاثة أديرة للرهبان: القدّيس إغناطيوس في مانجينيكارا، والقدّيس جاورجيوس، في ماليكوريز، والقدّيس أنطونيوس في بيرامادوم.

نلقي نظرة على أديرة السريان الأرثوذكس المهمّة والحياة الرهبانيّة فيها، في التاريخ وفي الوقت الحاضر، في سورية والعراق وتركيا.

سورية

نشأ، في شمال سورية، في أواخر القرن السادس، ما يزيد على ثمانين ديرًا. وعلى بعد اثنين وثلاثين كيلومترًا إلى الشمال الغربيّ من حلب، عاش القدّيس سمعان العموديّ اثنين وأربعين عامًا على عموده. وزار العديد من الحجّاج ذلك المكان، في أيّامه وإلى اليوم. وعلى مقربة من هذا الدير تقع آثار دير تلعدا، الذي تأسّس في أواسط القرن الرابع، وكان مركزًا رهبانيًّا مهمًّا، من مراكز السريان، حتّى القرن العاشر. وعاش فيه يعقوب الرهاويّ تسع سنوات. وقام غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، متروبوليت حلب، بتسجيل الأرض وآثار الدير، باسم أوقاف الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة في العام الـ١٩٨٧، لإعادة بناء دير حديث.

أمّا الديران السريانيّان الأرثوذكسيّان، دير مار إليان في القريتين، قرب حمص، ودير مار موسى الحبشيّ، أو موسى الأسود قرب النبك، على بعد نحو تسعين كيلومترًا من دمشق، فقد انتقلا إلى السلطة الكاثوليكيّة، في أواسط القرن التاسع عشر. ويُروى أنّ موسى الأسود كان أميرًا حبشيًّا ترهّب في فلسطين، ثمّ تنسّك بالقرب من النبك. وما زلنا نرى بعض الكهوف حول الدير، الذي تأسّس على الأرجح، في القرن السادس. ولكن يرجع تاريخ بعض أجزائه إلى القرن الحادي عشر. الكنيسة مزيّنة بجداريّات رائعة من القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تمثّل أهمّها تاريخ الخلاص. كما تمثّل هذه الجداريّات النموذج الوحيد المتبقّي من القرون الوسطى في سورية. يُقصد الدير بواسطة طريق صحراويّة، ثمّ بصعود بعض الأدراج. وكان الحجّاج يسلكون قديمًا هذه الطريق، التي تمرّ بحفر، إلى أورشليم، ويستريحون في الدير، قبل متابعة سفرهم.

عُرفت أديرة سريانيّة أرثوذكسيّة أخرى في سورية، لكنّها اندثرت، ومنها دير مكرّس للعذراء في عيفرى على بعد عشرين كيلومترًا إلى الشمال الغربيّ من دمشق. وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من الحسكة، في تلّ الورديّة، مركز جديد مخصّص للاجتماعات والمؤتمرات والتدريب المهنيّ، يُعتبر ديرًا، أُنجز في العام الـ٢٠٠١، وهو باسم العذراء. كما هناك دير جديد آخر في طور البناء، باسم القدّيس أنطونيوس في صدد، بالقرب من حمص، يعيش فيه منذ الـ٢٠٠٨ راهب واحد.

العراق

يُشهد على وجود الحياة الرهبانيّة في العراق، منذ القرن الرابع،

مع مجيء رهبان من الغرب، أي بما يُعرف اليوم بجنوب شرق تركيا
ونظرًا إلى الاضطهاد من العام الـ٥٢١ إلى العام الـ٥٦٥، هرب رهبان
آمد واستقرّوا في المنطقة المسمّاة بيث باعربايا، غرب الموصل.

وضع الأبّ فيّي لائحة بالأديرة السريانيّة الأرثوذكسيّة الأثريّة
وبخاصّة حول الموصل. ومنها في جبل مقلوب، على بعد نحو ثلاثين
كيلومترًا إلى الشمال الشرقيّ من الموصل، وجبل الألفاف، المسمّى
هكذا بسبب العدد الكبير من الرهبان والنسّاك الذين عاشوا فيه
عندما كانت الحياة الرهبانيّة في أوجها، بين القرنين الرابع والثامن.
والدير الرئيس مكرّس للقدّيس متّى. بُني على قمّة الجبل، وكان من
الصعب الوصول إليه، قبل إنشاء الطريق مؤخّرًا. وهو مقرّ أسقفيّ
سكنه المفريان مرارًا. أقام المفريان يوحنّا ابن العبريّ فيه، منذ العام
الـ١٣٦٤. وهو مدفون هناك مع أساقفة آخرين ومع مؤسّس الدير مار
متّى. ويكرّم رفاتهم في غرفة خاصّة هي «بيت القدّيسين» إلى جانب
الكنيسة الرئيسة. ويُعتبر دير مار متّى مكانًا مقدّسًا. وما زال الحجّاج،
إلى اليوم، يأخذون ترابًا من أرضه للبركة. وهو بدون شكّ، أقدم دير
سريانيّ أرثوذكسيّ في الشمال الشرقيّ من بلاد ما بين النهرين. نال
الدير في العام الـ٦٢٩ الأوّليّة على أديرة بلاد فارس.

ويُقال إنّ القدّيس متّى وُلد قرب آمد (دياربكر) في مطلع القرن
الرابع. وبعد اضطهاد يوليانوس الجاحد نحو العام الـ٣٦١، استقرّ على
جبل قرب نينوى (قرب الموصل الحديثة). وكان يشفي المرضى. ووفقًا
للتقليد، هدى بهنام ابن ملك آشور، وابنته ساره، إلى المسيحيّة، كما
شفى ساره من البرص. وترجع بعض جدران الكنيسة السفليّة، إلى

القرنين الثاني عشر أو الثالث عشر.

أمّا الكنيسة الرئيسة فهي مكرّسة على اسم القدّيس متّى،
وهناك كنيسة أخرى باسم العذراء. زار كلاوديوس جيمس ريتش،
القنصل البريطانيّ في بغداد، دير مار متّى في العام الـ١٨٢٠ واستقبله
الأرشمندريت الربّان موسى. أمّا في العام الـ١٨٤٣ فوجدج. ب. بادج الدير
شبه مهجور. وفي العام الـ١٨٩٢ شهد أو. اتش باري أنّ الإصلاحات
التي أشار إليها بادج، قبل بضع سنوات كانت مستمرّة. وفي العام
الـ١٩٩٨ ما عاد يعيش في الدير سوى راهبين مسنّين وأسقف، وارتفع
هذا العدد في العام الـ٢٠٠٨ إلى أسقف وخمسة رهبان. ويمكن للمرء
أن يرى، قرب الدير، كهف مار متّى، وكهوفًا أخرى كان يعيش فيها
العديد من النسّاك. وما زالت أسماء بعضهم مذكورة: زكّا، وإسحق،
ويوحنّا ابن العبريّ نفسه، وابن الخيّاطين، وابن الصبّاغ. وهناك مكان
يُدعى «رواق الملاك»، أي ممرّ الملاك، كما توجد في الجوار، آثار لأديرة
قديمة مهدّمة، مثل كوختا، ومار إبراهيم، ومار يوحنّا البرازيّ، ومار
يوحنّا ايت ايزو ساورا.

أمّا دير مار دانيال، المعروف أيضًا باسم دير الخنافس، فأُسّس في
نهاية القرن الرابع، وارتبط بدير مار متّى. ويقع دير مار زينا، المؤسّس
في نهاية القرن السادس، على ضفاف نهر دجلة، في مكان يُدعى اليوم
حمّام العليل، على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الجنوب الشرقيّ
من مدينة الموصل. وذكر المكان العلاّمة ابن العبريّ في العام الـ١٢١٠.

أمّا أديرة مار سرجيوس، ومار زاعورا، ومار باعوث، في جبل
العطشان، في سنجار، فقد بناهم مار أحودمّه، وهو المفريان الأوّل، نحو

العام الـ٥٧٠. ودرس مار موسى بن كيفا في واحد من هذه الأديرة.

أسّس مار أحودمّه أيضًا ديرين كبيرين، في عين قينايا، واحد على الأرجح قرب بَلَد، باسم القدّيس سرجيوس، والآخر في غيطاني، قرب تكريت.

تلقّى المفريان ماروثا (المتوفّى في العام الـ٦٤٩) تعليمه في دير مار صموئيل الجبليّ على الضفّة اليسرى من نهر دجلة، على مقربة من بلدة بَلَد. ثمّ درس في دير نادرا، قرب دهوك، حيث ترهّب. واستشهد القدّيس لعازر في هذا الدير في العام الـ٤٨٣. وكان واحدًا من أشهر الأديرة في القرنين السادس والسابع، وعُرف بآبائه الروحيّين، ومن بينهم مار غوسي ومار مسكينا، وكانا رجلين قدّيسَين صانعي المعجزات، أثناء حياتهما، وأيضًا بعد موتهما. وبعد أن مكث مار ماروثا في دير مار زكّا، قرب الرقّة، ثمّ في صوامع بالقرب من الرها، استقرّ في دير مار متّى، نحو العام الـ٦٠٥. وتوجّه نحو العام الـ٦١٥ إلى الدير الكائن قرب القصر الملكيّ، في سلوقيه – قطيسفون، الذي أقامته الملكة شيرين. وأسّس ماروثا العديد من الأديرة، منها دير القدّيس سرجيوس، ودير ابن جلجي بين تكريت وحيت.

على بعد كيلومترين من قره قوش، آثار دير القدّيس الديلميّ الذي أسّسه، في نهاية القرن السابع. ورُممت كنيسته مؤخّرًا. وفي العام الـ١٢٨٤ بنى المفريان ابن العبريّ ديرًا إلى الشمال الغربيّ من برطلة، باسم يوحنّا ابن النجّارين، وطلب من فنّان من القسطنطينيّة أن يرسم الجداريّات داخل الكنيسة. ويوجد أيضًا أثر لأديرة قديمة في بغداد.

في العراق أيضًا أديرة للراهبات، مثل دير مار دانيال المذكور آنفًا، ودير نُسب إلى الملكة هند، في مقاطعة الحيرة، وهو من القرن السادس، ودير بيت عبري لوالدة الإله، الذي بناه ماروثا، ودير العذارى في بغداد الذي يرجع بناؤه إلى القرنين العاشر أو الحادي عشر، ودير حديلة في قره قوش، الذي أتى على ذكره ابن العبريّ.

يبلغ عدد الرهبان السريان الأرثوذكس العراقيّين ستّة في العراق وثمانية خارج العراق، بينما تعيش راهبتان في العراق واثنتا عشرة خارجه.

تركيا

وفقًا لما يرويه التقليد، يُقال إنّ مار أوجين (يوجين) قدِم من مصر إلى جبل إيزلا، إلى الشمال من نصّيبين، حيث عاش مع نسّاك آخرين. وتأسّس دير باسمه قبيل نهاية القرن الرابع. وتطوّرت الحياة الرهبانيّة حول جبل إيزلا، وفي طورعبدين، إلى أن أصبحت المنطقة أهمّ مركز رهبانيّ وروحيّ للسريان الأرثوذكس. وهناك ترجمات مختلفة لاسم طورعبدين، منها «جبل الخدّام»، أو «عابدي الله»، أو «جبل النسّاك». وهو مرتفع صخريّ تتقاطع فيه الأودية.

وترأّس مار برصوم (المتوفّى في العام الـ٤٥٨)، والذي اسمه «ابن الصيام»، الدير الذي يحمل اسمه، والذي يقع بين سميساطا وملطية، وكان لفترات متعدّدة مقرًّا لبطريركيّة السريان الأرثوذكس، من القرن الثامن أو التاسع إلى أواخر القرن الثالث عشر. أقام فيه مار ميخائيل الكبير ودُفن هناك. هدّم الأكراد الدير نحو العام الـ١٢٩٣. ويشكّل،

على الأرجح، اليوم، الأطلال المسمّاة برصوم كاليسيّ.

وفي القرن الثامن عشر، يتكلّم نيبوهر، نقلاً عن روايات شفهيّة سمعها، عن وجود سبعين ديرًا، في طورعبدين، لكنّها جميعها مهدّمة. ويُبلغ باري، في القرن التاسع عشر، عن وجود تسعة أديرة فقط.

لم يبق من هذه الأديرة في العام الـ٢٠٠٩، سوى ستّة ما زالت «شغّالة» اليوم في طورعبدين، في حاح ومار إبراهيم بالقرب من مديات، ودير مار جبرائيل حيث كان يعيش في العام الـ١٩٦٦ ثلاثة رهبان وثلاث عشرة راهبة إضافة إلى كونه مقرًّا أسقفيًّا، للمطران صموئيل أقطاش، ودير الزعفران حيث يقطن أسقف وراهبان وراهبتان، ودير مار يعقوب، وهو ناسك من القرن الخامس، حيث نجد ثلاثة رهبان وراهبتين، ودير مار ملكي، وهو تلميذ مار أوجين، الذي أسّس أقدم دير في المنطقة، حيث يعيش ثلاثة رهبان وراهبتان. ويُصار إلى ترميم بعض الأديرة أمثال دير مار أوجين.

وما زالت هناك أماكن أخرى مهمّة بادية للعيان، مثل دير الصليب، حيث يُقال إنّ مؤسّسه مار آحو أودعه ذخيرة الصليب الحقيقيّ. وكذلك دير مار آحو، ودير القدّيسين سرجيوس وباخوس، في حاح، كما توجد أطلال نحو عشرين ديرًا.

كان أسقف مديات الأسبق، أفرام (المتوفّى في العام الـ١٩٨٣) رجل تقوى وصلاة. فأعاد تنظيم الحياة الرهبانيّة في طورعبدين، وسمح لأسباب أمنيّة، للراهبات بالصلاة والعمل في أديرة الرجال.

أمّا دير الزعفران، الذي يُشير اسمه إلى حجارة الجبل التي هي

بلون الزعفران، والمسمّى أيضًا دير مار حنانيّا، فيقع على بعد ستّة كيلومترات من ماردين. كان هذا الديرالقديم مقرًّا لبطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس، من العام الـ١٢٩٣ إلى العام الـ١٩٢٣. والدير مُحاط بحقول خصبة، وكهوف أقام فيها النسّاك. وله ثلاث كنائس، يرجع تاريخ الكنيسة الرئيسة على الأرجح إلى القرن الرابع، زيّنها الأمبراطور أناستاسيوس (٤٩١–٥١٨). أمّا الكنيستان الباقيتان فمكرّستان للعذراء وللقدّيسَين بطرس وبولس. ويضمّ الدير أضرحة بطاركة السريان الأرثوذكس في المكان المسمّى بيت القدّيسين.

ويشرب الأزواج ماء من بئر الدير التي تُنسب إليها موهبة محاربة العقم. وتعمل الأمّ فريدة، التي ترهّبت في دير الزعفران منذ ثمانية وعشرين عامًا، بكدّ، وتقول بأنّ هذه هي الطريقة الصحيحة لاختبار الحياة الرهبانيّة. وأوّل شيء تقوله لحث الزوّار على المجيء إلى الدير: «تعالوا، فلدينا ذخائر العديد من القدّيسين، تعالوا، واستمعوا إلى المعجزات التي يصنعونها. فنحن خطأة، بيد أنّنا نتضرّع إلى الله مع القدّيسين. وكذلك هنا قبور بطاركتنا. فكيف لنا أن نترك هذه الأماكن المليئة بالقداسة والقدم؟ ونحن نرفع الصلاة لله، وذهننا يقيم فيه باستمرار. سيحصل ما سوف يحصل. وكلّنا سنموت ذات يوم. ولكن قبل تلك الساعة، علينا أن نصلّي ونخدم الله، إذ هذه هي أفضل من أيّ حياة أخرى».

ترهّب الأب الربّان إبراهيم، رئيس الدير، منذ العام الـ١٩٥٣. وهو يمكث في الدير دائمًا، ولا يسافر أبدًا، إذ يعتبر أنّ الراهب الذي يغادر الدير هو مثل السمكة خارج الماء، ويموت. أخبرني عن المعجزة

التي حصلت أثناء رسامة البطريرك يعقوب الثاني (١٨٤٧-١٨٧١) حين جفّت ماء البئر. وعندما وضع البطريرك بعض الزيت المقدّس في البئر، عادت الماء. وفي العام الـ١٩٥٣ حصل وباء في الجيش التركيّ، فأتى أحد الجنود إلى الدير وشفي بمعجزة. كما يروى حدوث العديد من الحالات المماثلة، عبر العصور.

ويُعتبر دير مار جبرائيل، أو قرتمين، أشهر مركز رهبانيّ روحيّ وأدبيّ وثقافيّ في منطقة طورعبدين بأجمعها، لا بل في منطقة بلاد ما بين النهرين العليا. فهو منعزل على التلال الواقعة على بعد ثلاثة عشر كيلومترًا من مديات. أسّسه شموئيل (المتوفّى في العام الـ٤٠٩) وتلميذه شمعون (المتوفّى في العام الـ٤٣٣)، اللذان شيّداه في العام الـ٣٩٧. حمل الدير لاحقًا اسم أحد رؤسائه المشهورين، جبرائيل (المتوفّى في العام الـ٦٦٨)، والذي كان أسقف طورعبدين، في عهد الفتح العربيّ. دوّنت حياتهما ومعجزاتهما. تلقّى الدير تبرّعات من الأباطرة البيزنطيّين، أمثال أونوريوس (المتوفّى في العام الـ٤٢٣) وأركاديوس (المتوفّى في العام الـ٤٠٨)، وثيوذوسيوس الثاني، في العام الـ٤٠٩، وأناستاثيوس. وفي عهد هذا الأخير، في أوائل القرن السادس (٥١٢)، بُنيت الكنيسة الرئيسة، وسمّيت لاحقًا باسم القدّيس جبرائيل. وما زال بالإمكان رؤية بقايا أثريّة منها وجداريّات من الفسيفساء، تصوّر الصلبان، والأشجار، والأزهار، كما في أرضيّتها حيث الرسوم هي بشكل الصليب. ويُذكر كلّ هؤلاء الأباطرة في «تقويم طورعبدين» وفي «سِفر الحياة». وكان دانيال (٦١٤-٦٣٣) أوّل أسقف أقام في قرتمين. وتوجد أيضًا في الدير ثلاث كنائس أخرى، إحداها باسم العذراء. ويعود ازدهار الدير إلى الهبات التي جمعها سمعان الزيتونيّ، الذي صار

أسقف حرّان في العام الـ٧٠٠.

وكما هي الحال في الأديرة الأخرى في طورعبدين، يصلّي الرهبان والراهبات معًا في الكنيسة، كما أنّهم يصلّون ويقرأون في صوامعهم. وتهتمّ الراهبات بشؤون الدير اليوميّة، والطعام، والنظافة، والبستنة، والخياطة، والتطريز. ويقمن في الجانب الأيسر عند مدخل الدير. وفي العام الـ١٩٩٧، كان يعيش نحو ثلاثين شابًا في الدير، يرتّلون في أوقات الخِدَم مع الرهبان، وكانوا يتلقّون دروسًا في اللغة والثقافة السريانيّة، ويذهبون كلّ يوم إلى المدرسة العامّة في مديات، بواسطة حافلات صغيرة. وهذه هي الحال أيضًا بالنسبة إلى الشباب في دير الزعفران، حيث يذهبون إلى ماردين.

يأتي الحجّاج والمرضى، وبخاصّة النساء العواقر، للتبرّك من رفات القدّيس جبرائيل، وغيره من القدّيسين، ويشربون من ماء البئر الذي يُعتبر أنّ له قدرة على الشفاء. ويستعملون جمجمة القدّيس يوحنّا العربيّ، وهو معاصر للقدّيس جبرائيل لاغتراف الماء. ويُذكر أنّ القدّيس جبرائيل، بارك ذات اليوم لم يكن فيه ما يكفي من الطعام، القليل الموجود، فأصبح وفرًا. أقام، في دير الصليب، صديقه الأسقف من بين الأموات. وتذكر سيرة القدّيس جبرائيل وجود ثمانمائة جمجمة لقدّيسين عُثر عليها في قبّة تُدعى قبّة «المصريّين».

ويعيش الملفونو عيسى، الذي يعلّم اللغة السريانيّة، في الدير مع عائلته. وأخبرني أنّ أديرة طورعبدين ومكتباتها أُحرقت مرارًا، إلّا أنّ الرهبان السريان الأرثوذكس عادوا دائمًا إليها بطرائق عجيبة وأطلقوا مجدّدًا الحياة الرهبانيّة. وفي العام الـ١٩٣٠، حيث كان يتحارب

الأكراد والأتراك التجأ الأكراد إلى الدير فأمر الأتراك بهدمه. فما كان من مطران مديات المدعو آنذاك مار توما، إلاّ أن أمر الناس بالصوم مدّة ثلاثة أيّام وثلاث ليال، أتى بعدها الخبر السارّ بأنّ لا شيء سوف يُدمّر. وترسّخ إيمان بأنّ القدّيس جبرائيل هو الذي حفظ الدير، وأنّه سيحفظه دومًا. ويقع الدير في منطقة استراتيجيّة، بين سورية والعراق. وأدّى الدير، أثناء حرب الخليج، في العام الـ١٩٩٠، دورًا مهمًّا، إذ التجأ إليه العديد من العراقيّين، كما أرسلت أطنان من الطعام والأدوية إلى الدير لتوزيعها عليهم، بعد أن طال وجودهم في الدير. واستقبل الدير في ما بعد موجات أخرى من اللاجئين.

أخبرتني الراهبة فيفرونيا، التي تعيش في الدير منذ أربعة عشر عامًا، أنّ: «أهمّ شيء في حياتنا هو الحياة الروحيّة. فحتّى العمل يغدو روحيًّا، إذ أفكّر بالله وأنا أعمل. فالعمل هو خدمة لله. وتكمن الحياة الروحيّة في قراءة سِير القدّيسين، وتاريخ الكنيسة، والتأمّل، والقيام بلقاءات روحيّة مع الراهبات وبعض الزوّار. إلاّ أنّ الأهمّ هو الصلاة، إذ توطّد علاقتنا بالله. فعندما نصلّي نتحدّث مع الله. وعندما أتلو الصلوات، يتحدّث الله إليّ. وتنبع الثمار الروحيّة من محبّة الله النامية في داخلنا، ومن المحبّة التي نُبديها للجميع. ونحن حاليًّا نهيّئ أنفسنا للحياة الحقيقيّة، التي هي الحياة الأبديّة. فإن لم أعدّ نفسي لتلك الحياة، فما الذي أفعله في حياتي الدنيويّة؟ فما نحن سوى خطأة نطلب إلى الله الكامل وحده، أن يساعدنا. وعلينا أن نكون مسؤولين، كلّ يوم، عن أعمالنا تجاه الله، كما علينا أن نصلّي ونتوب ونبكي، كلّ يوم. والصلاة الرهبانيّة هي صلاة من أجل العالم بأسره ومن أجل السلام الذي يمنحه الله. فإن صلّيت بإيمان كبير، وإن آمنت بأنّ الله

سيساعدك ويساعد الآخرين، بإمكانك، عبر الصلاة، مساعدة الناس. فاعليّة الصلاة كبيرة».

ويتذكّر الملفونو عيسى راهبًا طاعنًا بالسنّ من دير مار أوجين، واسمه الأب لحدو عبد الأحد، معتبرًا إيّاه يمثّل روح الرهبانيّة القديمة بأحسن وجه، وقائلاً: «كان يصلّي في قلايته الليل كلّه، ويروي لنا أخبار أصدقائه الرهبان المسنّين. كانوا يقطفون، أيّام الصوم، الأعشاب البرّيّة، ويأكلونها بدون طهو. وكان يساعد هذا النوع من الأكل على حفظهم بصحّة جيّدة. وبما أنّ الدير كان في منطقة شبه صحراويّة، كانوا في الصيف يملأون مطرتهم الجلديّة ماءً، ويتّجهون نحو الطريق ليقدّموا الماء للمارّة الذين كانوا يتساءلون مَن هم ومن أين أتت لهم هذه المعونة. فكانوا يكلّمونهم إذ ذاك عن المسيحيّة، والحياة الرهبانيّة، والمقطع الإنجيليّ القائل إنّ من يُقدّم الماء يحظى بالمكافأة. وكان الأب لحدو يخبرنا أيضًا عن النسّاك الشديدي الزهد الذين ما كانوا يأتون إلى الدير سوى للمناولة».

ويذكر الراهب حنّا عيدين، الذي رُسم أسقفًا في العام الـ٢٠٠٧، في واربورغ، في ألمانيا، في كتابه بالألمانيّة، عن الرهبنة في طورعبدين، أنّه كان يوجد حتّى العام الـ١٩٢٧ بعض الرهبان الشديدي النسك في طورعبدين، مثل الراهب آحو الذي عاش في كهف، قرب مار يعقوب، والذي لم يكن له فراش يفترشه ولا حذاء ينتعله، وكان يأكل مرّة فقط في اليوم، عند المساء، ويأكل فقط طعامًا نيّئًا. كما كان يعيش ثلاثة رهبان آخرون في مار شربل، قرب مديات، على غراره، وهم يوحنّا مقسي باهي، ويوحنّا فيديك، وبرصوم. وفي دير مار إبراهيم

قرب مديات، عاش ثلاثة رهبان آخرون، هم سيركو، وملكي، ويوحنا، وكانوا يرتدون نطاقات من الحديد، ويمشون حفاة الأقدام، كما يفعل راهبان آخران من دير مار هوبيل. وقبل الحرب العالميّة الأولى، كان أكثر من عشرين راهبًا يعيشون بهذه الطريقة النسكيّة. وعاش بعضهم في قرى ناسخين الكتب الطقسيّة.

ويأتي اليوم السريان الأرثوذكس بكثرة من جميع أنحاء العالم لزيارة أديرة طورعبدين وكنائسه.

والبطريرك يعقوب الثالث (المتوفى في العام الـ١٩٨٠) كان ينصح جميع روّاد المدارس الإكليريكيّة بأن يترهّبوا، قائلاً لهم إنّ الحياة الرهبانيّة هي الطريق الفضلى للوصول إلى الله.

وعندما سألت البطريرك زكّا عن الحياة الرهبانيّة، قال: «الحياة الرهبانيّة هي القوّة التي تحيي الكنيسة. ونشهد، اليوم، تجدّدًا في الحياة الرهبانيّة، في كنيستنا. فهناك شبّان وشابّات متعلّمون ينخرطون فيها. ونعلم أنّ القدّيس أفرام لم يكن يعيش في كهف وحسب كناسك، بل كان يعلّم أيضًا. لذلك ليست الحياة الرهبانيّة، في تقليدنا، مجرّد الحياة في العزلة والصلاة، بل تقتضي أيضًا تعليم الناس. وعلى مَن يرغب في تجديد الحياة الرهبانيّة، أن يتّبع هذا الطريق. ولا بدّ للرهبان والراهبات في عالم اليوم، من أن يقاربوا الناس لجعل مَن لا يسمح لهم وقتهم بالذهاب إلى الدير بأن يشاركوهم خبرتهم الروحيّة. ولذا يشارك رهبان وراهبات في حياة الرعايا الصلاتيّة، ويزورون العائلات، كما لو كانوا من المبشّرين. ونقل رهباننا الإنجيل عبر العصور وبشّروا به. واليوم، لا بدّ للراهبات من أن يقمن بهذا الدور ويشهدن للحياة

الروحيّة. نؤمن بأنّ الحياة الرهبانيّة بدأت بوحي من الروح القدس، وبأنّ تجديد الحياة الرهبانيّة اليوم لا بدّ من أن يكون بمساعدة الروح القدس، وليس فقط بتطبيق القوانين الرهبانيّة. يريد الروح القدس إيصال رسالة إلينا اليوم. ففي الماضي اعتاد رهباننا أثناء أيّام الصوم الأربعينيّ والجمعة العظيمة، أن يعظوا في الرعايا. وكانت لنا مدرسة بالقرب من كلّ كنيسة، وكانت أديرتنا كلّيّات يُدرَّس فيها الإيمان والتاريخ واللغة السريانيّة. أمّا بالنسبة إلى الراهبات، فلدينا الآن أديرة جديدة لهنّ، ضمن البطريركيّة، في مقرّها في صيدنايا، وفي العطشانة، قرب بيروت، وفي مكان آخر في بغداد (لكنّه أُقفل في العام الـ٢٠٠٩). ودير العطشانة هو باسم القدّيس يعقوب السروجيّ الذي كان مبشّرًا. وعلينا أن نحذو حذوه. وعلينا ابتكار الأساليب لحثّ العلمانيّين على أهمّيّة الحياة الروحيّة، لكي نساعد أكبر عدد من الناس على الوصول إلى الخلاص». أعطيت الراهبات دورًا تعليميًّا، ليكنّ القدوة الصالحة للآخرين في الحياة الروحيّة.

عدد الراهبات لدى السريان الأرثوذكس عشرون، في العام الـ٢٠٠٩، في سورية والعراق. أمّا الشمّاسات العاملات في الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، فهنّ من العلمانيّات اللواتي يخدمن في الكنائس المحلّيّة، ويرتّلن في الجوقات، ويقمن بالتعليم الدينيّ، ويساعدن الآخرين على معالجة مشاكلهم الخاصّة. وتُتلى عليهنّ صلاة خاصّة قبل قيامهنّ بمثل هذه الأعمال.

هناك أديرة قديمة في العديد من الأمكنة الأخرى، غير التي ذكرناها. وسوف يساعد التنقيب عن الآثار على إعادة اكتشاف هذه

الأديرة التاريخيّة. ولكن كيف لنا أن نقوم بمثل هذه الحملات التنقيبيّة في العراق اليوم؟

أدّت الأديرة دورًا روحيًّا وثقافيًّا مميّزًا في التقليد السريانيّ الأرثوذكسيّ، نرجو أن يستمرّ.

الخاتمة

تاريخ الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة مليء بالاضطهاد. وكما قال لي أحد كهنتها: «كان تاريخنا تاريخ صلب». وقال لي أيضًا أحد الشباب من حلب: «عندما أتوا من أورفا، أي الرها القديمة، كان إخوتنا متعبين، ولم يتمكّنوا من جلب شيء من ممتلكاتهم. مع ذلك، همّوا ببناء كنيستنا. ولم يشجّعهم سوى إيمانهم. يمكن للمرء أن يتساءل كيف له أن يتسامى على كلّ المصاعب التي حلّت عبر العصور، وأن يبقى وفيًّا لإيمانه المسيحيّ». وقالت لي إحدى السيّدات من القامشلي: «ما زلنا نتّكل على الله، رغم كلّ الصعاب. لذلك حافظنا على صلابة إيماننا، وتعلّقنا بكنيستنا، إلى أيّامنا هذه، إذ تأتي التعزية من لدن الله، وليس من بشر. لذلك من الأهمّيّة بمكان أن يُعطى لنا أن نبقى في أرض أجدادنا».

وقال رجل مسنّ من حلب: «سنستمرّ في العيش ضمن جماعة مسيحيّة، على قدر تعلّقنا بكنيستنا الرسوليّة. علينا التمحور حول هؤلاء الثلاثة: أنا، وكنيستي، وبطريركيّتي. لا ضرورة لوطن، أو أرض خاصّة. عندما قبلنا المسيحيّة، تركنا كلّ أمور الدنيا الأخرى، بما في ذلك كلّ شكل من أشكال السلطة. وطننا في السماء، في ملكوت الله. الهجرة مضرّة، إذ لم يبقَ منّا إلاّ القليل. فماذا سوف يحلّ بنا إن افترقنا وعاش بعضنا في مكان آخر؟ ولكن، إن بقينا أوفياء لكنيستنا، سنستمرّ في الوجود، في جميع الأحوال، لأنّ كنيستنا وبطريركنا سوف يمثّلوننا. وعلينا، كيّ نبقى أوفياء، أن نحبّ بعضنا البعض، ونتعاون،

ونشجّع شبيبتنا على خدمة الكنيسة، والتعرّف إلى تقليدنا. هكذا ستبقى هويّتنا مليئة بالحياة».

وكما قال الأسقف متّى الحسكي: «تجسّد بشكل مصيريّ لاهوتنا المسيحيّ. فبعد الآلام والتضحيّات والصلب، لا بدّ من قيامة. ونعيش الآن فترة قيامة، من جرّاء النهضة التي تعمّ كنيستنا». وتظهر هذه النهضة في المدرسة الإكليريكيّة، وتدريس اللغة والعلوم السريانيّة والترجمات، ونشر كتب مهمّة عن التقليد السريانيّ باللغة العربيّة ولغات أخرى، وفي العدد المتزايد للرهبان والراهبات الشباب، وفي التعليم الدينيّ، ونشاطات الشبيبة التي تنظّمها الكنيسة.

أمّا على الصعيد الثقافيّ، فلا بدّ من ذكر الدور البارز الذي قام به المسيحيّون السريان بواسطة ترجماتهم من اليونانيّة إلى العربيّة، وغالبًا مرورًا بالسريانيّة، في عهد الأمويّين والعبّاسيّين.

لخّص رئيس الأساقفة تيموثاوس صموئيل أكتاس، في رسالته الميلاديّة، الصادرة في مجلّة طورعبدين، بكلمات قليلة، وضع رعايا السريان الأرثوذكس، ليس فقط في طورعبدين، بل في أمكنة أخرى، قائلاً: «الميلاد موسم تجدّد في الرجاء... نحمل كنوزًا ورثناها من أجدادنا، ليس فقط كنوزًا ثقافيّة ولغويّة، بل نمط حياة وفنّ، وعلينا المحافظة عليها بصبر وإيمان. وقبل كلّ شيء، علينا المحافظة على ذكر قدّيسينا، وجميع الذين جاهدوا، وتحمّلوا العداوة، والضيقة، برجاء ومحبّة، من أجل المسيح. علينا أن نؤمّن نهضة حقيقيّة لهذا الإيمان، ولهذه الثقافة، والحياة، ولهذا الأدب والفنّ، وأن نصهرها كلّها في علاقتنا الحيّة والمتوازية مع العالم المعاصر».

«تكمن إحدى أولويّاتنا، بحسب قول المتروبوليت غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، مطران حلب للسريان الأرثوذكس، في إعادة بناء رعايانا على أسس روحيّة». وأضاف أستاذ سريانيّ في اللغة الإنكليزيّة، معلّقًا: «وُهبنا بركة عظيمة لبقائنا على الإيمان المسيحيّ، ونعيش الآن معجزة بقائنا أحياء».

يسعى السريان الأرثوذكس كلّ جهدهم، للحفاظ على أحد أثمن كنز من كنوز المسيحيّة، وذلك بواسطة وعي قياداتهم الروحيّة، وحسّها بالمسؤوليّة، وجهدها في إحياء التقليد وتعليم الايمان.

الملحقات

الملحق رقم ١

تنظيم الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وحياتها في سورية

دمشق مقرّ للسريان الأرثوذكس بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس رئيس لكلّ السريان الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم. تقع في دمشق عاصمة سورية، في المدينة القديمة، قرب بوّابة القدّيس توما (باب توما)، وهي على مقربة من بطريركيّة الروم الأرثوذكس.

يقوم البطريرك برسامة الأساقفة والمطارنة، ويقدّس الميرون ويترأس المجامع. ويستند القانون الكنسيّ للسريان الأرثوذكس إلى القانون الهدايات العامّ (Nomocanon) الذي جمعه المفريان يوحنّا ابن العبريّ في القرن الثالث عشر. تمّ إقرار الدستور الحاليّ لكنيسة السريان الأرثوذكس في مجمع حمص في العام الـ١٩٣٣، وقام بتعديله مجمع دمشق في العام الـ١٩٥٧. ويتمّ إصدار المجلة البطريركيّة في دمشق. وينبغي عقد المجمع المقدّس مرّة كل عامين.

يساعد المطران في كلّ مطرانيّة مجلس كهنوتيّ يضمّ كلّ كهنة الأبرشيّة، ومجلس ملّيّ معينّ أو منتخب من علمانيّين، لا يزيد عددهم عن اثني عشر من الرجال والنساء. وهناك العديد من اللجان المنبثقة عن المجلس الملّيّ للنشاطات المختلفة (التربية، الأعمال الخيريّة، الصحّة، الثقافة...). وهناك لجنة تهتمّ بالأوقاف، أي الأبنية والأراضي والعقارات، التي ابتاعتها الكنيسة لمساعدة ميزانيّتها.

بعد انتخاب قداسة البطريرك زكّا في العام الـ١٩٨٠ بثّ روحًا من التجديد في كنيسة السريان الأرثوذكس وشجّعها. وأوصى المجمع أوّلاً وقبل كلّ شيء بأن يكون لكلّ رعيّة مركز للتربية الدينيّة، يتضمّن مدارس الأحد ونشاطات للشباب، من الطفولة وحتّى المرحلة الجامعيّة، وتدريب مدرسيّ للتعليم الدينيّ. وينظم البطريرك في الصيف دورات لاهوتيّة للعلمانيّين المهتمّين.

وهناك أيضًا تعليم دينيّ للعائلات والمرأة حيث تنظّم لقاءات لدرس الكتاب المقدّس، ومحاضرات دينيّة، ورياضات روحيّة والعمل في هيئات خيريّة.

تلتقي مراكز الشبيبة المختلفة مرّة في العام في الرابع عشر من أيلول، وهو عيد الصليب وذكرى تنصيب قداسة البطريرك زكّا الأوّل، وذلك للتخطيط لنشاطات السنة المقبلة. يقول الأب جان قواق أحد الكهنة المسؤولين عن الشبيبة: «مدارس الأحد هي مشاركة حياتيّة بين المرشد والشبيبة. وهي ليست مجرّد إصغاء، بل هي العيش معًا. ففي الصيف نقيم مخيّمات تُقام فيها الصلوات، وتنظّم الرحلات وتقدّم المحاضرات الروحيّة والاجتماعيّة وكذلك المناقشات. كما تساعد الشبيبة عندنا الفقراء وذوي الاحتياجات الخاصّة وتزورهم. ومن الصعب على الشباب اليوم قبول ما تعلّمه الكنيسة بشكل أعمى. بيد أنّهم يجدون أيضًا شيئًا نقيًا في جوّ الكنيسة يحبّونه ويشعرون بارتياح إزاءه. والقدّاس الإلهيّ هو أفضل تعليم دينيّ. ويرتّل الشباب في جوقات الكنيسة».

تقول ناتالي يوسف وهي قائلة، في مدارس الأحد ومترجمة

إلى اللغة الفرنسيّة، ومدرّسة: «إنّ المهمّ بالنسبة إلى الأطفال هو فهم الكيفيّة التي يمكن فيها للمرء أن يكون قريبًا من الله، وذلك بخبرة الصلاة، فهذا يساعد الأطفال على التواصل مع الله، وتعلّم كيفيّة عيش حياة مسيحيّة بطريقة روحيّة».

حمص إميسّا هو الاسم القديم لحمص. ويُسجّل وجود أساقفة في حمص منذ القرن الثالث. أضحى المكان حاضرة في العام الـ٤٥٣. كانت الأسقفيّة مرتبطة بصدد وديري مار موسى ومار إليان. كما كانت حمص تابعة لسنجق حماه في ولاية سورية. مار ملاطيوس برنابا كان مطران حمص وحماه منذ الـ١٩٥٧، وقدم إلى حمص في العام الـ١٩٤٧ ليكون سكرتيرًا للبطريرك أفرام. أنشأ المطران ميتمًا في العام الـ١٩٦٣. وفي كانون الأوّل ١٩٩٩ رُسم الربّان أليشاع النعمة مطرانًا على حمص باسم سلوانوس بطرس النعمة.

تحدث إليّ المطران برنابا قائلاً: «إنّ المؤمنين السريان الأرثوذكس في حمص وصدد هم من هذه المنطقة أصلاً. ونحن نتّبع إيمان الرسل الأوائل الذي حافظنا عليه عبر القرون وعبر الصعوبات والاضطهادات». بعد أن غادر جرجس، والد المطران برنابا قريته في تركيا، أصبح كاهنًا في العام الـ١٩٤٥ في المالكيّة، في الجزيرة، حيث توفّى في العام الـ١٩٧٧. ويعود لأمثال هؤلاء المؤمنين قدرة الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة على البقاء عبر العصور.

يرتدي السريان الأرثوذكس من الرجال على رؤوسهم في

القرى السريانيّة قرب حمص وفي الجزيرة، غطاءً أبيض للرأس (شماغ)، مع رباط أسود مزدوج (العقال) ويبقونه على رؤوسهم حتّى داخل الكنيسة، وينزعون العقال أثناء القدّاس الإلهيّ، ولكنّهم لا يفعلون ذلك في الأعراس.

حلب

يرجع تاريخ أبرشيّة حلب إلى القرون الأولى. فنحن نعلم عن أسقف لحلب يُدعى أوسطاثيوس ساهم في مجمع نيقية وصار بطريرك أنطاكية في العام الـ٣٢٤. أمّا مار غريغوريوس يوحنّا ابن العبريّ الشهير فكان أسقف حلب قبل أن يصبح جاثليق المشرق. وما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر غالبًا ما زار بطاركة السريان الأرثوذكس حلب، لا بل أقاموا فيها.

كانت الشخصيّات التالية مطارنة لحلب في القرن العشرين، وأشهر هذه الشخصيّات هو المطران أفرام برصوم الذي أصبح البطريرك أفرام الأوّل برصوم، إلاّ أنه كان هناك أيضًا قليميس يوحنّا (١٩٢٦-١٩٢٨)، وأثناسيوس توما قصير (١٩٢٩-١٩٣٣)، وغريغوريوس جبرائيل (١٩٣٧-١٩٤٣)، وفي العام الـ١٩٥٠ تمّ تعيين مار ذيونيسيوس جرجس بهنام، وهو راهب ورع من دير الزعفران، رئيس أساقفة مدينة حلب، وقد عرفه الجميع إنسانًا تقيًّا يصلّي من أجل الناس، وينصحهم ويساعدهم. وفي العام الـ١٩٧٩ صار رئيس الأساقفة غريغوريوس يوحنّا إبراهيم المتروبوليت الجديد. وهو عضو في اللجنة المركزيّة لمجلس الكنائس العالميّ، كما مثّل كنيسته في حوارات مسكونيّة مختلفة.

يناهز السيّد يوسف نامق الثمانين عامًا. وُلد في أورفا ورحل عنها وهو في الثامنة. وما زال يذكر حياته هناك ومجيئه إلى حلب. كان أبوه حارسًا. وفي عهد الأمبراطوريّة العثمانيّة، كانت أورفا، وهي الرها القديمة، تابعة لولاية حلب. انتقلت العائلات السريانيّة الأرثوذكسيّة من أورفا رسميًّا في العام الـ١٩٢٤، وجاءت واستقرّت في حلب، التي كانت آنئذٍ تحت الانتداب الفرنسيّ، في حيّ سمّي بحيّ السريان. عاشوا أوّلاً في خيام. غادر أهله جميعًا في قوافل أسبوعيّة، حاملين معهم ما يقارب المئتين من المخطوطات الكنسيّة، كما حملوا ناقوس كنيستهم الذي وُضع في الكنيسة الجديدة التي بُنيت في حلب العام الـ١٩٣٢. وفي العامين الـ١٩٣٢ والـ١٩٣٣ غادرت حلب خمسون عائلة إلى بيروت. ويتذكّر السيّد نامق بانفعال عاطفيّ أنّ الرها، العاصمة القديمة المحبوبة، والمركز الفكريّ للسريان الأرثوذكس، والشهيرة بمدرستها اللاهوتيّة، قد أفرغت ولأوّل مرّة منذ بدء المسيحيّة، من كلّ المسيحيّين. الرها وما يحوط بها من الجوار هي قلب التاريخ السريانيّ الأرثوذكسيّ.

أتيحت ليوسف نامق في حلب فرصة الدراسة في الكلّيّة الأميركيّة حيث أصبح أمين المكتبة فيها. وكتب كتبًا عن تاريخ كنيسته، وحياة وطنه، كما كتب مقالات ونظّم قصائد. وينوّه السيّد نامق، كما يفعل آخرون من السريان الأرثوذكس، بأنّ طائفته قد خلّفت كلّ شيء وراءها في أورفا، إلاّ أنّ العديد من الشبّان في حلب استطاعوا أن يدرسوا، بحيث تمكّنوا من تحقيق مستوى أعلى من الحياة.

كما قدمت عائلة فريدة بولس من أورفا حيث كان أجدادها حطّابين. قُتل معظم الرجال في العائلة في العام الـ١٩١٥، وجاء الباقون

إلى حلب خاليي الوفاض. وفريدة هي اليوم مدرّسة اللغة الإنكليزيّة وتعيش في حيّ السريان مع أمّها وشقيقتها وتتكلّم معهما اللغة الأرمنيّة، كما اعتاد العديد من السريان الأرثوذكس القادمين من أورفا أن يفعلوا. إنّها عضو فعّال في رعيّة مار جرجس السريانيّة الأرثوذكسيّة. وعملت منذ العام الـ١٩٦٧ مع نساء أخريات في لجنة الإحسان للعائلات الفقيرة والمسنّين. وفي العام الـ١٩٧٠ أنشأت مع طلّاب آخرين المدرسة الأحديّة في حيّ السريان. ورُسمت شمّاسة، وهذا يعني أنّ بمقدورها الترتيل أثناء الكنيسة في الصلوات الصباحيّة والمسائيّة. كما أنّها تعطي دروسًا في الكتاب المقدّس. بدأوا في العام الـ١٩٨٣ باجتماعات للمرأة، وفي العام الـ١٩٩٢ شكّلوا مجموعة الخرّيجين الجامعيّين.

أبرشيّة الجزيرة والفرات

المنطقة الواقعة في الشمال الشرقيّ من سورية، والمسمّاة بالجزيرة، تعني «جزيرة» باللغة العربيّة، إذ يعبرها نهرا الفرات ودجلة وكذلك الخابور. هي أرض خصبة في زراعة القمح والقطن، كما يوجد الآن تطوّر في إنتاج للنفط والغاز الطبيعيّين. والمتروبوليت الحاليّ للحسكة هو أوسطاثيوس متّى.

كانت هذه المنطقة تحت الإدارة العثمانيّة. كما كانت حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى تابعة لولاية دياربكر، عندما حاول معظم السريان الأرثوذكس الهرب بعد مذبحة الـ١٩١٥ الجماعيّة إلى القامشلي، والمالكيّة والحسكة، ونجا جدّ مار أوسطاثيوس متّى بأعجوبة بعد أن قُتل بوحشيّة أهل قريته الواقعة قرب مديات جميعًا نساءً وأطفالاً

وشيوخًا في يوم واحد، ورآهم بأمّ عينيه في حمّام من الدم.

تنامت معظم الأماكن بعد العام الـ١٩١٥ سكّانيًّا بعد قدوم السريان الأرثوذكس من تركيا، واستقرّ معظمهم في القامشلي. وكان هناك مركز للجيش الفرنسيّ منذ العشرينات، وصارت نصّيبين «الجديدة» على الجانب الآخر من الحدود الجديدة بين تركيا وسورية. وهناك اليوم أربع كنائس وواحدة قيد الإنشاء، وستّة كهنة لخدمة ٤٥٠٠٠ من الناس. كما استُخدمت الكنيسة الأولى، كنيسة مار يعقوب، التي بنيت في العام الـ١٩٢٧ كمدرسة في البدء.

هناك كنائس أخرى مكرّسة للعذراء مريم، ومار أفرام والقدّيس قرياقوس. أمّا خارج المدينة فنجد كنيسة ومركز مار جرجس في طرطب وكنيسة القدّيس آحو في دمخيا.

هناك نحو عشرين قريّة فيها كنائس للسريان الأرثوذكس. وفي الطريق من القامشلي إلى المالكيّة يمكن للمرء أن يرى العديد من مستوطنات البدو الذين ما زالوا يعيشون في الخيام. وقيل لي بأنّ البدو أنقذوا الأرمن والسريان الأرثوذكس عندما هربوا من الأمبراطوريّة العثمانيّة في العام الـ١٩١٥ وذلك بتقديم الطعام والمأوى لهم، كما أنّهم ساعدوهم بطرائق أخرى مختلفة، وخاطروا بحياتهم بفعلهم هذا.

أمّا حقيقة استمرار العلاقات الجيّدة بين الجماعتين فقد أكّدها لي زعيم البدو الشيخ عبد الرزّاق الطائيّ من قبيلة طيء، الذي التقيته قرب القامشلي. فهو يتذكّر أنّ جماعته اعتادت أن تعيش مع الطائفة المسيحيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة وتحدّث عنهم كأبناء عمّ له.

أمّا في المالكيّة، وهي واقعة عند الطرف الشماليّ الشرقيّ من سورية، عند الحدود العراقيّة التركيّة، فقد فاض الزيت عجائبيًا من الجدار على يمين المذبح في كنيسة العذراء منذ العام الـ١٩٤٤، وما زال. ويقوم العديد من الحجّاج بزيارة المكان، وبخاصّة العواقر من النساء. وحدثت هناك ظهورات للعذراء. كما أنّ بوسع مركز الطائفة أن يستضيف المؤمنين من أجل الأعراس ولقاءات الشبيبة والمعارض.

وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومترًا من الحسكة شُيّد مركز جديد باسم العذراء في تلّ الورديّات وهو قريب من القرى الآشوريّة التي يقيم السريان مع أهلها علاقة طيّبة.

ويلبّي هذا المركز الحاجات الروحيّة والاجتماعيّة والمهنيّة والتعليميّة للطائفة في الجزيرة، بخاصّة الشبيبة، وسيساعد على إحياء تعليم المؤمنين، وذلك من طريق المؤتمرات والمخيّمات الصيفيّة. ويضمّ المركز حديقة وبستانًا كبيرين. كما يضمّ مكتبة ومخزنًا لبيع الأغراض الدينيّة ومركزًا مهنيًّا لتعليم مهارات الخياطة والتطريز والحياكة وأعمال السكرتاريّة ودارًا للضيافة، كما يحضن النشاطات المسكونيّة من مختلف الديانات ويرحّب بكلّ الزائرين. وأخبرني رئيس أساقفة الجزيرة، مار أوسطاثيوس متّى: «من المهمّ لتاريخنا القول بأنّنا ما زلنا على أرض أجدادنا وأنّنا مستمرّون في حياتنا هنا». عثر علماء الآثار الأميركيّون في العام الـ١٩٨٩ في تلّ تنينير، على بعد عشرين كيلومترًا إلى الجنوب الشرقيّ من الحسكة على كنيسة مهدّمة من الطوب. وهذه الكنيسة تحمل ملامح هندسيّة تمتّ إلى حدّ كبير إلى الكنائس الموجودة في منطقة طورعبدين والموصل، وتمّ التخلّي عنها في بدء القرن الثالث

عشر. وقد نُقشت على إحدى قطع الطوب إشارة الصليب كما بقيت عليها كلمة واحدة فقط مكتوبة بالسريانيّة وهي «الرجاء».

أمّا الأب كبرئيل القس متّى فهو كاهن كنيسة القدّيس مار أفرام في القامشلي، قدمت عائلته من منطقة مديات، على غرار غالبيّة عائلات الجزيرة. وكان والده كاهنًا. ويكتب الأب كبرئيل اللغة السريانيّة بخطّ جميل، وقام بنسخ العديد من الأناجيل وكتب الصلاة. وعندما سألته عن المسؤوليّة العظيمة في نقل كنز روحانية اللغة السريانيّة من جيل إلى جيل، أجاب: «إن وجدت عائلات عدّة سريانيّة أرثوذكسيّة في مكان واحد فسوف يبنون كنيسة، ثمّ مدرسة. وسوف يدرسون حتّى وإن كان الأمر عسيرًا، وبما أنّهم لا يأبهون للمصاعب، فهم يتدبّرون أمرهم كما فعل أجدادهم». وهو يناشد الشباب الذين يغادرون البلد ألاّ يفقدوا نفوسهم. وقال بأنّ بعض الناس يعودون من أميركا للإقامة في الجزيرة، وذلك لتعليم أطفالهم بطريقة أقرب إلى تقليدهم.

هذا وقد تباطأت هجرة أهل الجزيرة إلى الغرب منذ العام الـ١٩٩٠. إلاّ أنّ للهجرة في رأي المطران متّى، جانب إيجابيّ، إذ يُقدّم الذين يغادرون البلد دعمًا ماليًّا كبيرًا لعائلاتهم في سورية.

الملحق رقم ٢

تنظيم الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وحياتها في تركيا

تقع الأماكن الرئيسة في التاريخ السريانيّ الأرثوذكسيّ في ما يُعرف اليوم بجنوب شرق تركيا: أنطاكية، ونصّيبين، والرها أورفا، وآمد دياربكر، ودير مار برصوم المندثر حاليًا قرب ملطية، وطورعبدين. أمّا ماردين ومديات فما زالا مركزين للسريان الأرثوذكس.

يمكن أن يُطلق على طورعبدين اسم الموطن الأمّ للسريان الأرثوذكس لأنّ عددًا كبيرًا منهم عاش هناك وحول ماردين حتّى نهاية القرن التاسع عشر. وتصف غرترود بيل طورعبدين بأنّه السهل المرتفع الشامخ الذي يمتدّ من إيديل (Idil) وسيزر (Cizre) في الشرق إلى ماردين ودياربكر في الغرب، وحتّى نصّيبين جنوبًا. ويحوط به نهر دجلة من الشمال والشرق، بينما تقع الحدود السوريّة والعراقيّة في الجنوب. ويقع هذا البلد ضمن حدود الأمبراطوريّتين الرومانيّة والفارسيّة القديمتين. وبينما كانت الحروب تستعر حول آمد دياربكر وماردين ودارا ونصّيبين، أتاحت وديان طورعبدين المنعزلة للمسيحيّين العيش بسلام إلى حدّ ما، في أقليم تكثر فيه الكرمة وأشجار الفاكهة. كما كان طورعبدين، الذي يعني في أحد معانيه «جبل خدّام الله»، معقلاً لإيمان السريان الأرثوذكس ورهبنتهم. ويرجع تاريخ معظم الكنائس القديمة إلى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والعاشر، إلاّ أنّها أطلال اليوم إلى حدّ كبير. وبعد القرن الثامن

تعاقب على المنطقة العبّاسيّون والسلاجقة والمغول والعثمانيّون. وفي العصور الوسطى كان هناك ما يربو على سبعين ديرًا في هذه المنطقة قبل غزو التتار في العام الـ١٢٣٢ والمغول مع تيمورلنك نحو العام الـ١٤٠٠. وفي العام الـ١٢٩٣ نُقلت البطريركيّة إلى دير الزعفران قرب ماردين.

في عهد الأمبراطوريّة العثمانيّة (ابتداء من القرن الخامس عشر)، مثّل البطريرك الأرمنيّ في القسطنطينيّة كلّ المسيحيّين اللاخلقيدونيّين، ما عدا الأرثوذكس الشرقيّين واليونان. وهكذا، كان السريان الأرثوذكس ولقرون عديدة يراجعون الدوائر الرسميّة من طريق البطريرك الأرمنيّ في القسطنطينيّة. ولم يستطع بطريرك السريان الأرثوذكس، بعد انتخابه من قِبل مجمع الكنيسة أن يُمارس أعماله إلاّ بعد اعتراف السلطان من طريق فرمان يتمّ الحصول عليه عبر البطريرك الأرمنيّ.

وفي أواسط القرن التاسع عشر، قام النائب البطريركيّ، كيرلّس يعقوب، وهو البطريرك يعقوب الثاني مستقبلاً، بشراء قطعة أرض في طارلاباشي، وكانت موجودة آنئذٍ في القسطنطينيّة (إسطنبول اليوم) حيث بنى كنيسة صغيرة باسم العذراء. وفي عهد البطريرك بطرس الرابع (١٨٧٢-١٨٩٤) تمّ الاعتراف بالكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة كنيسة مستقلّة، وأصبح بمقدورها تنظيم شؤونها مباشرة مع الباب العالي في القسطنطينيّة.

رغم انتهاج سياسات ليبراليّة في أواسط القرن التاسع عشر، حدثت المذبحة الأولى بحقّ الأرمن والمسيحيّين الآخرين بين العامين

الـ١٨٩٥ والـ١٨٩٩، وقُتل السريان الأرثوذكس بخاصّة في مقاطعة أو ولاية دياربكر وخربوت، وكان أحد أسباب قتلهم أنّهم يتكلّمون الأرمنيّة في مدن مثل دياربكر وأورفا، وأديمان (الجنوب من ملطيّة)، وخربوت حيث كان الأرمن هم الأكثريّة. وبدأوا منذ ذلك الحين بالانتقال إلى سورية، ولبنان (زحلة، بيروت) وبالهجرة إلى أميركا.

في العام الـ١٩٠٨ ومع وصول الأتراك الشباب، أُعطيت وعود بالمساواة، والعدالة والديمقراطيّة لمواطني الأمبراطوريّة العثمانيّة. إلاّ أنّه في العام الـ١٩٠٩ قُتل نحو ألف من السريان الأرثوذكس في أضنة.

وبعد أن قدّمت الملكة فيكتوريا لهم آلة طباعة، بدأت عمليّة النشر منذ نهاية القرن التاسع عشر في دير الزعفران. وفي العام الـ١٩٠٥، أحدثت مدرسة إكليريكيّة في دير الزعفران، وأصدرت مجلّة لاحقًا، هي مجلّة صوفيا (الحكمة) بين العامين الـ١٩١٣ والـ١٩١٤.

وفي العام الـ١٩١٥ حصلت أكبر المذابح، حتّى في المناطق التي لم يكن فيها أرمن، مثل طورعبدين. واستمرّت هذه المذابح حتّى العام الـ١٩١٨.

نجد معلومات عن تلك الفترة في بعض المصادر السريانيّة الأرثوذكسيّة، كملاحظات كتبها الأب حنو ونشرها باللغة السريانيّة في العام الـ١٩٨٧ في لوسير، هولندا، وفي العام الـ١٩٩٧ باللغة السويديّة. وهناك مصدر آخر اسمه الدم المسفوح، بقلم الملفونو نعمان أيدين ونُشر باللغة السريانيّة في العام الـ١٩٩٧. كتب الأب السريانيّ الكاثوليكيّ إسحق أرملة، الذي عاش في ماردين خلال المذابح،

بالتفصيل عن هذه المأساة بالنسبة إلى المسيحيّين.

وردت رسالتان في كتاب مجد السريان، حياة وتاريخ مار إغناطيوس أفرام الأوّل برصوم، الذي كتبه متروبوليت حلب مار غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، كتبها العام الـ١٩٢٠ المطران مار سويريوس أفرام برصوم، الذي كان آنئذٍ مطرانًا على سورية ولبنان ويقيم في حمص، وهما موجودتان في أرشيف وزارة الخارجيّة البريطانيّة في لندن. في إحدى هاتين الرسالتين، التي أرسلت إلى رئيس وزراء بريطانيا ديفيد لويد جورج، يكتب مار سويريوس أفرام عن الخسارة التي أحاطت بشعبه إذ دمّرت ٣٤٥ قريّة، و١٥٦ كنيسة، وأديرة تاريخيّة، وقُتل نحو ٩٠٣١٣ نسمة كان من بينهم ١٥٥ كاهنًا وراهبًا. كما أرسل المطران أفرام رسالة أخرى إلى رئيس مجلس اللوردات في لندن.

تبعت مؤتمر السلام في باريس (١٩١٩-١٩٢٠)، في ١٠ آب العام الـ١٩٢٠، معاهدة سيفر التي وضعت كيفيّة تقسيم الأمبراطوريّة العثمانيّة.

وفي العام الـ١٩٢١، أخلى الفرنسيّون كيليكية في جنوب شرق تركيا. وضُمّ لواء الإسكندرون (السنجق) بما في ذلك أنطاكية إلى تركيا في العام الـ١٩٣٩.

وفي العام الـ١٩٢٣ أعلنت الجمهوريّة التركيّة الجديدة. وفي العام ذاته تمّت مراجعة معاهدة السلام في مؤتمر لوزان التي حدّدت حدود تركيا الحديثة. وتدور المادة ٤٠ (الجزء ٣) من معاهدة لوزان (١٩٢٣) حول أقلّيّات غير مسلمة في تركيا، من دون ذكر أيٍّ منها. ويذكر قرار

داخليّ لاحق اليونانيّين، والأرمن واليهود، ولكنّه لا يذكر السريان الأرثوذكس.

في عهد الرئيس أتاتورك (١٩٢٣) فُصل الدين عن الدولة. وبرزت مشاكل جديدة من العام الـ١٩٢٠ وحتّى العام الـ١٩٢٧، نتج منها قتل بعض السريان الأرثوذكس. وهكذا هرب العديد من السريان الأرثوذكس مرّة أخرى في جماعات صغيرة، وبخاصّة في العامين الـ١٩٢٢ والـ١٩٢٤ إلى سورية المجاورة (الحسكة والقامشلي، في الجزيرة)، وإلى لبنان والقدس، وكذلك إلى العراق وبخاصّة إلى الموصل وما جاورها.

وفي العام الـ١٩٣٣ اتّخذ القرار بنقل بطريركيّة أنطاكية للسريان الأرثوذكس من دير الزعفران إلى حمص في سورية مع انتخاب البطريرك مار إغناطيوس أفرام الأوّل برصوم. وفيها جرت إعادة ترتيب حياة الكنيسة ومؤسّساتها تدريجيًّا. وهكذا أنشئت أقوى وأكبر أبرشيّات السريان الأرثوذكس في الشرق الأوسط في سورية.

بدءًا من الستّينات وحتّى السبعينات من القرن العشرين، هاجر السريان الأرثوذكس إلى أوروبّا الغربيّة، من أجل العمل بشكلٍ رئيس أو لأسباب اقتصاديّة أخرى، وبخاصّة إلى ألمانيا وهولندا، ولاحقًا السويد وبلجيكا، والنمسا وسويسرا وفرنسا.

كان للكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة قبل العام الـ١٨٩٥ سبع أبرشيّات في طورعبدين، بقي منها خمس فقط بعد الحرب العالميّة الأولى. وكان آخر أساقفة طورعبدين مار إيوانيس أفرام بيلجيك (توفّى العام الـ١٩٨١)، ومار إلياس جنقايا (توفّي العام الـ١٩٨٤). وفي

العام الـ١٩٩٧ كان هناك متروبوليت واحد باقٍ في طورعبدين، وهو مار تيمثاوس صموئيل أقطاش، وهو يقيم في دير مار كبرئيل قرب مديات، وأقل من أربعمائة عائلة وستّة كهنة فقط. ما زال في ماردين قرب كرسيّ البطريركية القديم سبع كنائس وخمس وستّون عائلة وكاهن واحد.

يقيم النائب البطريركيّ، وهو المطران مار فيلكسينوس يوسف جتين، في إسطنبول حيث توجد كنيسة واحدة للسريان الأرثوذكس في طارلاباشي، باسم العذراء مريم وكنائس مستعارة أخرى نحو ٢٠٠٠ عائلة جاءت من شرق تركيا يخدمها ستّة كهنة. ولم يبق في العام الـ١٩٩٨ أكثر من ١٠٠٠٠ سريانيّ في تركيا بأسرها.

أمّا اليوم فإنّ وضع السريان الأرثوذكس في تركيا غير مشجّع. فالأوضاع اليوميّة صعبة، والقرى مهجورة والسريان الأرثوذكس يرحلون إلى أوروبّا الغربيّة وأميركا، لا لأسباب ماليّة، بل لأسباب أمنيّة، بخاصّة أنّ المنطقة تعيش أحداثًا مصيريّة بين فئات أمنيّة وحزبيّة تتصارع من أجل ديمومتها واستقلالها، وظهرت فيها تيّارات أصوليّة متطرّفة، خلقت مناخًا من انعدام الأمن في الجنوب الشرقيّ من تركيا. وينسى العديد من الناس، أنّ هذه المنطقة هي أيضًا الأرض الأمّ للسريان الأرثوذكس. وهناك قلّة من الناس يعرفون مدى توتّر الوضع بالنسبة إلى السريان الذين ما زالوا يعيشون في تركيا، ونادرًا ما يُذكر ذلك في الصحافة والإعلام. حاولت سلطات الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة الحؤول دون الخروج الجماعيّ للسريان إلاّ أنّها لم تفلح.

مع ذلك توجد نشاطات كبيرة في دير مار كبرئيل، وهو مكان

الإقامة الحاليّ لرئيس أساقفة طورعبدين، وكذلك للعديد من الرهبان والراهبات، ولنحو ثلاثين طالبًا يذهبون إلى المدارس التركيّة ويدرسون اللغة السريانيّة والتقليد الكنسيّ في الدير.

أخبرني الملفونو عيسى كولتان، وهو معلّم اللغة السريانيّة في دير مار كبرئيل قائلاً: «نرجو أن يكون المستقبل جيّدًا لنا جميعًا، ونحن بانتظار ذلك المستقبل. نحن لا نستسلم، ولم نفقد الرجاء. عبر محبّتنا ورعايتنا لجيراننا ولكلّ إنسان، نرجو الله أن يبدّل شيئًا ما في منطقتنا لتكون أكثر أمنًا وسلامًا. ونرجو أن يكون العيش هنا والقدوم إلى هذا المكان للزوّار أكثر سهولة، وأن يقبل واحدنا الآخر كأفراد من ديانات مختلفة، وأن يحبّ واحدنا الآخر. ويسعى الدير ليكون علامة محبّة. فهو مفتوح أربعًا وعشرين ساعة في اليوم لأيّ زائر، ويتابع تقليد الضيافة المسيحيّة والرهبانيّة. وحتّى المسلمون يأتون إليه للراحة، ولتلقّي البركة من قدّيسي أديرتنا، يأتون طلبًا للصلوات. وتقدّم لهم الحفاوة ذاتها في دير الزعفران قرب ماردين. وما العمل الذي نتابع القيام به في أبنية الأديرة وفي الحقول سوى العلامة بأنّنا مرتبطون على الدوام بأرض آبائنا هنا. ويسعى عملنا لأن يشكّل قدوة لجيراننا، المسلمين من الأتراك والأكراد،

كما أنّنا نقوم، مع أصدقاء طورعبدين وهي جمعيّة تأسّست العام الـ١٩٩١، في النمسا بنشر مجلّة «صوت طورعبدين» التي نعمل على طباعتها لنظهر أهمّيّة طورعبدين، ورعيّته الصغيرة، وتاريخه، وعاداته، وأبنائه بالإضافة إلى أخباره ونشاطاته. وفيها بعض المقالات باللغة الإنكليزيّة. كما تأسّست مجموعة تضامن في العام الـ١٩٩٣، شملت

مشروعات للقرى، مثل حفر الآبار للريّ، بما أنّ البلد جافّ، وتوزيع الماء على البيوت. من المهمّ أن تكون هناك روح الأخوّة. وأصدقاء طورعبدين يساعدوننا بقدر ما يستطيعون وذلك للحفاظ على المسيحيّة في أرضنا الأمّ، عبر الصلاة ومحبّة جيراننا. كما أنّنا نتمنّى أيضًا أن نظهر لأبناء شعبنا الذين هاجروا إلى أوروبّا كيف يفكّرون بطورعبدين، وندعوهم لزيارة وطنهم الأمّ، ومساعدة آخر مَن تبقى من الناس على عدم الرحيل. ففي المهجر يتغيّر شبابنا. في العام الـ١٩٩٦ كان لدينا عدد لا بأس به من الزائرين من المهجر الذين جاؤوا مع أولادهم، وشاهدوا أوضاع القرى السيّئة، وقضيت ساعات أتناقش مع الشباب شارحًا لهم كيف أنّ عليهم أن ينظروا إلى آثارهم وتاريخ كنيستهم، بما أنّ الآباء لا يملكون في معظم الأحيان ما يكفي من العلم في هذا المجال ليتمكّنوا من أخبارهم. وعدوا بالرجوع في أيّام العطلة القادمة، وعند العودة إلى أوروبّا وصفوا في المدرسة ما اختبروه وما يودّون تعلّمه عن تقليدهم ولغتهم. اكتشفوا هنا وجود الراحة والعائلة الروحيّة. فالقدوم إلى طورعبدين في رحلة حجّ إلى الأماكن والقرى التاريخيّة لهي أنجح من قراءة الكتب. وفي العام الـ١٩٩٧ ستكون الذكرى الـ١٦٠٠ للدير. وسيكون هناك الآلاف من شعبنا الذين يودّون زيارة طورعبدين، لذا سيستمرّ الاحتفال طوال العام لاستيعاب كلّ القادمين».

إلاّ أنّ «صوت طورعبدين» نقلت خبرًا في العام الـ١٩٩٧ مفاده أنّه لم يكن بالمقدور القيام باحتفالات ذكرى التأسيس لأسباب أمنيّة. وفي آذار من العام الـ١٩٩٦ كتبوا (العدد ٤): «إذا سقط طورعبدين، كغيره من الأصقاع الثقافيّة السريانيّة، بكلّ ما فيه من كنوز تاريخيّة وثقافيّة متأصّلة، في هاوية التاريخ المنسيّ، فسيكون خسارة يؤسَف

عليها للمسيحيّة بشكل عامّ وللثقافة السريانيّة بشكلّ خاصّ». يعتمد مستقبل طورعبدين على الشباب الذين يحثّون على عدم مغادرة أرض أجدادهم وعلى تكفّل قراهم وكنائسهم، وأديرتهم وإيمانهم وثقافتهم. هناك شريط فيديو متوفّر باللغة الألمانيّة (عيد الفصح في طورعبدين) ويظهر الشريط زيارة بعض الأديرة والقرى. ويمكن شراؤه من «صوت طورعبدين» من طريق أصدقاء طورعبدين.

وصوت طورعبدين موجودة على الإنترنيت مع نصوص وخرائط.

ختم الملفونو عيسى كلامه بالقول: «نرجو أن نستمرّ بالبقاء على قيد الحياة، وبخاصّة في مهد السريانيّة الأرثوذكسيّة، فهذه هي صلاتنا وهذا هو رجاؤنا. ونسأل أخوتنا المسيحيّين وشقيقاتنا المسيحيّات أن يفكّروا بنا ويصلّوا من أجلنا حتّى لا تختفي المسيحيّة من هذه الزاوية المنفردة من العالم. فكلّ صليب هنا وكلّ رفات يُظهر مدى قِدم المسيحيّة في هذه الأرض. وإيماننا هو أنّ المسيحيّة لن تنتهي حتّى مجيء المسيح الثاني. وها نحن نعيش على ذلك الرجاء ونستمرّ في العمل بجدّ. وأهمّ دعوة محدّدة في الحياة الرهبانيّة في طورعبدين هي خدمة الإنسانيّة وتعليم الإنسانيّة كيفيّة المحبّة. ويحاول الرهبان والراهبات أن يتّبعوا في حياتهم هذه القدوة التي أعطاها المسيح وأن يشاركوا أيّ زائر بها».

وكانت آخر كلمات المطران أقطاش: «نرجو الاستمرار في مواجهة الصعوبات. إنّنا نفعل ما بوسعنا للاستمرار بكنائسنا في طورعبدين». واختتم قائلاً: «صلّوا من أجلنا، صلّوا معنا، صلّوا من أجل جيراننا، فنحن لا أعداء لنا».

الملحق رقم ٣

تنظيم الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وحياتها في العراق

عند الحديث عن التاريخ السريانيّ الأرثوذكسيّ، لا بدّ من ذكر المؤمنين الذين يعيشون حتّى الآن في العراق، بلاد ما بين النهرين القديمة، والتي تمّ تبشيرها نحو السنة الـ١٠٠. وتدعى بالسريانيّة «بيت نهرين» أي بلاد ما بين النهرين، الفرات ودجلة المذكورين في المزامير. فهنا كان مهد الحضارتين البابليّة والآشوريّة. وإبراهيم وُلد في أور. ويُقال إنّ ضريح النبيّ يونان موجود على تلّة في مدينة نينوى القديمة قرب مدينة الموصل الحديثة.

وفي العام الـ٦٢٩ تأسّست مفريانيّة أو جثلقة المشرق، لخدمة السريان الأرثوذكس الذين يعيشون قي الأبرشيّات الموجودة في المنطقة القديمة من الأمبراطوريّة الفارسيّة الساسانيّة. وظلّت قائمة حتّى العام الـ١٨٥٩. ومنذ العام الـ٦٢٩ كان اللقب المعهود الذي أطلق على رئيس الكنيسة هو المفريان من الكلمة السريانيّة أفري، «يثمر»، أو «أبو الآباء». وفي منتصف القرن الثالث عشر صار لقب كاثوليكوس يُستعمل أيضًا أحيانًا، ويُستعمل اليوم في الهند، بينما ما عاد لقب «مفريان» مستعملاً. وتركّز تاريخ جثلقة المشرق حول تكريت ٦٢٩-١١٥٢، ثمّ تركّز لاحقًا بشكل أساس في الموصل ١١٥٢-١٨٥٩، وأيضًا في برطلة، قره قوش، وديري مار متّى ومار بهنام في الجزء الشماليّ من العراق.

كانت غالبيّة مسيحيّي العراق تقليديًّا من السريان الشرقيّين أو الآشوريّين، من كنيسة المشرق. وما زالوا اليوم الغالبيّة، يليهم الكلدان، أي الآشوريّون الذين انضمّوا إلى الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة. ومنذ القرن الثامن عشر عملت البعثات التبشيريّة الكاثوليكيّة على ضمّ العديد من السريان الأرثوذكس إلى الكثلكة. وهناك اليوم نحو ٥٠٠٠٠ سريانيّ أرثوذكسيّ في العراق، يعيش أكثر من نصفهم في بغداد، أمّا الآخرون فهم في الموصل وجوارها، وهناك ثمانٍ وستّون عائلة في البصرة.

يُقال إنّ التبشير بالإنجيل بدأ من الرها مع أدّي الرسول، وهو واحد من التلامذة السبعين. وتبع أدّي تلميذه ماري في العام الـ٣٠. كما حصل التبشير بالإنجيل في قطيسفون، العاصمة الفارسيّة القديمة، وهي اليوم في جنوب بغداد.

يُعرف الكثير من الشهداء المسيحيّين في بلاد فارس في القرنين الرابع والخامس. وأعلنت كنيسة سلوقيّة – قطيسفون أو كنيسة المشرق استقلالها قبل مجمع أفسس في العام الـ٤٣١. كما وجدت كنيستان سريانيّتان أرثوذكسيّتان في قطيسفون في نهاية القرن السادس.

نشر الإيمان رهبان مثل مار متّى، ومارٍ زكّا وبعض تلاميذهم. وكان شمعونٍ أسقف بيت أرشم الذي توفّي نحو الـ٥٣٢ أو الـ٥٣٣، مبشّرًا نشيطًا من مبشّري الكنيسة السريانيّة في بلاد فارس. وكتب حياة شهداء نجران. وفي العامٍ الـ٥٥٩، رُسم أحودمّه، أسقف بيت عربايا في شمال العراق، والمدعو أيضًا رسول القبائل العربيّة، متروبوليتًا للشرق من قِبل مار يعقوب البرادعيّ، جاعلًا تكريت مقرّه الرئيس. انتشر

الإيمان السريانيّ الأرثوذكسيّ من تكريتٍ ودير مار متّى، في حدياب وباعربايا. وأسّس عدد من الأديرة، فضلًا عن المدارس التي كان أوّلها في منطقة بيث نوهادرا (شمال الموصل الحديثة).

في مطلع القرن السابع، كانت الأماكن المجاورة لمدينة نينوى القديمة، مأهولة بشكل جزئيّ بالسريان الأرثوذكس. وعندما استولى الأمبراطور البيزنطيّ هرقل على مدينة نينوى في العام ٦٢٧ كان السريان الأرثوذكس موجودين في سائر المنطقة الجنوبيّة من مقاطعة بيث نوهادرا، من دير مار بهنام حتّى قرّه قوش وبرطلة، بما في ذلك أبرشيّة مراغة الجديدة، ومدارس ب. باني (بيبان) وب كوكي (باقاق)، ومدرسة الدير ناردوس (دير غوندي)، التي أصبحت مقرّ أسقف بيث نوهادرا، وحتّى الدير الشماليّ للقدّيس صموئيل الجبليّ وجبل سنجار.

بدأ قدوم السريان من سورية الرومانيّة إلى فارس في التاريخ الباكر للمسيحيّة. وتسرد أعمال بهنام هرب الناس من آمد الموصل خوفًا من اضطهاد جوليان المارق ٣٦٠-٣٦٣، كما حدثت أعمال إبعاد في القرون التالية.

ونظرًا إلى صعوبة الاتّصالات مع بطريركيّة أنطاكية السريانيّة الأرثوذكسيّة الموجودة آنئذٍ في غرب الفرات، نظّمت جثلقة المشرق في تكريت، التي كانت مقرّ الحاكم البيزنطيّ في شمال العراق من العام الـ٦٢٧ إلى العام الـ٦٣٧، وذلك لرعاية السريان الأرثوذكس في المنطقة وخدمتهم.

كان أوّل مفريان مار ماروثا (توفّي في العام الـ٦٤٩) المولود في بيث نوهادرا، وكان يشرف على ثلاث عشرة أسقفيّة (نينوى، بيث باعربايا، سنجار، معلثه أرزون، كومل، بيث رامان، كرمه، غوزارتا من أعمال قردو، بيث نوهادرا، بيروز شابور، شيا رزور والعرب من البدو الرحّل التغالبة). وأوجد المزيد من الأسقفيّات في زارانغ (في إيران اليوم)، وكذلك في حيرات وأبراه (في أفغانستان اليوم)، وفي أذربيجان. وهذا يعطي فكرة جيّدة عن المدى الذي وصلت إليه كنيسة السريان الأرثوذكس في فارس في أوائل القرن السابع.

في العام الـ٦٣٧، وبعد الفتح العربيّ، وضعت حدود جديدة، وكانت تلك نهاية المملكة الفارسيّة الساسانيّة. وفي العام الـ٧٥٩ كان هناك أسقف سريانيّ أرثوذكسيّ واحد فقط في الموصل وسنجار. وتمّ تأسيس بغداد في العام الـ٧٦٢.

وفي العام الـ٩٩١ وبأمر من الخليفة اعتُمدت مدينة تكريت مقرًّا للسريان الأرثوذكس.

كان هناك عدد السريان الأرثوذكس في المقاطعات الشرقيّة أكبر ممّا كان عليه في المقاطعات الغربيّة، خلال غزوات العرب والمغول لبلاد فارس، والتي أبعد خلالها الغزاة العديد من السريان الأرثوذكس. ومنذ العام الـ٩٣٥ وحتّى العام الـ١٣٤٥ كانت توجد أربع عشرة أسقفيّة يديرها المفارنة. إلاّ أنّه لم يبق أحد من السريان الأرثوذكس بعد العام الـ١٥٨٠ في أذربيجان، بعد أن سباها تيمورلنك وبعد الطاعون الأسود.

وفي العام الـ١٠٨٩ هدم العرب تكريت خلال ثورة ضدّ الحاكم

الفارسيّ. فانتقل المفريان يوحنّا صليبا إلى الموصل. ثمّ عاد المفريان ديونيسيوس (١١١٢-١١٣٤) إلى تكريت. وبعد أن هدم الخليفة المكتفي تكريت مرّة أخرى في العام الـ١١٥٦، نُقل مركز المفريانيّة نهائيًّا إلى الموصل. وأطلق العرب على المدينة اسم الموصل، الذي يعني نقطة اتّصال.

في العام الـ١١٥٢ اتّحد كرسيّا الموصل وتكريت وأصبح لقب المفريان «متروبوليت الموصل ونينوى». وبين العامين الـ١١٥٣ والـ١١٥٥ نظّمت أبرشيّة الموصل، وشملت الموصل وتكريت ودير مار متّى وأصبح دير مار متّى مقرّ المفريان. ووصلت سلطتها بعيدًا باتّجاه الشرق حتّى أورميا وتبريز (وكلا المكانين اليوم في شمال غرب إيران)، والجنوب حتّى بغداد. وكانت تبريز العاصمة تحت حكم آخر الخلفاء العبّاسيّين وملوك المغول كما أضحت مقرّ أبرشيّة السريان الأرثوذكس قبل العام الـ١٢٦٤ على الأرجح.

في العام الـ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد وكان لأوّل الملوك المغوليّين زوجات مسيحيّات آشوريّات. وفي العام الـ١٢٦٢ يتحدّث ابن العبريّ عن تشييد كنيسة سريانيّة أرثوذكسيّة في أربيل، مركز حدياب وهي مدينة قديمة جدًّا. ويُعتبر القرن الثالث عشر حقبة ذهبيّة للسريان الأرثوذكس في الموصل وما جاورها، ويرجع ذلك إلى شخصيّة المفريان يوحنّا ابن العبريّ. وفي العام الـ١٣٩٤ هدم تيمورلنك تكريت. ومنذ العام الـ١٥٦٦ وحتّى الـ١٧٧٧ أصبح دير مار بهنام الشهير مقرّ أبرشيّة مار بهنام وقره قوش. وفي القرن الثامن عشر أصبحت مدينة الموصل وديرا مار متّى ومار بهنام أبرشيّة واحدة، حتّى الانفصال في

العام الـ١٧٩٣. وفي القرن التاسع عشر بقيت هناك على ما يبدو أبرشيّتان: الموصل، ودير مار متّى ولهما سلطة على بعض القرى في الجوار مثل قره قوش وبرطلة وبعشيقة وبحزاني. وفي العام الـ١٨٣٩ استولى السريان الكاثوليك على الدير مع مقام الشهيد بهنام، قرب قره قوش. وفي العام الـ١٨٥٩، في عهد مار باسيليوس بهنام الرابع ما عاد لمفريانيّة المشرق وجود. وحتّى منتصف القرن التاسع عشر كانت الموصل تحت إمرة الباشاويّة في بغداد في الأمبراطوريّة العثمانيّة ولم تصبح عاصمة مقاطعة أو ولاية إلاّ بعد العام الـ١٨٧١.

كان هناك وجود عثمانيّ في العراق من العام الـ١٦٥٨ حتّى نحو العامين الـ١٩١٧ والـ١٩١٨.

ويوجد اليوم في العراق ثلاث أبرشيّات سريانيّة أرثوذكسيّة يرعى مار سويريوس جميل حاوا المؤمنين في بغداد والبصرة، كما يرعى مار غريغوريوس صليبا شمعون المؤمنين في الموصل، ومار ذيوسقوروس لوقا شعيا رئيس دير مار متّى القرى حول الدير. وهناك أربعة أساقفة عراقيّين آخرين هم مار سويريوس إسحق ساكا وهو مدرّس في إكليريكيّة الموصل، ومار بهنام ججاوي هو متقاعد، ومار فيلكسينوس متّى الذي يعيش في العطشانة في لبنان وهو مطران المؤسّسات السريانيّة هناك، ومار طيمثاوس أفرام عبّودي النائب البطريركيّ في كندا. أمّا البطريركان الأخيران والبطريرك الحاليّ فهم أيضًا من أصل عراقيّ.

هناك ما يربو على ثلاثين كنيسة ونحو ثلاثين كاهنًا في العراق بأسره.

يتركّز السريان الأرثوذكس في شمال العراق في مدينة الموصل وما جاورها. وهناك نحو ثماني كنائس ناشطة وعشرة كهنة في خمس قرى قرب الموصل، هي برطلة، بعشيقة، بحزاني، قره قوش وميركي يسكنها سريان أرثوذكس متعلّقون كثيرًا بالتقاليد. ففي برطلة وقره قوش ما زالوا يتكلّمون السورث، وهي لهجة سريانيّة. وهناك سبع كنائس في مدينة الموصل. وأقدم كنيسة هي باسم القدّيس توما الرسول الذي هدى الناس هنا قبل ذهابه إلى الهند بحسب التقليد. وبعض رفاته محفوظ هنا. وهناك أضرحة بطريرك ومطارنة وكهنة في الكنيسة. كما أنّ هناك كنيستين باسم العذراء. تقع إحداهما في المدينة القديمة، وتُدعى الطاهرة الداخليّة، أي السيّدة الطاهرة داخل المدينة، وتُدعى أيضًا الطاهرة القلعة، وتمّ تجديدها في العام الـ١٩٧٢. وأصبحت الآن كنيسة القدّيسة مريم أو الطاهرة الخارجيّة، المسمّاة كذلك نظرًا إلى كونها خارج المدينة، مقرًّا للمدرسة الإكليريكيّة. وفي العام الـ١٩٤٠ اكتشف العديد من رفات القدّيسين فيها، وهو الآن محفوظ في بيت القدّيسين (بيث قاديشي) الذي يقع بين كنيسة القدّيسة مريم والمدرسة الإكليريكيّة، عند مدخل كنيسة القدّيس كوركيس تمامًا.

أمّا كنيسة مار أحودمّه فهي مسمّاة باسم الأسقف الذي استشهد في العام الـ٥٧٥. وكانت اشتهرت بعجائب شفاء حصلت عندما شرب الناس الماء من البئر الذي ما زال يُرى في باحة الكنيسة.

بنيت كنيسة القدّيس يوسف الجديدة في مدينة الموصل في العام الـ١٩٥٩. وأصيبت بأضرار من جرّاء القصف الأميركيّ في العام الـ١٩٩٠.

وفي العام الـ١٩٧٧ بُنيت كنيسة القدّيس مار أفرام السريانيّ وهي أكبر كنيسة في الموصل. ويقربها مقرّ أبرشيّة الموصل، ومسكن المطران، مع غرف للزوّار، وقاعة كبرى للاجتماعات ومكتبة، ومدرسة لاهوتيّة ومركز للعلمانيّين.

تشمل أبرشيّة الموصل قره قوش وسنجار وتميم وكركوك. وهناك سبعون عائلة في سنجار، وكنيسة واحدة، وكاهن واحد. أمّا في كركوك فهناك مئة وخمسون عائلة، وكنيسة واحدة، وكاهن واحد. كما تعيش في إربيل والسليمانيّة الواقعتين في الإقليم الكرديّ، بضع عائلات سريانيّة أرثوذكسيّة بدون كاهن.

وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الجنوب الشرقيّ من الموصل تقع بلدة قره قوش الصغيرة التي كانت قريبة من دير مار بهنام. ويقول الأبّ الدومنيكانيّ جان فييّ بأنّ هذا المكان السريانيّ الأرثوذكسيّ القديم يعطي الانطباع بالبساطة والصمود والإخلاص الدينيّ. وكلمة قره قوش تعني باللغة التركيّة «الطير الأسود». إلاّ أنّ المكان ما زال يُدعى بلهجة سورث بيت خديدا أو بلخديدا أي «بيت الآلهة». وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر جاء المسيحيّون السريان إليها من تكريت. وفي العام الـ١٨٧١ استولى الكاثوليك على بعض الكنائس. وتوجد اليوم أربع كنائس كاثوليكيّة وأربع كنائس سريانيّة أرثوذكسيّة. ومؤخّرًا كان يعيش هناك نحو مئة وستّ عائلات سريانيّة أرثوذكسيّة وكاهن واحد.

وللكنيسة باسم القدّيسة شموني وأولادها السبعة (المساوية في اليونانيّة لسولوموني)، باب للمذبح منحوت جميل. وتصف جيرترود

بيل الوجه النسائيّ الجالس المتصلّب الساقين والممدود اليدين بين اليدين عند عتبة الباب العليا. والقديسة شموني وأبناؤها الشهداء السبعة، المكابيّون، قدّيسون مشهورون في المنطقة. ويُقال إنّهم يظهرون على جدار داخل الكنيسة كلّ عام، يوم عيدهم، في الخامس عشر من تشرين الأوّل. ويُقال إنّ النساء اللواتي يرغبن بطفل أو لديهنّ رغبة أخرى يلقين بمناديلهنّ فتلتصق بالجدار إذا ما استجيبت أمنياتهنّ. وبناء على رواية يوحنّا الديلميّ كانت كنيسة القدّيس سرجيوس وباخوس الكنيسة الأولى التي بُنيت في قره قوش. وعند المدخل إلى اليسار تستعيد كتابة نقوشة ذكرى ترميم الكنيسة الذي حصل في العام الـ١٨٤٣، بفضل تبرّع مريم، زوجة الكاهن المتقدّم في الكهنوت يلدا، وجرى ترميمها لآخر مرّة في العام الـ١٩٨٢.

بنى يوحنّا الديلميّ الدير الأثريّ المسمّى باسمه. وهو مدفون فيه. ويذكر ابن العبريّ أنّ المكان كان ديرًا للراهبات في العام الـ١٢٦١، ورُمّمت الكنيسة في العام الـ١٩٩٧.

من المعروف أنّ كنيسة القدّيس كوركيس الأثريّة رُمّمت في العام الـ١٨٣٣، إلاّ أنّها مهدّمة الآن.

في القرن السابع عشر ذهب المفريان يلدا القره قوشيّ إلى الهند حيث توفّي بعد ثلاثة عشر يومًا. ويعتبر المسيحيّون وغير المسيحيّين ضريحه مكانًا مقدّسًا في كيرالا نظرًا إلى المعجزات التي تحصل فيه حتّى هذا اليوم.

في زمن بعثات الأب الدومنيكانيّ فييّ، كان يمكن رؤية آثار

أخرى لأديرة وكنائس حول قره قوش.

وتشمل أبرشيّة دير مار متّى بلدات برطلة، وبعشيقة، وبحزاني، وتضمّ سبع كنائس في الأماكن الثلاثة. وفي ميركي هناك كنيسة واحدة وبضع عائلات.

تقع برطلة على بعد نحو خمسة عشر كيلومترًا من الموصل في منتصف الطريق إلى دير مار متّى الذي ارتبط معها على الدوام بربط متينة. وهي موقع سريانيّ أرثوذكسيّ قديم. ويتحدّث تاريخ مار ماروثا عن مدرسة الكنيسة فيها. كان العلاّمة الشهير مار سويريوس يعقوب بن شاقو، أسقف دير مار متّى وأذربيجان من العام الـ١٢٣٢ حتّى الـ١٢٤١ من مواليد برطلة، وكذلك غريغوريوس يوحنّا (توفيَ قبل العام الـ١٢٦٩)، أسقف أذربيجان. عاش أكثر الملافنة شهرة، غريغوريوس يوحنّا أبو الفرج أو ابن العبريّ، (١٢٦٤-١٢٨٦) على الأغلب في دير مار متّى، إلاّ أنّه رعى أيضًا برطلة. وكتب البطريرك إغناطيوس يعقوب الثالث عن البطاركة السريان الأرثوذكس الذين يرجع أصلهم إلى برطلة، كما وضع البطريرك برصوم لائحة بالخطّاطين والأطبّاء المشهورين فيها.

وهناك اليوم كنيستان سريانيّتان في برطلة: كنيسة القدّيسة مريم العذراء التي تبدو اليوم جديدة، إلاّ أنّ تاريخها موثّق في المخطوطات التي ترجع إلى القرن الخامس عشر، وكنيسة القدّيسة شموني التي تحتوي على رفات مار أحودمّه ومار يوحنّا ابن النجّارين. ويمكن للمرء أن يرى فيها جرنًا للمعموديّة يعود تاريخه إلى العام الـ١٣٤٣.

قامت في برطلة كنائس وأديرة أثريّة أخرى، لكنّها غير مرئيّة

اليوم، بيد أنّ موقع بعضها ما زال في الذاكرة عبر صليب بسيط موضوع على بناء صغير مربّع. أحدها هو دير الأربعين شهيدًا. وآخر دير يوحنّا ابن النجّارين، الذي نَقَل رفاته إليه من بيت آغر المفريان ابن العبريّ. ثمّ نُقل رفاته إلى كنيسة القدّيسة شموني. ونعلم أنّ ابن العبريّ طلب من فنّان من القسطنطينيّة تزيين كنيسة ذلك الدير من العام الـ١٢٨٢ إلى الـ١٢٨٥. وفي ذلك الوقت كان بالإمكان رؤية تماثيل للخلاص، ومركبة حزقيال، والأنبياء، والإنجيليّين الأربعة، وخلف المذبح، العذراء محاطة ببعض آباء الكنيسة.

كانت كنيسة ستّنا السيّدة، أي «سيّدتنا السيدة»، قرب كنيسة مار شموني، قريبة من كنيسة مار أحودمّه حيث كانت صومعة المفريان. ويُقال إنّ عمودًا من نار كان يظهر في بعض الليالي من العام الـ١٩٣٩ في موقع كنيسة مار أحودمّه السابقة حيث اكتشفت أضرحة ثلاثة أساقفة، ونُقل رفاتهم إلى كنيسة القدّيسة شموني الجديدة في برطلة.

ويذكر البطريرك برصوم في كتابه، لمحة عن تاريخ الأمّة السريانيّة في العراق (١٩٣٦) والمطران بولس بهنام في مجلّة لسان المشرق اسمَي هاتين الكنيستين.

تقع بعشيقة على بعد واحد وعشرين كيلومترًا إلى الشمال الشرقيّ من الموصل وعلى بعد أحد عشر كيلومترًا إلى الشمال الغربيّ من برطلة، و٣٠٪ من سكانها هم من السريان الأرثوذكس ويعدّون نحو ٢٨٠ عائلة. قام صبروي بتأسيس مدرسة شهيرة فيها نحو العام الـ٦٣٠. أمّا اليوم فإنّ ٦٥٪ من السكّان هم من اليزيديّين، الذين يعبدون الله السامي والصالح، وآلهة ثانويّة يرأسها ملك طاووس

صانع الشرّ. رُممّت الكنيسة في العام الـ١٨٩٠ وأعيد ترميمها في العام الـ١٩٨٩.

وفي قرية بخزاني، التي تبعد كيلومترًا ونصف الكيلومتر عن بعشيقة، السكّان هم من اليزيديّين والسريان الأرثوذكس الذين لهم كنيسة باسم القدّيس كوركيس، التي أعيد بناؤها في العام الـ١٨٤٤، وتمّ ترميمها في العام الـ١٩٤٩ وأعيد الترميم في العامين الـ١٩٨١ والـ١٩٩٧.

وعند سفح دير مار متّى تقع قرية ميركي التي يقطنها سريان أرثوذكس. وفيها كنيسة باسم مار زكّا. اعتاد الحجّاج المشي صعودًا نحو دير مار متّى في طريق متعرّج معروف بالـطبّكي. أمّا قرية مغارة المجاورة، ففيها كنيسة مسمّاة باسم الرسول يعقوب وهي مهدّمة كليًّا.

اليوم تخلو تكريت من السريان الأرثوذكس، ولكن مؤخّرًا أعيد اكتشاف كنائس أثريّة فيها، مع كتابات سريانيّة منقوشة على الحجارة.

في بغداد حاليًّا ستّ كنائس للسريان الأرثوذكس، الذين أقام أساقفتهم فيها منذ العام الـ٨١٨ وحتّى العام الـ١٢٦٥. وفي العام الـ١٩٤٣ بُنيت كنيسة سريانيّة أرثوذكسيّة جديدة باسم العذراء. وفي العام الـ١٩٦٢ أعيد إنشاء الأبرشيّة وانتُخب مار غريغوريوس بولس بهنام رئيس أساقفة لبغداد. وتبعه مار سويريوس زكّا عيواص، البطريرك الحاليّ، من العام الـ١٩٧٠ إلى الـ١٩٨٠. بُنيت كاتدرائيّة مار بطرس وبولس في العام الـ١٩٦٤. وهناك كنيسة جديدة باسم مار بهنام.

أمّا في البصرة، في جنوب العراق، فشُيّدت كنيسة باسم العذراء في العام الـ١٩٣٣. اعتاد الناس الإبحار من البصرة إلى الهند في قديم الزمان. وكان الأب توما صوفيًا كاهنًا يخدم البصرة والكويت لمدّة سبعة عشر عامًا وهو الآن يخدم في كاتدرائيّة مار بطرس وبولس في بغداد.

وفي الكويت أنشئت أوّل رعيّة سريانيّة أرثوذكسيّة لبطريركيّة أنطاكية في العام الـ١٩٥٩. لكن غادر نصف العائلات المائة الكويت والبصرة بعد حرب الخليج العام الـ١٩٩٠.

في العام الـ١٩٩٦ ضمّت المدرسة الإكليريكيّة في الموصل ستّة عشر طالبًا في اللاهوت، من بينهم أساتذة، ومهندسون، ومحامون، وأطبّاء يمكثون في المدرسة الإكليريكيّة لمدّة أربع سنوات يتمّ فيها تدريبهم ليصبحوا كهنة في العراق. ويجري التعليم الدينيّ عبر مدرسة الأحد، وخلال العطلة الصيفيّة، حيث يتدرّب الشباب في الكنيسة على دراسة اللغة السريانيّة، وتاريخ الكنيسة واللاهوت، في مختلف المدن وبخاصّة في الموصل.

وفي بغداد والموصل مجموعات ناشطة من الشبيبة المثقّفة الذين يساعدون الآخرين. وفي معظم الكنائس تُرتّل الشمّاسات ويقمن بالقراءة. وما زال بالإمكان رؤية بعض السيّدات المسنّات يرتدين العباءة أو الخمار الأسود فوق ملابسهنّ عند قدومهنّ إلى الكنيسة.

كانت قره قوش قرية سريانيّة أرثوذكسيّة نموذجيّة حتّى مجيء البعثات التبشيريّة الكاثوليكيّة في القرن الثامن عشر، والتي استولت على الكنائس العائدة للسريان الأرثوذكس. وانضمّ بعض السريان

الأرثوذكس إلى الكثلكة وبخاصّة الفقراء بينهم. بقيت عائلة كولان من قره قوش التي ينحدر منها المطران غريغوريوس بولس بهنام، على إيمانها السريانيّ الأرثوذكسيّ حتّى اليوم. وما زال الكاهن السريانيّ الأرثوذكسيّ الذي يخدم في قره قوش اليوم ينحدر من العائلة ذاتها.

الملحق رقم ٤

تنظيم الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وحياتها في لبنان

في العام الـ١٩٩٦ كان يعيش في لبنان نحو ثلاثين ألف سريانيّ أرثوذكسيّ، لهم تسع كنائس وعشرة كهنة. وحياة الكنيسة منظّمة على نحو غيرها من الكنائس في كلّ الأمكنة الأخرى، مدارس ومدارس أحد وكشّاف وحركات الشبيبة وجمعيّات السيّدات والمدارس الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة تحت رعاية الكنيسة.

في أوائل المسيحيّة، كان لبنان الحديث جزءًا من مقاطعة سورية الرومانيّة، وتحت سلطة بطريركيّة أنطاكية. وكان العديد من سكّانه من أصول آراميّة ويتكلّمون السريانيّة. وبعد انشقاق العام الـ٤٥١ عاش سريان أرثوذكس في تلك المنطقة حتّى نهاية القرن السادس عشر، كما أنّ بعض القرى كانت سريانيّة أرثوذكسيّة بأكملها، مثل حردين في جبل لبنان. ثمّ تحوّل بعض السريان الأرثوذكس إلى الكنيسة المارونيّة ورحل الآخرون بسبب الاضطهادات المارونيّة. وبعد حركات التمرّد في القرن التاسع عشر في سورية (حلب ودمشق)، انتقل السريان الأرثوذكس إلى زحلة وبيروت. وبعد اضطهاد العام الـ١٨٩٥ في الجزء الشرقيّ من تركيا الحديثة، وبخاصّة حول دياربكر، وبعد المذبحة الجماعيّة العثمانيّة (١٩١٤-١٩١٨)، هرب العديد من السريان الأرثوذكس إلى سورية، ومن هناك انتقل البعض إلى لبنان حيث أسّسوا تجمّعات بشكل رئيس في زحلة والمصيطبة، وهي منطقة في بيروت. وأنشئت أبرشيّة منذ العام الـ١٩١٨ لسورية ولبنان معًا، ومقرّها في حمص وعلى

رأسها المطران مار سويريوس أفرام برصوم. ومنذ العام الـ١٩٢٠ صار لبنان تحت الانتداب الفرنسيّ حتّى العام الـ١٩٤٣. ووصل إليه في العام الـ١٩٢١ اللاجئون السريان الأرثوذكس من كيليكية.

في العام الـ١٩٢٢ زار البطريرك إلياس الثالث المؤمنين في كنيسته في بيروت. وعندما انتخب المطران أفرام برصوم بطريركًا في العام الـ١٩٣٣، جُعلت أبرشيّة بيروت، بما فيها دمشق وزحلة، مطرانيّة للمطران مار يوحنّا كندور، ومقرّها في المصيطبة حيث شُيّدت كنيسة القدّيسين بطرس وبولس مع مدرسة أيضًا. وفي العام الـ١٩٥٠ انتخب مطران جديد للبنان (بيروت، زحلة، جبل لبنان وطرابلس) يرعى أيضًا العائلات السريانيّة في دمشق، وكان اسمه مار سويريوس يعقوب، ورُسم بطريركًا في العام الـ١٩٥٧ باسم إغناطيوس يعقوب الثالث، وعُيّن مطران جديد للبنان، هو مار ذيونيسيوس بهنام ججاوي في العام الـ١٩٥٩.

أمّا مقرّ إقامة المطران في بيروت فهو في المصيطبة، في جوار كنيسة القدّيسين بطرس وبولس، حيث تقع المكاتب والمدرسة. وهناك كنائس أخرى في هذه الأبرشيّة.

وفي الأشرفية بُنيت كنيسة جديدة باسم مار أفرام في العام الـ١٩٩٣، ومنذ العام الـ١٩٨٠ ضمّت زحلة إلى أبرشيّة بيروت التي كانت مقرًّا للمدرسة الإكليريكيّة، بشكل متقطّع من العام الـ١٩٣٩ إلى العام الـ١٩٤٤. وهناك كنيستان، إحداهما كنيسة القدّيس جرجس التي بُنيت في العام الـ١٩٢٥ وأضيفت إليها مدرسة في العام الـ١٩٣٤.

وعندما ازداد عدد السريان الأرثوذكس في لبنان، أنشأ البطريرك مار إغناطيوس يعقوب الثالث أبرشيّة جبل لبنان في العام الـ١٩٧٣.

وفي العام الـ١٩٨١ رُسم الأب جورج صليبا مطرانًا للأبرشيّة. وفي العام الـ١٩٨٣ شيّد كنيسة القدّيس يعقوب السروجيّ، ومكاتب الأسقفيّة في البوشريّة، المجاورة لبيروت. وتعيش اليوم غالبيّة المؤمنين اللبنانيّين من السريان الأرثوذكس في أبرشيّة جبل لبنان.

تعيش نحو أربعمائة عائلة في عجلتون، حيث شيّدت كنيسة مار كبرئيل ومركز سريانيّ أرثوذكسيّ للنشاطات، بخاصّة من أجل الشبيبة.

أمّا الميتم الذي أسس في أضنة في العام الـ١٩١٩ فنُقل إلى بيروت في العام الـ١٩٢٣ وإلى العطشانة في الجبل فوق بيروت في العام الـ١٩٦٨. ويشرف المطران فيلكسينوس متّى شمعون الآن على هذا الميتم للصبيان وعلى بيت المسنّين، وكلاهما مجاور لرهبنة القدّيس يعقوب البرادعيّ، حيث تُقام رياضات روحيّة.

وفي طرابلس شيّدت كنيسة القدّيس أفرام في العام الـ١٩٥٨. وليس للسريان الأرثوذكس نائب خاصّ بهم في البرلمان اللبنانيّ، إلاّ أنّه يوجد نائب يمثّل الأقلّيّات الستّ التالية: السريان الأرثوذكس، السريان الكاثوليك، الآشوريّين، الكلدان، اللاتين والأقباط. وكان النائب السابق، الدكتور أسمر أسمر، سريانيًّا أرثوذكسيًّا، وكذلك النائب جميل شمّاس الذي انتخب في تشرين الأوّل العام الـ١٩٩٦.

قبل بدء الحرب الأهليّة في العام الـ١٩٧٥، كان يوجد في لبنان

نحو ٦٥٠٠٠ من السريان الأرثوذكس. ولكن بعد العام الـ١٩٧٥، هاجر أقلّ من نصفهم إلى كندا، وأستراليا ومعظمهم إلى السويد حيث يتيح الدستور الترحيب بالناس الذين لا دولة لهم. وتلك كانت بشكل خاصّ حال السريان الأرثوذكس الذين لم تكن لديهم جوازات سفر إطلاقًا، منذ أن غادرت عائلاتهم تركيا. وأثناء الحرب كان على الأساقفة والكهنة مساعدة الناس ودعمهم على التغلّب على الأوضاع المأساويّة الشديدة الخطورة.

في التسعينات من القرن العشرين عاد بعض السريان الأرثوذكس إلى لبنان بعد أن بدأت عمليّة إعادة البناء. ومن بينهم الأبّ جورج سفر الذي يعمل الآن في أبرشيّة جبل لبنان. وُلد في بيروت، ويرجع أصل عائلته إلى تركيا، قرب مديات، غادرها في العام الـ١٩٣٩ وذهب أوّلًا إلى القامشلي، ثمّ إلى بيروت للعمل. بعد ذلك عاش الأب جورج في الولايات المتّحدة الأميركيّة وفي فنزويلا. وبعد أن ظلّ إيبوذياكون ثلاثين عامًا، عاد إلى بيروت ليرسم كاهنًا ويساعد على إعادة بناء رعيّة كنيسته بعد الحرب وخدمة شعبه. يؤمن الأب جورج بأنّ المسيح وُلد في هذه المنطقة، وعلى شعبه أن يستمرّ في اتّباع تعليم المسيح هنا. وتحدث إليّ قائلًا: «علينا أن نُظهر أنّنا ما زلنا أحياء. فإن أردنا ألّا نفقد تقليدنا المسيحيّ السريانيّ القديم، على الكاهن أن يكون القدوة. تعني المسيحيّة المحبّة والسلام والتضحية. عليك أوّلًا أن تواسي الناس جسديًّا حتّى تستطيع أن تعلّمهم روحيًّا. ولكي يكون بمقدور المرء الإبقاء على التوازن بين التقليد والحياة العصريّة، عليه أن يدرس كثيرًا».

وفي بيروت كان لي لقاء روحيّ مجْدٍ مع جرّاح اسمه د. ملكو

دنيا. جاءت عائلته من قرية تركيّة قرب ماردين، تُدعى قلث، هاجرت منها كلّ العائلات إلى لبنان بعد المذبحة الجماعيّة. درس د. ملكو وهو فتى صغير في مدرسة السريان الأرثوذكس في المصيطبة، حيث يتذكّر بسعادة أنّ التلاميذ أعتادوا الصلاة ثلاث مرّات في اليوم وعاشوا تقريبًا كما في الدير. وأعتادوا أن يتعلّموا اللغة السريانيّة والتقليد السريانيّ، وحياة الآباء السريان والشهداء الأبطال الذين ضحّوا بحياتهم من أجل المسيح، كما أعتادوا أن يصوموا، ويسمعوا قصصًا عن الرهبان الذين كانوا يصلّون طوال الليل. أثّر كلّ هذا فيه إلى حدٍّ كبير. وكان يشعر كيافع بأنّ عليه أن يكون مترسّخًا بشكل أكبر وأكبر في كنيسته خادمًا ومبشّرًا.

وبعد القرار المجمعيّ العام الـ١٩٨١ حول التعليم الدينيّ للعلمانيّين، أعيد تنظيم مجموعات الدراسة. وأصبح الدكتور دنيا مسؤولًا عنها وعن حركة الشبيبة في جميع أنحاء لبنان، كما أنّه يحضر اللقاءات في الرعايا المختلفة. ويقوم الناس في تلك اللقاءات بالصلاة ودراسة الكتاب المقدّس. كما تُنظّم رياضات روحيّة ثلاث أو أربع مرّات في العام.

ويبدي الدكتور ملاحظته بالقول إنّ إحدى المشاكل تكمن في أنّ العديد من الناس في كنيسته ما عادوا يفهمون اللغة السريانيّة، إلّا أنّ هناك الآن مجموعة تعمل لتأمين تعليم هذه اللغة. ويسعى الناس في مجموعته لفهم القدّاس الإلهيّ باللغة السريانيّة واستعمال بعض التعابير الشائعة في اللغة اليوميّة، إلّا أنّهم يحاولون أوّلًا التركيز على الإيمان، والروحانيّة وكتابات الآباء. فكيف يمكنهم نقل تلك

الروح إلى الحياة العصريّة؟ وأجابني الدكتور ملكو: «إنّه تحدٍّ كبير. فأولادنا الأربعة لا يتعلّمون في مدرسة سريانيّة أرثوذكسيّة كما فعلت أنا. ونحاول أنا وزوجتي تعليمهم التقليد السريانيّ الذي تلقّيناه، ونستعمل بعض الصلوات السريانيّة في البيت. كما أنّني أرسلهم إلى المخيم الصيفيّ الذي يدوم أسبوعًا. إلاّ أنّ اتّباع التقليد وحسب لا يكفي، ولا بدّ من أن يرتبط بمحبّة الله. هذه هي الرسالة التي تعطيها كنيستنا، وهذا ما نحاول أن نشترك به مع الناس في مجموعاتنا. والعديد من كتابات آبائنا هي ترانيم طقسيّة باللغة السريانيّة يمكننا ترتيلها في أيّ وقت، حتّى ونحن نعمل أو نقود السيارة، فتصبح جزءًا من حياتنا. لا بدّ من أن نكون راسخين في تقليدنا، وفي الوقت عينه لا بدّ لنا من مواجهة تحدّيات الحياة العصريّة. عندما قدمت عائلاتنا إلى لبنان، كانوا خاليي الوفاض. وقد عرض جدّي العمل بيديه لبناء الكنيسة بما أنّه لم يكن يملك المال للمساعدة على بناء كنيستنا في زحلة. وعملنا على شقّ طريقنا في الحياة خطوة خطوة. ولم تكن كنيستنا مدعومة من أحد. ونشكر الله الذي أبقى كنيستنا حيّة. فرغم العديد من التجارب والآلام ما زلنا على قيد الحياة وما زلنا نشهد للمسيح ورحمة الله. ويحاول اليوم بعض الناس من شعبنا العثور على هويّتهم في أجدادهم أو في السياسة، ولكن ليس في سياق الكنيسة وروحانيّتها. وفي لقاءات مجموعتنا، نحاول تشجيع شعبنا على الالتزام بالمسيح، كورثة له، متأمّلين معه فنتمجّد معه. لا بدّ من أن نتعلّم معًا كيف نطبّق، في سياق الحياة العصريّة، روحانيّة آبائنا الراسخة في القلب، وأن نعيشها ببساطة، بالخدمة والمحبّة، بالابتهالات المستمرّة إلى جميع القدّيسين. وفي أيّ حال، لا يمكن للمرء أن يفعل شيئًا من دون اهتداء شخصيّ إلى الله». وختم

بالقول: «إنّ كنيستنا راسخة الجذور، ولكنّ الحاجة دائمًا إلى قوّة الروح القدس من أجل التجديد. فنتضرّع إلى الله ليرسل روحه ثانية وثانية من أجل تجديدنا».

الملحق رقم ٥

شخصيّات روحيّة بارزة معاصرة

يُعتبر البطاركة إلياس الثالث وأفرام الأوّل ويعقوب الثالث والبطريرك الحاليّ زكّا الأوّل، بالإضافة إلى المطارنة فيلكسينوس يوحنّا دولبانيّ وغريغوريوس بولس بهنام، بعضًا من الشخصيّات البارزة التي لم تقم بإحياء تنظيم الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وحسب، بل أحيت أيضًا حياتها الثقافيّة والروحيّة في القرن العشرين. وتلهم ذكرى هؤلاء الآباء كما يلهم وجودهم الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة. وفي الواقع يذكر سائر المطارنة المعاصرين، والعديد من الكهنة والعلمانيّين التعليم الروحيّ الذي تلقّوه من هذه الشخصيّات العظيمة التي أثّرت بعمق في حياتهم. كتب بعضهم مقالات وكتبًا، ومعظمها باللغة العربيّة عن هذه الشخصيّات البارزة التي خلّدت التراث السريانيّ عبر كتاباتها العديدة وحياتها. ولا بدّ من أن يطّلع المسيحيّون الآخرون على حياة هذه الشخصيّات وتعاليمها.

المطران فيلكسينوس يوحنّا دولبانيّ

كان المطران فيلكسينوس يوحنّا دولبانيّ (١٨٨٥-١٩٦٩) آخر مطران لماردين من العام الـ١٩٤٧ وحتّى وفاته في العام الـ١٩٦٩. ففي العام الـ١٩٠٨ أصبح راهبًا في دير الزعفران. وكان علاّمة كبيرًا كتب أكثر من سبعين كتابًا. وقام بترجمات من السريانيّة إلى العربيّة والتركيّة. وكان أوّل من ترجم الليتورجيا السريانيّة الأرثوذكسيّة إلى

اللغة التركيّة من أجل الناس الذين انتقلوا إلى إسطنبول. طبع كتبه والعديد من الكتب الأخرى في الدير، كما طبع أيضًا مجلّة دوريّة تُدعى الحكمة (صوفيًا). قدّر الجميع عمله واحترموه، كما قدّروا أفعاله الصالحة واحترموها. اعتاد أن يسأل الناس «ما الأعمال الصالحة، التي فعلتموها؟ لا تكذبوا، حاولوا قول الأشياء الصالحة فكرّوا بالله». أحبّ الفقراء وساعدهم.

وهو مدفون في دير الزعفران. وفي الأسبوع السابق لوفاته، عندما رأى آخر مقالة له في المجلّة البطريركيّة، قال: «أنا لا أحبّ أن يكسر الموت قلمي، لأنّ الكنيسة وشبابنا ما زالوا بحاجة إليه، ولكن لتكن مشيئة الله».

عاش المطران جيجك معه ثلاث سنوات في ماردين وهو يتذكّره قائلاً: «كان رجلاً روحيًّا محبًّا، يصلّي دائمًا. وكان يكفي أن يراه المرء، أن يكون معه، أن يعيش معه. كنّا نعيش ونصلّي معًا. كان من رجال الله، كان قدوة حيّة. وهذا أفضل من الكلمات والأحاديث الطويلة. وأنا أخبرّ الناس عن حياته وعن تأثيره. أنجز مار غريغوريوس يوحنّا مطران حلب كتابًا عنه بعنوان دولبانيّ ناسك ماردين. وهو يتذكّر أنّ المطران دولبانيّ اعتاد أن يجلس كلّ يومٍ مع زوّاره، شارحًا لهم الإنجيل، راويًا لهم قصص آباء الكنيسة، مرتّلاً تراتيم كنسيّة، وذلك لتجنّب النميمة. ويتذكّر الأب إبراهيم من دير الزعفران أنّ المطران دولبانيّ عاش كراهب يملك القليل من المال. أحبّ الناس واعتاد أن يعلّم التواضع من طريق الحياة التي يحياها. فلم يكن يأبه للطعام أو اللباس. وعندما اشتدّ به المرض، قبل وفاته كان يُطهى له طعام خاصّ.

وسأل في ما إذا كان الصبية الذين يعيشون في الدير يأكلون الطعام ذاته، وعندما أُجيب بالنفي، أمر بأن يؤخذ طعامه للصبية وأن يؤتى له بطعامهم. ويتذكّر الملفونو عيسى كولتان الذي يقيم في دير مار كبرئيل أنّ المطران دولبانيّ قال له قبل الذهاب إلى الخدمة العسكريّة: «عليك ألاّ تنسى الصلاة. فالله يريد صلاة روحيّة من قلبك. وبمقدورك أن تصلّي دائمًا في سرّك. فعندما تفعل شيئًا صالحًا أو تقوم بشيء صالح، فهذا صلاة. علّمنا المسيح أن نصلّي طوال الوقت. وأنت لا تستطيع الصلاة طوال الوقت، إلاّ أنك تستطيع الصلاة على الدوام بالقيام بالأعمال الصالحة في مخزنك وفي عملك وخدمتك العسكريّة. فحياتك تصبح صلاةً عندما تفكّر وتعمل وتقول أشياء صالحة».

كان دولبانيّ رجلاً يتمتّع بذهن تبشيريّ. فبعد نهاية اضطهاد الأرمن والسريان الأرثوذكس في العام الـ١٩١٢، كان يقوم دائمًا برسامة الكهنة والرهبان والشمامسة، ويرسلهم إلى مناطق نائية حتّى بدليس حيث كان المؤمنون فقدوا كهنتهم ونسوا كلّ شيء عن المسيحيّة. وكان هؤلاء يقومون بتعميد العديد من السريان الأرثوذكس والأرمن الذين ما عاد لديهم كهنة، وهم يرتدون ملابس العلمانيّين. أخبرني الأستاذ س.ب.بروك: «التقيت بالمطران فيلكسينوس يوحنّا دولبانيّ مرّة، قبل بضع سنوات من وفاته، أثّر فيّ إلى حدّ كبير، كرجل ذي قداسة عظيمة وكعلاّمة لا يكلّ في خدمة الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة».

المطران غريغوريوس بولس بهنام

وُلد المطران غريغوريوس بولس بهنام (١٩١٦-١٩٦٩) في قره قوش، قرب الموصل في العراق، في عائلة كان فيها الابن الأكبر لأبيه

الكاهن. أحبّ العزلة منذ طفولته وأراد أن يكرّس حياته للكنيسة والدراسة. وعندما بلغ الثانية عشرة من العمر طلب أن يُرسل إلى المدرسة الإكليريكيّة الصغرى في دير مار متّى التي تأسّست في العام الـ١٩٢٣ (أغلقت في العام الـ١٩٤٣)، وهناك لفت انتباه البطريرك أفرام الذي أخذه إلى حمص في سورية لمدّة عام حيث درس العربيّة والفلسفة. ثمّ أرسله إلى إكليريكيّة مار أفرام في زحلة في العام الـ١٩٣٩ لتعليم اللغة السريانيّة، ثمّ عيّنه رئيسًا لها. وعندما نُقلت الإكليريكيّة إلى الموصل في العام الـ١٩٤٥، عينّ الربّان بولس بهنام مرّة أخرى رئيسًا لها، كما درّس فيها اللغة السريانيّة والأدب السريانيّ وتاريخ الكنيسة، والتفسير وعلم الوعظ والفلسفة والقانون الكنسيّ. بدأ بكتابة دائرة معارف سريانيّة. كما نصح طلابه بأن يكونوا روحانيّين متواضعين، وألاّ يأبهوا للجسد بل يهتمّوا بالنفس فقط. أسّس مجلّة تُدعى المشرق، وسمّيت لاحقًا لسان المشرق تمّ تداولها من العام الـ١٩٤٥ حتّى العام الـ١٩٥١، كتب فيها العديد من المقالات لتعليم التراث السريانيّ للأجيال الشابّة. كما نظّم لقاءات روحيّة وثقافيّة للشباب. وفي العام الـ١٩٥٢ تمّت رسامته مطرانًا على الموصل ومنحه البطريرك أفرام برصوم اسم غريغوريوس إحياءً لذكرى مار غريغوريوس يوحنّا ابن العبريّ. وفي العامين الـ١٩٥٩ والـ١٩٦٠ قضى سنة واحدة في مدرسة الاتحاد الإكليريكيّة اللاهوتيّة في نيويورك. ثمّ نُقل إلى القدس حتّى العام الـ١٩٦٢، عندما طلب إليه الشعب أن يكون مطرانًا لبغداد والبصرة. وبقي كذلك حتّى وفاته في ١٩ شباط الـ١٩٦٩. شارك في المؤتمر الأرثوذكسيّ العامّ في رودس العام الـ١٩٦١.

اعتاد المطران غريغوريوس بهنام الكتابة ساعات طويلة في كلّ

يوم وليلة. وكان شاعرًا عظيمًا، كتب أيضًا كتبًا لاهوتيّة وتعليميّة دينيّة ومسرحيّات، وكانت له أعمال في الفلسفة واللسانيّات، كما قام بالعديد من الترجمات.

ويتذكّر صهره، الأب توما صوفيّا، أنّ المطران بهنام اعتاد زيارة العائلات كما اعتادت هذه العائلات إعطاءه بعض المال الذي كان يأخذه ليذهب به إلى بيوت الفقراء، ويعطيهم إيّاه بطريقة فطنة، وذلك بإخفائه في مكان ما من البيت. شرح ذلك للأب صوفيّا قائلاً: إنّه لو جاع، فبمقدوره كمطران أن يذهب إلى أيّ مكان ليُعطى طعامًا، إلاّ أنّه كان من الصعب على الفقير أن يفعل الشيء عينه. كانت حياته بسيطة. وكان يسامح الجميع. كما أنّه ساعد العديد من اليتامى في العراق. وقال عنه بعض اليتامى بعد موته: «أصبحنا الآن بموته يتامى حقًّا، إذ اعتنى بنا منذ طفولتنا». وكان يقول أيضًا: «علينا أن نمشي على الخطى التي رسمها لنا الربّ». عندما كان طالبًا شابًّا مرض جدًّا فدفع البطريرك برصوم نفقات علاجه كلّها، وعندما شكر والده البطريرك أفرام على ذلك، أجاب البطريرك بأنّ ما أنفقه لا يساوي شيئًا، لأنّ بولس بهنام هو كنز للكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، وهو يستحقّ أكثر من أيّ مقدار من الذهب.

كتب مطران بيروت أفرام، قصيدة عن المطران غريغوريوس بولس بهنام وهو يتذكّره كخطيب وواعظ متميّز، وكشاعر وقدوة مسيحيّة صالحة. كان مخلصًا لكنيسته، أحبّ طقوسها وتقليدها، كما جعل طلاّبه يشعرون بأنّهم أصدقاء له.

ويتذكّر مطران جبل لبنان جورج صليبا أنّ المطران بهنام اعتاد

أن يطلب من طلابه أن يحافظوا على إيمانهم ومعرفتهم، لأنهم إن لم يحافظوا على تقليدهم، وإن لم يكونوا مثقفين بشكل جيّد، فلن يكونوا مؤمنين مخلصين أينما ذهبوا.

كتب كلّ من المطران إسحق ساكا والأب يوسف سعيد كتبًا على المطران بولس بهنام. وهناك نحو عشرة كتب منشورة بقلم المطران بولس بهنام وغيرها لم يُنشر بعد.

البطريرك إلياس الثالث

وُلد البطريرك الياس الثالث (١٩١٧ - ١٩٣٢) في ماردين، وأضحى راهبًا في دير الزعفران. ونظرًا إلى شخصيّته القويّة كان قادرًا على مواجهة المذابح في تركيا، وبحكمته أبقى الكنيسة حيّة، حمى شعبه وقدّم له النصح. كان أوّل مَن اعتنى بالأيتام والمحتاجين من السريان الأرثوذكس في العام الـ١٨٩٥ بعد المذابح الأولى، وقام بمثل ذلك في الموصل بعد المذابح الثانية، مقدّمًا الطعام إليهم بنفسه.

انعقد مجمع استثنائيّ في دير مار متّى في العام الـ١٩٣٠ وعلى جدول أعماله العديد من البنود المتعلّقة بروحانيّة الكنيسة التي أراد البطريرك إلياس تطبيقها. كانت إحدى أولويّاته إحلال السلام في الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة في الهند، حيث ذهب في العام الـ١٩٣٢ إلاّ أنّه مات هناك. وهو مدفون في أومللور حيث يأتي العديد من المؤمنين ليصلّوا عند ضريحه. ويحتفل العديد من المؤمنين الهنود بعيده كلّ عام في ١٢ شباط ويتلقّى العديد العون والشفاء، وكما تحدث المعجزات عند ضريحه، واعتبر قدّيسًا منذ العام الـ١٩٨٢.

مار إغناطيوس أفرام الأوّل برصوم

منذ العام الـ١٩٣٣ كان مار إغناطيوس أفرام الأوّل برصوم (١٨٨٧-١٩٥٧) بطريركًا عظيمًا كرّس كلّ حياته لكنيسته، كما كان أيضًا علاّمة كبيرًا ذائع الصيت وعضوًا في المعهد الشرقيّ لجامعة شيكاغو وعضوًا في المجمع العربيّ في دمشق. وكان يتقن سبع لغات. وُلد في الموصل ودخل دير الزعفران في العام الـ١٩٠٥. ومنذ العام الـ١٩١٣ وحتّى العام الـ١٩١٦ درس في القدس وفي باريس. وفي العام الـ١٩١٨ رُسم متروبوليتًا للبنان وسورية، ومكان إقامته في حمص. ساعد اللاجئين السريان الأرثوذكس القادمين من تركيا إلى سورية. كما شارك في مؤتمر السلام في باريس في العام الـ١٩١٩. وفي العام الـ١٩٣٩ أسّس المدرسة الإكليريكيّة اللاهوتيّة في زحلة. وضع العديد من الكتب، نذكر من أعماله الشهيرة اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانيّة، وتاريخ طورعبدين، ونزهة الأذهان أو تاريخ دير الزعفران، وكلّها مطبوعة باللغة العربيّة.

لنيافة المطران مار ملاطيوس برنابا، مطران حمص وحماه المتقاعد، الذي كان سكرتيرًا للبطريرك أفرام ذكرياته معه حيث يقول: «كان البطريرك أفرام يعرف كلّ المخطوطات السريانيّة الموجودة، والتي رآها في العديد من المكتبات الأجنبيّة الشهيرة خلال رحلاته إلى مصر، وأوروبّا والولايات المتّحدة الأميركيّة لزيارة المهاجرين من أبناء كنيستنا. كان أبًا لأبنائه. وكبطريرك في حمص اعتاد أن يجلس كلّ ليلة مع رهبانه الأربعة يتحدّث إليهم عن تاريخ الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة وعن آبائها. والعيش معه كان يشابه الحياة في دير صغير، إذ إنّ سيرته كانت مماثلة لسير القدّيسين. ورغم بساطة حياته كان

في الوقت ذاته رجلاً عظيمًا. كان يعرف كلّ الشخصيّات الرسميّة والسياسيّة، حتّى رئيس الجمهوريّة، زاره الجميع وغالبًا ما كانوا يتلقّون النصح لديه. اعتاد القول: «لا تتهافتوا على المال، فسوف يسقط عند أقدامكم». تبع حياة الآباء. وكان من المعروف أنّ بعض الناس نالوا الشفاء عبر صلواته. وضريحه موجود إلى الجهة اليسرى من المذبح في كنيسة العذراء أمّ الزنّار في حمص.

كُتبت أعمال في سيرة حياة البطريرك أفرام بالعربيّة، وضع إحداها المتروبوليت بولس بهنام (الموصل، ١٩٥٩)، كما كُتبت سيرة المتروبوليت يوحنّا إبراهيم (حلب، ١٩٩٦).

البطريرك يعقوب الثالث

وُلد البطريرك يعقوب الثالث (١٩١٢-١٩٨٠) في برطلة، في العراق، ودرس في دير مار متّى وفي حمص حيث أصبح راهبًا في العام الـ١٩١٣. وفي العام الـ١٩٣٣ أرسله البطريرك أفرام برصوم إلى مالابار في الهند. وفي العام الـ١٩٣٤ أصبح ربّانًا ومديرًا للمدرسة الإكليريكيّة في أومللور، في الهند، حتّى العام الـ١٩٤٦. ثمّ درّس في إكليريكيّة مار أفرام في الموصل. وفي العام الـ١٩٥٠ رُسم متروبوليتًا لبيروت ودمشق. وفي العام الـ١٩٥٧ نُصّب بطريركًا. عمل على مصالحة الكنيسة في الهند وعلى تعاون الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة. كان نشيطًا في تنظيم الكنيسة وإقامة أبنية جديدة، وزار المؤمنين في كنيسته في أميركا. واعظ بليغ، كتب أكثر من ثلاثين كتابًا عن تاريخ الكنيسة، وروحانيّتها وليتورجيّتها، مثل تاريخ الكنيسة حتّى القرن السادس، وتاريخ الكنيسة السريانيّة في الهند، كما كتب أيضًا دراسة مقارنة

للغتين السريانيّة والعربيّة، وكتب كذلك سيرة مار فيلكسينوس المنبجيّ ومار يعقوب السروجيّ ومار أفرام. ويتذكّر متروبوليت حلب مار غريغوريوس قائلا: «كان البطريرك يعقوب فريدًا في محبّته للكنيسة، وبرهن على ذلك عبر أعماله النشيطة حتى وفاته. جذبت طريقته الروحيّة في الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ الناس إلى حدّ كبير. وكان يشجّع على الدوام طلاب الإكليريكيّة على أن يصبحوا رهبانًا، قائلا إنّ الحياة الرهبانيّة هي أفضل طريق للاقتراب من الله». وبعد أن قام بتقديس الميرون في دير مار كبرئيل في العام الـ١٩٦٣، فاض الميرون في اليوم التالي من الوعاء الزجاجيّ وشفى الناس.

إغناطيوس زكّا الأوّل عيواص

وُلد مار إغناطيوس زكّا الأوّل عيواص، البطريرك الحاليّ، في الموصل في العراق. وكان سكرتيرًا للبطريرك الراحل يعقوب الثالث. درس اللغات الشرقيّة واللاهوت الرعويّ في نيويورك. وفي العامين الـ١٩٦٢ والـ١٩٦٣ حضر مجمع الفاتيكان الثاني كمراقب. ومنذ العام الـ١٩٦٣ كان رئيس أساقفة الموصل، ثمّ رئيس أساقفة بغداد، ثمّ انتخب بطريركًا في العام الـ١٩٨٠، ومنذ ذلك الحين عمل على تنظيم الكنيسة في جميع المجالات، بما في ذلك الكنيسة في المهجر، كما كان أبًا روحيًّا يحثّ على الدعوات الرهبانيّة والكهنوتيّة. كتب متروبوليت حلب مار غريغوريوس يوحنّا إبراهيم سيرة حياة البطريرك عيواص في كتاب: نور وعطاء.

ليس بالإمكان ذكر كلّ ما كتبه هؤلاء الأعلام في حقول اللاهوت والتاريخ والروحانيّة والفلسفة والشعر والأدب. ولا يسعنا إلاّ القول

إنّهم حذوا حذو آبائهم السريان، وألهموا العديد من الناس الحياة الروحيّة.

الملحق رقم ٦

هيكليّة الصلاة اليوميّة الرئيسة

الصلاة الاستهلاليّة الثابتة لكلّ الفروض

تحتوي على:

- التقديسات الثلاثة
- يا ربّ، أشفق علينا، يا ربّ ارحمنا واشفق علينا
- يا ربّ اقبل خدمتنا وصلواتنا، واشفق علينا.
- المجد لك يا إلهنا، المجد لك يا خالقنا، المجد لك يا رجاءنا الأبديّ.
- أبانا الذي في السموات...
- المجد للآب...

صلاة المساء (الرمش)

تحتوي على:

- الصلوات الاستهلاليّة الثابتة:
- مز ١٤٠ (١٤١)، ١٤١ (١٤٢)، ١١٨ (١١٩): ١٠٥-١١٢، ١١٦ (١١٧)، وترتّل مع عنيان (ردّة) (enyonoqonuno) تتداخل بين كلّ بيت شعر.
- (Sedre) سدر، الجزء الثاني من صلاة الحسّاية. (eqbo) عقب (دعاء يسير يلي دعاء العطر).
- (1 qolo) قال (صوت ترتيلة منظومة) مع مقاطع شعريّة من أجل والدة الإله والقدّيسين والتوبة والأموات.

– (etro) عطر (عطر دخان البخور، وهو دعاء وجيز يُتلى بعد تقديم البخور).
– (qolo) ترتيلة منظومة مع مقاطع شعريّة كما في الأعلى.
– (أيّام الآحاد والأعياد: يزاد hulolo هلّيلويا شعر تسبيح والإنجيل).
– (qouqlion) قوقليون (آيات من المزامير) (eqbo) عقب (دعاء يسير)، سدرات التوبة (qolo) قال (bo'utho) باعوث (طلبة)
– الصلوات النهائيّة الثابتة.

فروض الليل

تحتوي على:

الصلوات الاستهلاليّة الثابتة

– M'irono
– المزامير ١٣٣ (١٣٤)، ١١٨ (١١٩): ١٦٩–١٧٦، ١١٦ (١١٧)، وترتّل مع عنيان (ردّة) قانون (نظام تسبيح) متداخلة بين كلّ بيت شعريّ.
– (qawmo) (وقفة في فرض الليل) الأولى (لوالدة الإله).
– مزامير قابلة للتغيير، ترتّل مع عنيانات (ردّات).
– (eqbo) عقب (دعاء يسير) (sedro) سدر الجزء الثاني من الصلاة الحسّاية لوالدة الإله.
– (qolo) قال (quqoyo) وزن الخزّاف (أيّام الآحاد والأعياد،

تُسبق بلحن آخر، وتُتبع بمدراشين).
– (ba'outho) باعوث (طلبة) (وزن مار يعقوب).
– (qawmo) الوقفة الثانية (للقدّيسين).
– مزامير قابلة للتغيير، مع عنيانات (ردّات).
– (sedro) صلاة السدر للقدّيسين، (eqbo) عقب (دعاء يسير يلي دعاء العطر).
– (qolo) قال (qouqoyo) وزن الخزّاف) (أيّام الآحاد والأعياد، تُسبق بلحن آخر وتُتبع بمدراشين).
– (ba'outho) باعوث طلبة (وزن مار أفرام).
– (qawmo) (الوقفة الثالثة في صلاة الليل للتوبة (أيّام الاثنين والثلاثاء والخميس) أو للأموات (أيّام الأربعاء والجمعة والسبت).
– (eqbo)، (sedro)، (qolo) عقب، سدر، قال.
– (ba'outho) باعوث (طلبة) (وزن مار بالايّ).
– (sedro) سدر (نسق، الجزء الثاني من صلاة الحسّاية).
– (نشيد العذراء مورب مع عنيان (mawrbo) تعظّم نفسي الربّ...).
– المزمور ١٣٢ (١٣٣) مع ردّة عنيان.
– qolo (قال).
– المزامير ١٤٨ و ١٥٠ (يوم الأحد، الأعياد يزاد المزمور ١١٦).
– الفروض اليوميّة السبعة للقدّيس الشفيع (له).
– المزمور ٩٢: ١٣–١٦.
– (sedro) صلاة السدر، (qolo) قال (وزن (quqoyo)

(ba'outho) الباعوث.

فروض الصباح

- الصلوات الاستهلاليّة
- المزامير ٥١، ٦٣ تُرتّل مع عنيان، ردّة متداخلة بين كلّ بيت شعريّ (يوم الأحد، والأعياد تزاد أناشيد، مع ردّة عنيان)
- نشيد العذراء (مورب مع ردّة).
- المزمور ١١٣، ويرتّل مع ردّة عنيان.
- المزامير ١٤٨-١٥٠ (يوم الأحد والأعياد تزاد التطويبات، مع ردّة عنيان).
- عقب سدر.
- (qolo I) قال لحن (مع مقاطع شعريّة لوالدة الإله والقدّيسين والتوبة والأموات)
- (etro) عطر (qolo II) قال II لحن II [(يوم الأحد، والأعياد يزاد شعر تسبيح (hulolo) والإنجيل)].
- (qouqlion) قوقليون، آيات من المزامير، (eqbo) عقب، صلاة السدر للتوبة، (qolo) قال، (bo'utho) باعوث (طلبة).

الملحق رقم ٧

معاني بعض التعابير الطقسيّة

قال الأستاذ س.بروك إنّ العديد من التعابير تشير إلى أشياء مختلفة، وقد تُستعمل تعابير علّة لوصف الشيء عينه تمامًا.

A'nide: الموتى

bethgazo: بيث كاز، المخزن، وهو سجلّ للتراتيل والألحان

Ba'outho: باعوث، ويعني حرفيًّا «الطلبة» والجمع هو بواعيث: وهي ترتيلة في بيتين يمكن أن تنظم في ثلاثة أوزان مختلفة: ليعقوب السروجيّ (١٢+١٢ مقطعًا لفظيًّا)، ولأفرام (٧+٧ مقطعًا لفظيًّا) ورالبالايّ (٥+٥ مقاطع لفظيّة) وتكون عادة مقتطفة من قصائد أكثر طولاً هي (الميامر).

edono: عدّان ويعني حرفيًّا وقت / أوان، والجمع edone العدّانات / الأوقات السبعة هي الفروض اليوميّة السبعة (تعبير بديل: الفروض اليوميّة السبعة teshmeshto والجمع teshmshotho ويعني «خدمة»/ فرض أو Sho'e / الساعات.

eqbo: عقب، ويعني حرفيًّا العقب النهاية وهو مقطع شعريّ ترديديّ مفرد.

etro: عطر وهي صلاة ترافق البخور.

evangelyon: الإنجيل.

houlolo: وهو شعر تسبيح موجز يسبق قراءة الإنجيل.

housoyo: الحسّاية، ويعني حرفيًّا استغفار/غفران: وهي صلوات ترافق تقديم البخور (prooimion) / فروميون/ فاتحة الجزء الأوّل من صلاة الاستغفار.

houtomo: خُتام، وتعني حرفيًّا «الختام» الصلاة الختاميّة.

kourokho: كوراخ، ترتيلة وجيزة أو لحن يتناوب على ترتيلها الصفّان في البيعة، عنيان (ردّة) تتألّف من مقطعين شعريّين.

kouruzotho: كوروزوثا، (مناداة)، إنذار يقرأه الشمّاس، مع لازمة يردّدهما الشعب.

koushopho: وهي صلاة ابتهاليّة.

lilyo: فرض صلاة الليل.

modo': العماد.

ma'drosho: مدراش، وهي قصيدة في مقاطع شعريّة في فرض صلاة الليل لأيّام الآحاد والأعياد.

m'anitho: معنيث، وتعني حرفيًّا «الردّ» وهي ترتيلة ترداديّة، مرتبطة بالبطريرك سويريوس الأنطاكيّ.

marmitho: مرميث، صلاة وجيزة، قسم من المزامير.

maworbo: مورب، أي «تعظّم» وهو نشيد العذراء (٢) عنيان (جواب) تتداخل بين مقاطع نشيد العذراء.

mazmuro: مزمور.

mimro: ميمر، وهو قصيدة في أبيات شعريّة من مقطعين ومصدر الباعوث (انظر تحت كلمة bo'utho).

m'irono: وتعني حرفيًّا الاستيقاظ الإيقاظ: وهي صلاة بدء فرض صلاة الليل.

pethgomo: شعر، جملة يقولها الكاهن أو ينشدها ويردّد المؤمنون بعده (وتكون عادة من الكتاب المقدّس).

prooimion: فروميون، فاتحة تسبيحيّة للسدر.

qawmo: تعني حرفيًّا وقفة قسم من صلاة.

qinto: وهو لحن يتوافق مع اللحن اليونانيّ (Ikhos).

qolo: (قال) يعني حرفيًّا «صوت» أو «لحن»: (١) وهو ترتيلة منظومة (٢) لحن.

qonuno: قانون، وهو نوع من الترتيلة (ردّة) عنيان: ويمكن أن تكون yaunoyo (باليونانيّة) أي مترجمة من اليونانيّة (وتماثل الستيخيّ عندما ترافق المزامير وتماثل القانون عندما ترافق القصائد الغنائيّة، ولا تتبع هذه الأنواع وزن المقاطع اللفظيّة، كما هو طبيعيّ في الشعر السريانيّ).

qubolo: وهو الأوّل من لحنين مرتبطين مع التبخير.

quqlion: قوقليون (١) مجموعة من أربعة أبيات شعريّة مأخوذة من المزامير مع «هلّيليويا»، تُرتّل كلّ شطرين. (٢) مزامير تُرتّل مع قوقليون فيها هلّيلويا بين كلّ جملتين، ينشدهما الكاهن ويردّدهما المؤمنون بعده وتكونان عادة من الكتاب المقدّس.

qouqoyo: وهو qolo (لحن) بوزن معيّن يرتبط بسمعان الفخّاري (quqoyo).

ramsho: الرمش، فرض المساء، صلوات المساء.

sapro safro: فرض الصباح، صلوات الصباح.

sedro: السدر، وهي صلاة (وغالبًا ما تكون طويلة وذات مضمون لاهوتيّ، وترافق عادة تقديم البخور. ويسبقها الفروميون وترتبط مع العطر (etro) وغالبًا ما توصف الصلوات الثلاث معًا بالحسّاية).

shouroyo: وهي صلاة بدئيّة.

soughitho: وهي نمط من المداريش ذات مقاطع شعريّة قصيرة، وتكون أحيانًا ذات أحرف أبجديّة يشكّل مجموعها أسماء أو جملة. وقد تتّخذ أحيانًا شكل الحوار في مقاطع شعريّة متناوبة بين شخصيّات كتابيّة (الملاك ومريم، اللصّان).

soutoro: سُتار، صلاة العشاء قبل النوم.

takshefto: تخشفت، ترتيلة ابتهاليّة.

tekso: طقس كتاب الخدمة.

teshbuhto: تعني حرفيًّا تسبيح، (١) قصيدة غنائيّة (٢) ترتيلة تسبيح.

خاتمة عامّة

الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة

الكنيسة هي جزء لا يتجزّأ من حياة المسيحيّين الأرثوذكسيّين الشرقيّين، إذ كلّ ثقافتهم تأثّرت بالمسيحيّة. ورغم الصعوبات التاريخيّة، نلاحظ أنّ الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة حافظت، عبر العصور، على إبداع ثقافيّ كبير، بخاصّة في مجالات الليتورجيا والأدب والفنّ، كما حافظت هذه الكنائس، على إيمانها المسيحيّ. وسبّب ذلك لأتباعها مشقّات عديدة، حلّت مرارًا عليهم. وبرزت، في أيّامنا، مشاكل جديدة لهؤلاء المسيحيّين. في أوطانهم الأصليّة، أو في المهاجر، فإنّهم يواجهون الآن تحدّي ثقافة العلمنة المهيمنة. وعلى مَن يعيش في المهاجر أن يتصالح مع هويّته المزدوجة، هويّة البلد الذي استضافه، وهويّته الأصليّة. ومن الصعوبة بمكان إيجاد توازن بين هاتين.

واجب الكنيسة أن تستمرّ في تعليم مؤمنيها، كي يختبروا تقليد الكنيسة، على كلّ مستوياتها، وأوّلاً المستوى الروحيّ. عليها أن تجعلهم يغوصون في أعماق الروحانيّة لاكتشاف القوّة الداخليّة التي تخلقها في المرء قراءة آباء الكنيسة ورهبانها بلغات يفهمونها، وعيش الليتورجيا التي يجب تفسير معانيها السامية.... هذه اختبارات روحيّة لا بدّ لكلّ إنسان من أن يعيشها شخصيًّا. تقوّي الحياة الروحيّة قدرة التوازن في الإنسان، وتسمح له، بالوقت عينه، بأن يبقى أمينًا لتقليد كنيسته، الذي يؤسّس هذه الروحانيّة.

حافظ المسيحيّون الأرثوذكسيّون الشرقيّون القدامى على هذا التقليد بمعونة الله، خلال ألفيّتين. الكنيسة هي إذًا عمود أساس يدعم هويّتهم وغنى روحانيّتهم. وتكمن الطريقة الفضلى لفهم حياة الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة وروحانيّتها، في زيارتهم حيث يعيشون، وفي معاشرة كنائسهم وأديرتهم.

وباختصار، يعطينا الكهنة والرهبان والراهبات، وأيضًا العلمانيّون، درسًا حقيقيًّا في الحياة المسيحيّة، وشهادة مسيحيّة حيّة في ثقتهم الكلّيّة بالله، وعيشهم حسب مشيئته، هذا العيش الذي يصعب علينا، في المجتمعات الحديثة، قبوله لكثرة اتّكالنا على العقلانيّة.

علينا ألاّ ننسى الكمّ العظيم من الآلام التي مرّت بها هذه الكنائس، وما تزال، للحفاظ على إيمانها المسيحيّ.

أرجو أن يشجّع هذا الكتاب القارئ على زيارة الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة ومؤمنيها، في بلادها الأصليّة، ربّما القريبة منه، والتي ما تزال يتكاثر وجودها في جميع أنحاء العالم. وأرجو بصورة خاصّة أن يتلألأ القارئ بروحانيّتها.

القسم الثاني

الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة

المالنكارا في الهند

مقدّمة

تاريخ المسيحيّين الهنود معقّد للغاية، إذ توجد في الهند، إلى جانب السريان الأرثوذكس الذين سنتكلّم عليهم في هذا القسم، وأتباع كنيسة الشرق، الذين كانوا أوّل مسيحيّي البلاد، مجموعات مسيحيّة عديدة أخرى. دخل الهند، ابتداء من القرن الثامن عشر، عدد من الكنائس، ونشطت هذه الحركة، بخاصّة في القرن التاسع عشر. أمّا أتباع كنيسة الشرق، الذين انضمّوا لاحقًا إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، فيُدعون «السريان الملابار»، ويشكّلون أكبر مجموعة مسيحيّة في مقاطعة كيرالا، إذ يعدّون نحو ثلاثة ملايين. وانضمّ إلى الكنيسة الكاثوليكيّة أيضًا، في العام الـ١٩٣٠، عدد من السريان الأرثوذكس، بقيادة الأسقف إيفانيوس، ويُدعون «السريان المالنكارا»، ويجمعون نحو ثلاثة آلاف شخص. ويعيش أيضًا في الهند نحو خمسة عشر مليون كاثوليكيّ يتّبعون الطقس اللاتينيّ. ويمثّل الكاثوليك التابعون لكنيسة روما أكثر بقليل من نصف عدد مسيحيّي الهند.

أمّا كنيسة مار توما، التي تجمع نحو ثمانماية ألف عضو، فبدأت نشاطها في الهند، عندما تبنّى بعض السريان الأرثوذكس، إصلاحات قامت بها الكنيسة الأنكليكانيّة، في العام الـ١٨٤٣، مع حفاظهم على صلوات الطقس السريانيّ الغربيّ، بعد أن عدّلوها لتلائم الإصلاحات الجديدة.

أمّا كنيسة جنوب الهند الإنجيليّة، فتجمع نحو مليوني عضو. إضافة إلى كنائس إنجيليّة أخرى، وبعض الكنائس المستقلّة، ككنيسة

الثوزيور Thoziur، التي تأسّست في العام الـ١٧٧٢، وتتّبع التقليد السريانيّ الغربيّ.

ولا يتجاوز عدد الذين يتبعون في الهند الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ المليونين. ولأسباب قانونيّة، ينقسمون إلى كنيستين، تتّسم بالإيمان عينه، وتتّبع الخدم الليتورجيّة ذاتها، لكنّها تتبع لرئاستين كنسيّتين مختلفتين. واحدة، لها نحو مليون عضو، أو أقلّ، كما يدّعي أتباع الكنيسة الأخرى، وتتبع البطريركيّة السريانيّة الارثوذكسيّة الأنطاكيّة، ومركزها في دمشق، في سورية، والأخرى، مستقلّة تُدعى كنيسة المالنكارا السريانيّة في الهند (ولها نحو مليون عضو)، يرأسها كاثوليكوس يُقيم في ديفالوكام، في مقاطعة قطيام، في كيرالا. أمّا الهنود التابعون للبطريركيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة، فيرأسهم محلّيًا مفريان، مقرّه في بوثنكرة، في مقاطعة إيرناكولام. ويكمن الفرق بين الكاثوليكوس والمفريان أنّ الأخير، مع قدرته على رسامة الأساقفة، بعد نيل بركة البطريرك، لا يمكنه تكريس الميرون، بينما الكاثوليكوس يمكنه القيام بالأمرين معًا. ومع أنّ للكنيسة المستقلّة كاثوليكوسها الخاصّ، إلاّ أنّها تحترم البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ، وتذكر اسمه في كلّ خدمها الليتورجيّة.

ولكلٍّ من الكنيستين رعايا، بعضها يرأسها أسقف، في مناطق أخرى من الهند، خارج كيرالا، كما في بلدان أجنبيّة، بخاصّة في بلاد الخليج العربيّ، والولايات المتّحدة، وكندا، وبعض بلدان أوروبّا، حيث هاجر بعض الهنود لأسباب اقتصاديّة، خلال بضع عشرات السنين الأخيرة. وفي العام الـ١٩٩٦، كان لكنيسة المالنكارا المستقلّة، إحدى

وعشرون أبرشيّة، ارتفع عددها إلى ستّ وعشرين، في العام الـ٢٠٠٨.

تشير العبارتان مالنكارا أو مالابار إلى الاسم الجغرافيّ القديم للساحل الجنوبيّ الغربيّ للهند، والتي تؤلّف إلى الآن دولة كيرالا، التي تأسّست في العام الـ١٩٥٦، بدمج إمارات ترنفنكور وكوشين بمقاطعة مدراس، التي كانت تحت الوصاية البريطانيّة. كيرالا، منطقة وافرة الخضار، كائنة بين البحر غربًا، والجبال شرقًا، تُزرع فيها أشجار جوز الهند، التي يُستعمل ليفها في الصناعات المحلّيّة. وكذلك يوجد فيها العديد من حقول زراعة الأرزّ، ومنتوجات زراعيّة مختلفة أخرى. حُفرت فيها في الماضي قنوات لتسهيل المواصلات، ما يزال بعضها يُستعمل إلى يومنا هذا. وتُعتبر دولة كيرالا من الأكثر تقدّمًا في الهند على الصعيد الاجتماعيّ. تفوق بكثير نسبة الغبائيّة فيها نسبة إلى البلاد كلّها. يتمكّن ثمانون بالماية من سكّانها من القراءة والكتابة، بينما لا تزيد هذه النسبة، في ما تبقّى من البلاد، على الأربعين بالماية. وكذلك يُعتبر التنظيم الطبّيّ فيها من الأفضل في البلاد. ويحتلّ المسيحيّون التابعون التقليد السريانيّ الأرثوذكسيّ مراكز مرموقة في حقل الأعمال، والصناعة، والعلم، والطبّ. ويؤدّون دورًا مهمًّا في حياة البلاد، على المستويات كافّة، بما فيها المستوى السياسيّ، حيث اعتلى بعضهم مناصب حكوميّة رفيعة، أمثال رئيس الوزارة الأسبق، س. م. ستيفن، والدكتور ب. س. أليكسندر الذي كان مستشار انديرا ورجيف غاندي الخاصّ، والذي ترأس ولاية دولة ماهاراشترا، وعاصمتها بومبي. ويعيش مسيحيّو كيرالا الآن بصورة خاصّة في كزتّايام، وكوشين، وإيرناكولام، وتريفاندروم، وهي عاصمة الدولة. وتوجد في كيرالا أكبر نسبة من المسيحيّين (عشرون بالماية) في الهند

كلّها. ويمثّل مجمل المسيحيّين نحو ٣,٥ بالماية من مجموع سكّان الهند الذي يزيد على مليار نسمة. أمّا الدين الآخر الذي يجمع غالبيّة سكّان كيرالا، فهو الهندوسيّة (نحو ٨٠ بالماية من السكّان). ويوجد أيضًا فيها بعض المسلمين، والبوذيّين، وبضعة من الجائيّين (Jains). أمّا الطبقة العليا، في الهندوسيّة، فهي طبقة البراهمان الذين يعلّمون الدين الهندوسيّ.

الفصل الأوّل

التاريخ

بحسب التقليد، قام القدّيس توما، أحد الرسل الاثني عشر، بتنصير جنوب الهند. وتعتبر الجماعات المسيحيّة الهنديّة القديمة ذاتها خليفة الذين بشّرهم الرسول. لذلك يُدعون «مسيحيّي القدّيس توما».

كتب تاجر من القرن السادس، سافر إلى الهند، واسمه قوزما، والمعروف أيضًا بلقب «البحّار الهنديّ»، أنّه توجد في «البلاد حيث ينبت البهار»، أي الهند، جماعات مسيحيّة، لها أسقف، معينٌ من بلاد فارس، تصلّي باللغة السريانيّة. كان ينتمي هؤلاء المسيحيّون الهنود إلى كنيسة الشرق، أو الكنيسة الآشوريّة، ذات الطقس السريانيّ الشرقيّ.

وبقيت الجماعة المسيحيّة السريانيّة الطقس موحّدة في الملابار، إلى وصول الكاثوليك البرتغاليّين، في أوائل القرن السادس عشر، الذين بدأوا دعوة المسيحيّين المحلّيّين للالتحاق بالكنيسة اللاتينيّة. وفي العام الـ١٦٦٥، وصل إلى الهند متروبوليت تابع للكنيسة السريانيّة الأنطاكيّة.

يُروى أنّ توما الرسول وصل إلى الساحل الجنوبيّ الغربيّ من الهند، في مقاطعة كيرالا، وفي مرفأ موزيريس (واسمه الحاليّ كودونغالور أو كرنغانور)،عند مصبّ نهر بيريار، في العام الـ٥٢. ويبلغ طول المنطقة الساحليّة من الملابار خمسماية وأربعين كيلومترًا. وكانت، منذ القدم، منطقة تبادل تجاريّ بين العربيّة، والهند، والصين، إذ كانت

تصلها السفن، بخاصّة في موسم المنسون. ويقول التقليد إنّ القدّيس توما قام بتنصير عدد كبير من الهندوسيّين البراهمانيّين (أي من طبقة الكهنة)، وبعض النبلاء النيّار، المنتمين إلى طبقة العسكر، كما نصّر بعض اليهود. وتوجد اليوم مجموعة من اليهود في كيرالا. ويعتقد المسيحيّون الهنود أنّ توما الرسول أسّس سبع كنائس أصبحت مراكز مسيحيّة كبيرة الأهمّيّة. وكذلك نجد في التقليد أنّه تابع عمله التبشيريّ واصلاً إلى مالاكا، في ماليزيا، كما وصل إلى الصين. استُشهد نحو العام الـ٧٢، في ميلابور، بالقرب من مدراس، حيث دُفن. ويُدعى مكان دفنه المزعوم «جبل القدّيس توما».

يصعب تلخيص تاريخ المسيحيّة القديمة في الهند لكثرة تعقيداته. ويكمن السبب الرئيس في قلّة الوثائق عن مرحلته الأولى، إذ أتلف معظمها، نتيجة الطقس الإستوائيّ الشديد الرطوبة، أو على يد الغزاة المتتالين. لم يبق سوى بعض الصلبان المصنوعة من الغرانيت، وقطع نحاسيّة مكتوب عليها بعض الكلمات والإرشادات. أمّا الوثائق المكتوبة على ورق النخيل، فقد أتلفت جميعها على مرّ الزمن. ذكر كتاب «تعليم الرسل»، الذي وُضع، نحو العام الـ٢٥٠، أنّ توما بشّر الهند. ويذكر «تاريخ سيرت» أنّ أسقف البصرة، داود، قصد الهند، بين العام الـ٢٩٥ والعام الـ٣٠٠، بغية التبشير. كما يذكر أنّ أسقف الرها، مار يوسف، رافق إلى الهند في العام الـ٣٤٥ رجلاً اسمه توما، وأربعماية رهاو قرّروا العيش هناك. وتُظهر مصادر أخرى لاحقة أنّ الكنيسة المالنكارا كانت تابعة في البدء لكنيسة الشرق، التي كان مقرّها في صيلوقيّة قتيزيفون، في بلاد فارس.

أمّا المرجع الأوّل الموثوق به، فيخبرّ عن زيارة التاجر قوزما

«البحّار الهنديّ» إلى الهند، قادمًا من الإسكندريّة، ما بين العامين الـ٥٢٠ والـ٥٢٥. وفي العام الـ٨٢٣ يبدو أنّ أسقفين من بلاد فارس هاجرا مع مجموعة من العائلات، وحلّوا جميعًا في كيلون. ويُعرف أنّ كنيسة الشرق شهدت منذ القرن السابع، مدًّا تبشيريًّا عظيمًا باتّجاه آسيا، وأرسلت إليها مبشّرين، وصل بعضهم إلى الصين ومونغوليا. فليس من المستغرب إذًا أن تكون أوجدت أيضًا كنيسة حيّة في الهند. ويؤكّد بعض الرحّالة، من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أمثال مركو بولو، وجوردان كتالاني، وأوديريك البردينونيّ، وجان مارينيولا، ونيقولا الكونتي، وجود جماعات مسيحيّة في الهند، تابعة لكنيسة الشرق. وتشير بعض المراجع الأخرى إلى وجود أساقفة من أصل فارسيّ في الهند بين العام الـ١٤٩٠ والعام ١٥٩٩، وأيضًا في العام الـ١٧٠٨. وما تزال هذه الكنيسة في الهند، إلى أيّامنا هذه.

وصل إلى الهند، مع فاسكو دي غمّا، في العام الـ١٤٩٨، عدد من المبشّرين البرتغاليّين الكاثوليك. وسبّب مجيئهم تغييرات جسيمة في تاريخ الكنيسة الهنديّة. وجد هؤلاء مسيحيّين يستعملون نصوص كنيسة الشرق الليتورجيّة، وباللغة السريانيّة. فأرادوا توًّا «تنصير» مَن اعتبروهم هراطقة، وهدايتهم إلى كنيسة روما الكاثوليكيّة. لذلك منعوا من ذلك الحين وصول أساقفة كنيسة الشرق إلى الهند. وفي العام الـ١٥٣٣، أسّسوا أبرشيّة كاثوليكيّة في غوا، عاصمة البلاد الجديدة، ونصّبوا عليها رئيس أساقفة كاثوليكيّ، أصبح له، في العام الـ١٥٥٧، أسقف معاون، يرعى أبرشيّة جديدة في كوشين. وفي العام الـ١٥٩٩، قرّر مجمع، انعقد في ديامبر، ليتنة طقوس المسيحيّين الهنود كلّيًّا، كما أحرق معظم الكتب المكتوبة بالسريانيّة. فثار بعض المسيحيّين

الهنود، وحلفوا جهارة، في العام الـ١٦٥٣، في ماتنتشيري، بالقرب من كوشين، ألاّ يخضعوا مجدّدًا للسلطة الكاثوليكيّة. ويُشار إلى هذه الحادثة باسم «وعد صليب كونين». ولا بدّ من ذكر أنّ رجلاً اسمه أهاتولا وصل الهند، قبل هذا «الوعد»، ما برح أن سُجن وقُتل. وكان مقتله السبب المباشر لثورة كونين. عندها، أرسل المسيحيّون الهنود عددًا من الرسائل لأساقفة الكنائس الشرقيّة المختلفة، طالبين المعونة. فأرسل إليهم البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ، متروبوليت القدس، مار غريغوريوس (المتوفّى في العام الـ١٦٧٢)، الذي وصل إلى كوشين في العام الـ١٦٦٥، ورسم أسقفًا شرعيًّا، مار توما الأوّل، الذي مات في العام الـ١٦٧٣. وتواصلت منذ ذلك الوقت العلاقات مع الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، وأُدخلت ليتورجيّتها وتعاليمها في خِدم المسيحيّين المحلّيّين. وفي العام الـ١٧٠٨، وصل إلى الهند المتروبوليت مار جبرائيل، مرسلاً من بطريرك كنيسة الشرق، ليُعيد القطيع إلى أمّه، لكن لم يرض المطران المحلّيّ، مار توما الرابع (١٦٨٨ - ١٧٢٨). وفي العام الـ١٧٥١، أرسل البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ ثلاثة أساقفة إلى الهند. ورسم أحدهم، مار غريغوريوس، في العام الـ١٧٧٢، هنديًّا اسمه مار توما السادس (الذي توفي في العام الـ١٨٠٨) إلى رئاسة الكهنوت، معطيًا إيّاه اسم مار ذيونيسيوس الأوّل.

منذ أيّام الإسلام الأولى، وُجد تجّار مسلمون في كيرالا، لكن لم ينتشر الإسلام فيها، قبل القرن الثاني عشر. واحتلّ تيبّو، سلطان ميزور المسلم، بين العامين الـ١٧٨٠ والـ١٧٩٢، منطقتي ترافنكور وكوشين الهنديّتين، وقتل مسيحيّين، كما أحرق عددًا من الكنائس. فنُقل على الأثر مقرّ الكنيسة من أنكامالي إلى قطيام.

وفي المرحلة الزمنيّة، الممتدّة بين العام الـ١٦٦١ والعام الـ١٦٦٣، احتلّ الهولنديّون بدورهم مدن كيلون، وكرنغانور، وكوشين، وكانوا من الإنجيليّين الكلوينيّين. فأمروا جميع الكهنة والمبشّرين الأجانب، بمغادرة البلاد.

وبعد البرتغاليّين والهولنديّين، أتى البريطانيّون، وطردوا الهولنديّين من كوشين، في العامين الـ١٧٩٥ والـ١٧٩٦. وفي العام الـ١٨١٦، أتى مبشّرو الجمعيّة الكنسيّة التبشيريّة التابعة لكنيسة إنكلترا. وفي العام الـ١٨٨٠، تأسّست الكنيسة السريانيّة الإنجيليّة. وتعاون الأنكليكان مع المسيحيّين السريان الأرثوذكس، فساعدوا مار يوسف ذيونيسيوس بوليكوتيل، على تأسيس مدرسة لاهوتيّة، في العام الـ١٨١٥. وابتداء من العام الـ١٨٣٣، اقترح الأنكليكان إدخال بعض الإصلاحات على حياة الكنيسة السريانيّة، فرفضت الأخيرة في مجمع انعقد في مافيليكارا، في العام الـ١٨٣٦، مصمّمة البقاء على تقاليدها الصلاتيّة وإيمانها الأصليّ. فانقطعت إذذاك العلاقات، وصار إلى تقسيم الممتلكات المشتركة بين الطرفين.

ترجم الهنود، التابعون للتقليد السريانيّ الأرثوذكسيّ، الكتاب المقدّس من السريانيّ إلى اللغة المالاياميّة، وهي لغتهم المحكيّة. شجّعهم على ذلك المبشّرون الأنكليكان. فصدرت الترجمة الأولى في العام الـ١٨١١، ثمّ أُعيدت طباعتها في العام الـ١٨٣٠.

ووصل إلى الهند البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ، بطرس الرابع، في العام الـ١٨٧٥. فترأّس مجمعًا في العام الـ١٨٧٦، في مولنثوروثي، في مقاطعة كوشين، نظر في تسوية العلاقات بين البطريركيّة والكنيسة

المحلّيّة، على ضوء ما قُرِّر في مجمع مافيليكارا، في العام الـ١٨٣٦. وفي العامين الـ١٨٧٦ والـ١٨٧٧، قسّم البطريرك بطرس الرابع الكنيسة الهنديّة إلى سبع أبرشيّات، وعيّن لها أساقفة. ولم يعترف بالمتروبوليت مار ذيونيسيوس الخامس، الذي وجده رئيسًا لكنيسة الهند عند مجيئه. لكن اعترفت به محكمة استئناف دولة كيرالا، في العام الـ١٨٨٩. وعند وفاته، طالبت الهيئة التمثيليّة لكنيسة الهند أن يعيّن مكانه جيفارغيز ذيونيسيوس السادس. ووصل إلى الهند البطريرك عبدالله الثاني (١٩٠٦–١٩١٥) في العام الـ١٩٠٩، عيّن مار كورلوس متروبوليتًا، وحرم جيفارغيز ذيونيسيوس السادس. فدعا حزب جيفارغيز ذيونيسيوس السادس البطريرك السريانيّ مار عبد المسيح، المخلوع بموجب أمر من الباب العالي صادر في العام الـ١٩٠٥، والذي كان ما يزال معتبرًا بطريركًا شرعيًّا من قبل بعض السريان، للمجيء إلى الهند. فوصل في العام الـ١٩١٢، ورسم أوّل كاثوليكوس هنديّ، موران مار باسيليوس بولوس (١٩١٤–١٩١٢)، وسمح للكنيسة الهنديّة برسم كاثوليكوسها، ومطارنتها في المستقبل، وبتكريس الميرون، مع البقاء على اعترافها بأوّليّة البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ. فوجد الهنود السريان الأرثوذكس أنفسهم إذًا منتمين إلى فئتين متخاصمتين، فئة تنادي بالاستقلال، وفئة متعلّقة بالنمط القديم المدعوة «البطريركيّة». وأخذت الفئتان تتخاصمان، وتتنازعان، بالنسبة إلى ممتلكات الكنيسة، ما سبّب دعاوي قضائيّة متلاحقة، بين العام الـ١٩٢٤ والعام الـ١٩٦٢.

وفي العام الـ١٩٣١، وصل إلى الهند البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ، إلياس الثالث، فلم يعترف بالكاثوليكوسيّة المالنكارا، لكنّه رفع الحرم عن مار ذيونيسيوس السادس.

وفي العام الـ١٩٣٤، أقرّت الهيئة العامّة للكنيسة المستقلّة تنظيمًا مكتوبًا. وفي العام الـ١٩٥٨، اعترفت المحكمة الهنديّة العليا باستقلالها. وفي السنة ذاتها، اعترف البطريرك السريانيّ الأرثوذكسيّ، يعقوب الثالث (١٩٥٧–١٩٨٠)، بباسيليوس جيفيرغيز الثاني، كاثوليكوسًا على الهند. وفي كانون الأوّل من العام الـ١٩٥٨، تمّ الاعتراف المتبادل بين الكنيستين، وصار تبادل رسائل بهذا الاعتراف، ما أعاد الوئام والوحدة إلى الكنيسة. وفي العام الـ١٩٦٤، نصّب البطريرك يعقوب الثالث، مار أوجين تيموثيوس، كاثوليكوسًا، وأخذ اسم موران مار باسيليوس أوجين (١٩٦٤–١٩٧٥). واشترك البطريرك والكاثوليكوس معًا في مؤتمر رؤساء الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة، في أديس أبابا، في العام الـ١٩٦٥. وفي ١٤ أذار من العام الـ١٩٦٧، عُدّل نظام الكنيسة المستقلّة لأخذ هذا التطوّر في الاعتبار. ولكن ظهرت خلافات جديدة بين الطرفين، في العام الـ١٩٧٢، ما اضطرّ البطريرك إلى أن يُرسل مندوبًا إلى الهند. وفي العام الـ١٩٧٤، أمر البطريرك يعقوب الثالث، بخلع كاثوليكوس الكنيسة المستقلّة، أوجين، وعيّن مكانه المتروبوليت فيلوكسينوس، كاثوليكوسًا جديدًا، باسم باسيليوس مار بولوي الثاني. أمّا الكنيسة المستقلّة، فعيّنت في العام الـ١٩٧٥ كاثوليكوسًا آخر، هو مار ماتيوز أثناسيوس، الذي اتّخذ اسم باسيليوس مار توما ماتيوز الأوّل.

وفي ٢١ نيسان الـ١٩٩٥، صدر حكم من محكمة الهند العليا لصالح الكنيسة المستقلّة. منذ ذلك الحين، تشكلت لجان للبحث بالمصالحة، لكنّها لم تفلح، رغم اجتماعات متعدّدة. مع ذلك، تستمرّ الاجتماعات على أمل الوصول إلى حلّ نهائيّ بين الطرفين.

لكلّ واحدة من الكنيستين ذات الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ في الهند، مجمعها، ونشاطاتها المختلفة المنظّمة من قبل تجمّعات الكهنة والنساء والشبيبة والطلاب، والتي تشمل أعمالاً اجتماعيّة، ونشاطات مسكونيّة... كما لدى كلّ منهما هيئات تهتمّ بالتعليم الدينيّ، وبالطلاب من الناحية الروحيّة. وتوجد أيضًا مراكز تبشيريّة. وتدير كلّ كنيسة عددًا من المدارس الابتدائيّة والثانويّة، والمستشفيات، والمراكز الطبيّة، والمياتم، والهيئات الاجتماعيّة المهتمّة بالفقراء، والمرضى، والمقعدين، والعميان، والمسنّين، والمصابين بأمراض عضالة، كما تدير الكنيسة المستقلّة مدرستين إكليريكيّتين للاهوت، واحدة في قطيام، والأخرى في ناغبور، في وسط الهند.

كذلك تصدر كلّ كنيسة منشوراتها الخاصّة. وأهمّ ما تصدره الكنيسة المستقلّة مجلّة سبّا المالنكارا، ونجمة الشرق، والنور، وديفتي بوروهيتان، والشبيبة الأرثوذكسيّة، ومالنكارا سبّا باتريكا. وفي العام الـ١٩٩٣، بدأ مشروع إصدار موسوعة أرثوذكسيّة، بلغة المالايام، انتهى مؤخّرًا.

الفصل الثاني

الروحانيّة

بُنيت الكنائس السريانيّة القديمة في الهند، كما البيوت القديمة، من الأخشاب، وبعض جسورها الخشبيّة مزيّنة غالبًا بصلبان. في وسط الكنيسة بيما، أي منصّة مرتفعة، تُتلى منها القراءات الكتابيّة، وتُستعمل أيضًا من أجل الوعظ، كما يقف عليها الكهنة أيّام الأعياد. وبعض الكنائس مزيّنة بجداريّات. يسجد المؤمنون أمام النخائر، ويكرّمون أيقونات السيّد، والعذراء، والقدّيسين، في الكنائس، كما في البيوت. تُقام الخدم بغالبيّتها اليوم، باللغة المحلّيّة المحكيّة في كيرالا، ولكن تُقام أيضًا بالهنديّة، والتاميل، حسب المناطق، وأيضًا بالإنكليزيّة، ولكن بالسريانيّة قليلاً. يقضي التقليد بأن يلبس الرجال والنساء ثيابًا بيضاء للذهاب إلى الكنيسة، ولكن لا تحترم هذه العادة بصرامة في أيّامنا. يلبس الكهنة جبّة سوداء عند قيامهم بالخِدَم، وجبّة بيضاء في باقي الأيّام. أمّا الأساقفة فيلبسون ثيابًا سوداء، أو ورديّة، في الأيّام العاديّة، وثيابًا ذات ألوان فاقعة داخل الكنيسة، ما عدا أيّام الصوم. يُكرّم المؤمنون جميع قدّيسي الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، ويطلبون شفاعتهم.

في العام الـ١٩٤٧، أعلنت الكنيسة المستقلّة قداسة أحد أساقفتها الأقدمين، مار غريغوريوس الباروماليّ (١٨٤٨-١٩٠٢)، الذي وُلد في قرية مولنثوروثي، بالقرب من كوشين، وترهّب في العام الـ١٨٧٢، ومارس حياة شديدة الزهد في فيتيكيل، حيث عاش في عزلة تامّة.

وفي العام الـ١٨٧٦، عُينّ متروبوليتًا على أبرشيّة نيرامان. وفي العام الـ١٨٧٧، بدأ بتنظيم المدرسة الإكليريكيّة، في برامولا، بالقرب من تيروفولا، وشيّد فيها كنيسة في العام الـ١٨٩٥. لم يكن مار غريغوريوس الباروماليّ قِمّة روحيّة وحسب، بل أيضًا إداريًا متمكّنًا، ولاهوتيًا، وكاتبًا، وعالمًا كبيرًا، ومعلّمًا، وأيضًا مبشّرًا ناشطًا. مات في الثاني من تشرين الثاني، وهو اليوم الذي يزور فيه الحجّاج قبره. يزورون أيضًا الغرفة التي كان يعيش فيها. ويأتون بالآلاف، من أمكنة مختلفة، وبعضهم مشيًا على الأقدام. عاش القدّيس حياة نسكيّة، ووُهب نعمة شفاء المرضى، وإعادة الوئام، حيث تهبّ النزاعات الخطيرة. وقد تحصل اليوم معجزات كثيرة لمن يطلب شفاعته، بخاصّة بالنسبة إلى النساء العاقرات، والمرضى المصابين بالسرطان، أو أمراض كثيرة أخرى. وعندما يأتي الحجّاج، يضيئون الشموع، ويقدّمون هبات للكنيسة، ويضعون أسماءهم أو أسماء مرضاهم على أوراق لكي يُذكروا في القدّاس الالهيّ.

ومن القدّيسين الذين أُعلنت قداستهم في الهند، مار باسيليوس، وهو أسقف من أصل سريانيّ، أتى كيرالا في العام الـ١٦٨٥، ومار ذيونيسيوس فتاتشيريلي المتوفّى في العام الـ١٩٣٤، والذي أُعلنت قداسته مؤخّرًا. كما أُعلنت قداسة الأسقف غريغوريوس، الذي وصل إلى الهند في العام الـ١٦٦٥، والذي يُعيَّد له في ١٤ نيسان، يوم وفاته. ويشترك شطرا الكنيسة الهنديّة بهذا العيد. كما يعيَّد أيضًا للأساقفة المدفونين في مختلف كنائس كيرالا، غالبًا في يوم وفاتهم. وهناك مكان آخر يؤمّه الحجّاج، هو في كنيسة بمبادي، بالقرب من قطيم. عاش هناك مار غريغوريوس، المتوفّى في العام الـ١٩٦٥، حياة صلاة في الغابة

المجاورة، حيث أسّس في ما بعد ديرًا صغيرًا، قبل أن يُصبح أسقفًا. كان كاتبًا بارعًا، اشتهر بمواعظه المليئة روحًا. كان يستقبل زوّاره بفرح، ويباركهم، ويرشدهم، يوزّع على الفقراء مباشرة أيّ شيء يهديه إيّاه أحد زوّاره، ويشجّع دومًا المؤمنين على الصلاة، والصوم، والصَدقة، ومحبّة القريب. حفر قبره بيديه، وكان يذهب دومًا إليه ويصلّي. دُفن في الكنيسة التي شيّدها. يزور قبره العديد من الحجّاج في ٥ نيسان، يوم وفاته، وينظّمون زيّاحات كبيرة. ويُذكر أنّه ذهب ذات يوم إلى قرية، تفشّى فيها مرض البرص، وقضى على عدد كبير من سكانها، وأخذ يصلّي مع المؤمنين، فتوقّف الوباء. ويُخبَّر عن معجزات كثيرة اقترفها بواسطة صلاته.

ومن أبرز الوجوه الروحيّة الذين عاشوا في القرن العشرين، الكاثوليكوس مار باسيليوس جيفارغيز الثاني، الذي ظهرت عليه العذراء، أثناء خدمته القدّاس الإلهيّ الأخيرة، شفى بصلواته عددًا كبيرًا من المسيحيّين، وأيضًا من الهندوسيّين. ومن أبرز الوجوه أيضًا الراهب جيفارغيز توما، الذي عاش بالقرب من نيرانام. وكان إنسانًا بسيطًا، لكنّه مُنح موهبة التمييز. عاش حياة نسكيّة، ينام على حصيرة مفروشة على الأرض، ولم يكن يتناول، في أيّام الصيام، سوى قليل من الماء. كان يقوم دومًا بزيارة المرضى. وساعد الكثيرين بواسطة صلواته.

ويأتي المؤمنون عادة للصلاة، حيث توجد ذخائر القدّيسين، وقبور الكاثوليكوسات. وأخبرني الأب ف. ج. جوزف، الذي يعيش في أوثيمودو، بالقرب من باثاناثيتا، أنّه هبّ ذات يوم في العام الـ١٩٨٥، بعد سماعه صوت المسيح، وحجّ بمفرده، مشيًا على الأقدام، إلى ميلابور،

بالقرب من مدراس، حيث إستشهد توما الرسول، أي مشى ما يُقارب ٦٤٠ كيلومترًا. وما تزال تجترح المعجزات في ميلابور، حيث دُفن القدّيس توما. وشهد لها في الماضي مركو بولو، إذ شاهد المسيحيّين المحلّيّين يأخذون قليلاً من تراب القبر من أجل شفاء المرضى. وأخذ معه إلى البندقيّة بعضًا من هذا التراب، الذي شفى مرضى هناك أيضًا. ويقع يوم استشهاد القدّيس توما في ٢١ كانون الأوّل. ويؤمّ المكان في هذا اليوم كثير من الحجّاج. وفي العام الـ١٩٦٥، حين زار الكاثوليكوس الهنديّ، أوجين الأوّل، سورية، قدّمت له ذخيرة للقدّيس توما، وضعها عند عودته إلى الهند في كنيسة الكاثوليكوسيّة، في ديفالوكم، في قطيم. ويمكن التبرّك من ذخائر أخرى للقدّيس توما في كنيسة قديمة، في مولنثوروثي، خاضعة للبطريركيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة. ونُظّمت في العام ال١٩٧٢ احتفالات كبيرة على شرف توما رسول الهند القدّيس.

الفصل الثالث

الحياة الرهبانيّة

لا يُعرف إلاّ القليل عن تاريخ الحياة الرهبانيّة السريانيّة في الهند بموجب روايات يوسف الهنديّ، والأسقف البرتغاليّ غوويس، كان يعيش رهبان وراهبات، في كيرالا، في أوائل القرن السادس عشر، أي قبل مجيء الأسقف السريانيّ الأرثوذكسيّ إليها، واعتناقها الطقس السريانيّ الغربيّ. وقال لي الأسقف غريغوريوس، الذي توفّي في العام الـ١٩٧٧، إنّ الحياة الرهبانيّة المنظّمة هناك لم ترَ النور قبل أوائل القرن العشرين. وأسّس الأب ب. ت. جيفارغيز أشرام بيت عنيا في العام الـ١٩١٨، وعبارة «أشرام» هي الكلمة الهنديّة التي تُشير إلى «الدير». وكان الأب جيفارغيز عالمًا أراد إدخال الحياة الرهبانيّة والروحيّة السريانيّة الأرثوذكسيّة، إلى الهند ساعيًا لتناغمها مع الثقافة الهنديّة. وذلك يُفسّر لماذا يلبس الرهبان، في ديري بيت عنيا والقدّيس بولس، جبّة لونها أصفر، على غرار الرهبان الهندوسيّين. أمّا لباس الراهبات، فلونه أبيض، مع طرحة سوداء. أصبح الأب ب. ت. جيفارغيز، أسقفًا، في العام الـ١٩٢٥، متّخذًا اسم مار إيفانيوس. لكنّه التحق بالكنيسة الكاثوليكيّة، في العام الـ١٩٣٠، فتابع مشروع الرهبنة الأب ألكسيوس، الذي أصبح في ما بعد الأسقف ثيوذوسيوس (المتوفّى في العام الـ١٩٦٥).

وكان يعمل رهبانه أيضًا خارج الدير لخدمة المؤمنين. وتستمرّ الأديرة، في أيّامنا، بالقيام بنشاطات مختلفة، بما في ذلك خدمة المدارس،

والمستشفيات، والمياتم، والقيام بأعمال اجتماعيّة متعلّقة بالعمر الثالث، وذوي الاحتياجات الخاصّة، والمرضى. ويقوم بعض الرهبان بأعمال زراعيّة. تفرض الأوضاع الاجتماعيّة الراهنة في الهند، على الرهبان والراهبات، أن يُعلّموا، ويهتمّوا بالفقراء والمرضى. لكن ذلك لا يمنعهم إطلاقًا من التفرّغ للصلاة، قائلين إنّ عليهم الجمع بين العمل والصلاة. ويُمارسون بعامّة صلاة يسوع. ويعطي جميع الرهبان والراهبات، الذين يعملون خارج الدير، رواتبهم للدير، لأنّ كلّ واحد من الأديرة مستقلّ من الناحية الماليّة، كما له نظامه الخاصّ. ويخدم رهبان كثيرون الرعايا التي تفتقر إلى الكهنة.

أمّا برنامج الأديرة اليوميّ، فهو كما يلي: تبتدىء الخِدَم الصباحيّة في الخامسة والنصف صباحًا، يتبعها القدّاس الإلهيّ. أمّا الصلوات الأخرى، فتُقام عند الظهر، ثمّ في الساعة الثالثة والنصف، فالسادسة، فالتاسعة. ثمّ يحلّ الصمت الكلّيّ على الدير. مهما كان العمل الذي يقوم به الرهبان، من واجبهم أن يشتركوا في الخِدَم السبع اليوميّة، خمس مرّات في اليوم الواحد. أمّا الطعام، فيتناولونه في الثامنة صباحًا، ثمّ عند الظهر، وفي السابعة أو الثامنة مساء. وتُتلى قراءات روحيّة، في بعض الأديرة، أثناء الطعام. ولا يتناول الرهبان أيّ طعام قبل الساعة الواحدة، في أيّام الصوم. ويخلد العديد من الرهبان والراهبات، مرّة في الشهر الواحد، إلى العزلة والصمت التامّ. كما يتّبع الرهبان والراهبات تقليد المطّانيّات الكبيرة الأرثوذكسيّ، كلّ واحد في قلاّيته. وتدوم فترة المريديّة للمبتدئين ثلاث سنوات.

وكان للكنيسة المالنكارا المستقلّة في العام الـ٢٠٠٨ تسعة أديرة

للرجال، وأحد عشر للنساء، تضمّ نحو مئتي راهب، ومئتي راهبة. أمّا الدير الثاني الذي أنشئ للرجال، فهو دير جبل ثابور في باثانابورم، جنوب باثانمثيتا. أنشأه، في العام الـ١٩٣٠، الأب توما، الذي أصبح لاحقًا متروبوليت نيرانام، باسم توما مار ديونيسيوس. أسّس دير جبل ثابور للنساء في العام الـ١٩٢٥، وأوّل مَن أمّه راهبات تدرّبن لدى الراهبات الأنكليكانيّات، في بومبي وإنكلترا. فتلقّت مثلاً الراهبات الثلاث اللواتي أنشأن دير بيت عنيا النسائيّ، تدريبهنّ لدى راهبات القدّيسة مرغارت الأنكليكانيّة، في سيلان، التي تُدعى الآن سرلنكا. وأوضح لي الأسقف غريغوريوس، المتوفّى في العام الـ١٩٩٧، أنّ الحياة الرهبانيّة في كنيسته، تأثّرت كثيرًا بالتقليد الأنكليكانيّ، بالنسبة إلى أنظمة بعض الأديرة، التي عُدّلت لتلائم أوضاع الهند الاجتماعيّة. قال: «يكمن ضعف الحياة الرهبانيّة عندنا في كثرة النشاطات، وينقصها التأصّل. بدون حياة رهبانيّة متأصّلة في الصلاة والتأمل، لا يمكن لكنيستنا أن تكون أرثوذكسيّة حقًّا. لذلك ذهب بعض رهباننا إلى مصر لزيارة بعض الأديرة القبطيّة، التي تشهد تجدّدًا ملحوظًا». وتقوى هذه النزعة اليوم، حيث يتزايد عدد الرهبان والراهبات الذين يتوقون إلى عيش حياة رهبانيّة أكثر تأصّلاً في التقليد الرهبانيّ السريانيّ الأصيل. من أجل ذلك، أسّس مثلاً المتروبوليت إيبفانيوس، أسقف قطيام، دير القدّيس باسيليوس، بالقرب من قطيام.

ويتّبع بعض الرهبان حياة نسكيّة متوحّدة، أمثال الأب بطروس من دير بيت عنيا، الذي عاش سنة كاملة في كهف في الغابة، أو الراهب ماثيو (المتوفّى في العام الـ١٩٩٣)، من دير القدّيس كرياكوس في بالموودي، بالقرب من باثانمثيتا، الذي عاش في صمت دائم.

الفصل الرابع

اندماج الكنيسة بالواقع والثقافة الهنديّين

تُقام خِدم المعموديّة والزواج والجنازة بحسب الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ، لكن أدخلت إليها بعض العادات الهندوسيّة. فيُعطى مثلاً للطفل المولود جديدًا ثلاث نقاط من العسل، بعد وضعها في إناء مصنوع من الذهب، وذلك اعتقادًا بأنّها ستؤمّن له حياة ناجحة ماديًّا. وكما هي العادة في الهند، تدبّر العائلات في ما بينها زيجات أولادها، ولكن بعد أخذ موافقتهم. وتقضي العادة التقليديّة بأن يُعطي أحد الأطراف هبة ماليّة للطرف الآخر. وبما أنّ هذه العادة تضع حِملاً ثقيلاً على كاهل العائلات الفقيرة، منعتها الدولة، ولكن ما يزال البعض يمارسها. فأثناء الزيجات الهندوسيّة والمسيحيّة، يضع العريس حول عنق العروس ما يُسمّى بالثالي، أو المينّو، أي قلادة بشكل أجاصة، ينقش عليها المسيحيّون رسم الصليب. وتوهب العروس قطعًا أخرى من المجوهرات. وأثناء حفلة الزواج، توهب العروس فستانًا جديدًا (ساري) وطرحة تضعها على رأسها إلى نهاية القدّاس الإلهيّ الذي يلي خدمة الزواج.

وتُنظّم سباقات للمراكب في الأنهر، في عيد الأونام، المُحتفى به في أيلول في كيرالا، ويشترك فيها الهندوسيّون والمسيحيّون والمسلمون على حدّ سواء. وذلك لإحياء ذكرى ماهابالي، الملك الأسطوريّ، الذي سادت عهده المساواة والوفرة المعيشيّة.

ويطوف مسيحيّو الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ الشوارع،

بالموسيقى والطبول، حسب العادة الهندوسيّة، لمناسبة الأعياد الكبيرة السنويّة، وأعياد بعض القدّيسين. وترافق الفِيَلة الطواف أحيانًا، كما تُرفع مظلّات ملوّنة، وتسمع أصوات المفرقعات، وتزيَّن الشوارع بأغصان النخيل. وكذلك جرت العادة على أن يُقدّم المؤمنون بواكير حقولهم إلى الكنيسة، كالجوز الهنديّ، والموز، كما يُطعمون منها الجميع. ويُصار، في الأعياد إلى زيّاحات داخل الكنيسة، أو حولها، بالصلبان والشموع المضاءة، والبخور، والمظلّات الملوّنة.

عادة، يكون بيت الكاهن والقاعات الرعويّة، في الكنائس القديمة، في باحة داخل صرح الكنيسة. وكما هي الحال بالنسبة إلى الهياكل الهندوسيّة، تحوط الباحة جدران فيها فتحات صغيرة يملؤها الزيت الذي يُضاء لمناسبة الأعياد. عادة، في وسط الباحة، يرتفع صليب كبير، مصنوع من حجر الغرانيت. وتوجد أحيانًا منصّة في جوار مبنى الكنيسة، تُستعمل للحفلات والتمثيليّات، المرتبطة بالغناء والرقص، التي تشير إلى حملات توما الرسول التبشيريّة، أو إلى أحداث إنجيليّة، والتي تُقام لمناسبة الأعياد السنويّة.

ويُلفت الانتباه المشعل الزيتيّ، المصنوع من النحاس، الذي يوضع على الأرض، أو يُعلّق في السقف، ويُقدّم المؤمنون زيت جوز الهند لإشعاله. وعندما يدخل المؤمن الكنيسة، يضع أصبعه في زيت المشعل، ويرسم به إشارة الصليب، على جبينه. وفي الكنائس والبيوت مشاعل نحاسيّة، تشبه التي يستعملها الهندوسيّون. وفي الماضي، كان يُصار إلى إشعالها كلّ يوم، وقت الصلاة، وكانت ربّة البيت تضع مشعلاً مضاءً خارج البيت، لمناسبة الأعياد.

ويدخل المؤمنون حفاة إلى الكنيسة، تمامًا كما يفعل الهندوسيّون في هياكلهم. ولا مقاعد في الكنائس، بل يقعد المؤمنون على حصيرة، حسب العادة الهنديّة. وتغطّي النساء رأسهن، غالبًا، بواسطة لباسهنّ، أي الساري.

وختامًا، لا بدّ من تأكيد قِدَم المسيحيّة الهنديّة. وكما رأينا، تبنّت بعض العادات الهندوسيّة بعد تنصيرها، ولكن مع الحفاظ التامّ على هويّة التقليد السريانيّ الأرثوذكسيّ. وتعيش الكنائس ذات الطقس السريانيّ الأرثوذكسيّ الآن في الهند نهضة أكيدة. ويُحتذى بها لتأقلمها مع التطوّر المعاصر، في تنظيمها، وتربيتها، وأعمالها الاجتماعيّة، ومشاريعها العديدة المختلفة. وتجدر الملاحظة أنّ المساعدة الاجتماعيّة والتربية التي تقوم بها الكنيسة لا تقتصر على المسيحيّين، بل تمتدّ إلى الجميع.

القسم الثالث

الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة

المقدّمة

احتفلت الكنيسة الأرمنيّة، في العام الـ٢٠٠١، على مدى السنة، بعيد إعلان المسيحيّة دينًا للدولة في أرمينيا، قبل ١٧٠٠ سنة. وكانت أرمينيا البلد الأوّل الذي قام بمثل هذا الاعتراف، في أوائل القرن الرابع، في العام الـ٣٠١، كما تقول الكنيسة الأرمنيّة. فتكون أرمينيا إذًا أوّل ملكيّة مسيحيّة في التاريخ.

يُدعى القدّيس غريغوريوس، «المنير» أو «المنوّر»، لأنّه أنار الأرمن برسالة الإنجيل. وكان أوّل رئيس للكنيسة الأرمنيّة، بعد أن رسمه أسقفًا رئيس أساقفة قيصريّة كبادوكيا، القدّيس ليونتيوس، في العام الـ٣١٤. حظي غريغوريوس برؤيةٍ أعلمته أين يجب عليه بناء أوّل كنيسة، في أرمينيا، في مدينة فغارشابت القديمة، التي أصبحت إتشميادزين، التي تعني «هنا حلّ الابن الوحيد». وبموجب التقليد الأرمنيّ، بشّر أرمينيا، قبل ذلك، الرسولان تدّاوس وبرثولومايوس. ولذلك تدعو الكنيسة الأرمنيّة ذاتها «رسوليّة».

تاريخيًا، لا يخلو تنظيم الكنيسة الأرمنيّة من بعض التعقيد، إذ تُقسّم الكنيسة إلى أربعة تنظيمات مستقلّة، أي أربع كراسٍ رئيسة. هناك كاثوليكوس في إتشميادزين، في أرمينيا (وهي على بعدٍ عشرين كيلومترًا غرب العاصمة يريفان)، وكاثوليكوس آخر في إنطلياس، في لبنان (على بعد اثني عشر كيلومترًا شمال بيروت)، وبطريركان، واحد في القدس، والثاني في إسطنبول (القسطنطينيّة قديمًا) يتبعان لكرسيّ إتشميادزين.

تغيّر مقرّ مقام إتشميادزين مرارًا، لأسباب أمنيّة، وبصورة خاصّة لأسباب سياسيّة، تعود إلى تنقّل مقرّات الأمراء والملوك الأرمن. فنُقل الكرسيّ، إلى دفين، في القسم الثاني من القرن الخامس، ثمّ إلى أغتمار، بين العامين الـ٩٣٠ والـ٩٥٠، فإلى أرجينا، بالقرب من آني، بين العامين الـ٩٥٠ والـ٩٩٢، وإلى آني ذاتها، من العام الـ٩٩٢ إلى العام الـ١٠٦٥، ومن ثمّ إلى هرومكلا في كيليكية، في منتصف القرن الثاني عشر، إلى سيس، عاصمة مملكة كيليكية الأرمنيّة الجديدة، في العام الـ١٢٩٢، والتي تُدعى الآن كوزان، في تركيا. وفي العام الـ١٤٤١، قرّر مجمع انعقد في فغارشابت، نقل المقرّ من سيس إلى إتشميادزين، حيث انتُخب آنذاك كاثوليكوس جديد. أمّا الكاثوليكوس غريغوريوس التاسع، فظلّ في سيس وكان له خلفاء بعد مماته. إذًا منذ العام الـ١٤٤١، هناك كاثوليكوسان مستقلّان، يتمتّعان بالصلاحيّات ذاتها، مع تمتّع كاثوليكوس إتشميادزين بأوّليّة شرفيّة. بقي مقرّ كاثوليكوسيّة سيس، في سيس، إلى العام الـ١٩٩٢، حيث نُقل إلى إنطلياس، في العام الـ١٩٣٠، بعيد مجازر العام الـ١٩١٥. وتمتدّ سلطته بصورة خاصّة إلى لبنان، وسورية، وإلى قبرص، وإيران، وتتعاون مع كرسيّ إتشميادزين في أميركا الشماليّة وبعض الأماكن الأخرى.

ولكون الكنيسة الأرمنيّة كنيسة وطنيّة، فهي تحافظ على طابعها الوطنيّ الأرمنيّ في الجماعات المنتشرة في الشتات. وكانت الكنيسة، في تاريخ مؤسّسات الأمّة الأرمنيّة السياسيّة المتقلّبة، عنصر وحدة الشعب الأرمنيّ، إذ بقيت عبر العصور المؤسّسة الوحيدة الدائمة.

ونلاحظ أنّ الأرمن لم يشتركوا في مجمع خلقيدونية، لأنهم

كانوا آنذاك يخوضون حربًا ضدّ الفرس الزوروستريّين، دفاعًا عن الدين المسيحيّ. ورفضوا لاحقًا مقرّراته، وأبسلوا مناصريه، في مجمع دفين الثاني، في العام الـ٥٥٥. ويعتقد بعض المؤرخين أنّ هذا الرفض اتى في العام الـ٦٠٧. وقطعت الكنيسة الأرمنيّة علاقاتها بكنيسة جورجيا، في العام الـ٦٠٨. وفي الفترة الممتدّة من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر، تقلّب موقف الكنيسة الأرمنيّة مرارًا، بالنسبة إلى المجمع الخلقيدونيّ، والكنيسة البيزنطيّة الخلقيدونيّة، حسب رأي الكاثوليكوس الحاكم. وفي القرن الثاني عشر، دخلت في مفاوضات لاهوتيّة مع الكنيسة البيزنطيّة، أدّت إلى تفاهم إيجابيّ، نتيجة جهود الكاثوليكوس نرسيس شهنرهالي. ومع أنّ الشركة انقطعت بين كنيستي الأرمن والبيزنطيّين، بعد المجمع الخلقيدونيّ، لكن لم تنقطع العلاقات بين الأرمن والبيزنطيّين. واحتلّ عدد كبير من الأرمن العائشين في الأمبراطوريّة البيزنطيّة، مراكز مرموقة في الجيش والإدارة، وقيادة الجيش، ورئاسة المقاطعات، كما حكم أباطرة وبطاركة، من أصل أرمنيّ. استمرّت العلاقات أيضًا على المستوى الثقافي والفكريّ، حيث أثّر الطرفان على بعضهما البعض، مثلاً على مستوى الليتورجيا والفنّ.

اعترف الباب العالي العثمانيّ (١٢٨٨-١٩٢٣) بالأرمن، كملّة دينيّة مستقلّة. واعتلى الأرمن، في الأمبراطوريّة العثمانيّة، مناصب مهمّة، بخاصّة في مجال التجارة والمال، وأدّى بعضهم دورًا بارزًا كمهندسين، وأطبّاء، ورسّامين، وموسيقيّين، وأصحاب مصارف، ومستشارين لقياديّين سياسيّين أتراك. تأثّر الأرمن بالكاثوليك، بعيد وصول الحملات الصليبيّة إلى كيليكية. أرسل رهبان من الفرنسيسكان

والبروتستانت إلى كنائسهم في القرن الثالث عشر، [illegible] في أوائل القرن الرابع عشر، وتأسست هناك رهبنة أرمنية [illegible] دعيت Unitores Fratres.

مع أن المجمع الخلقيدوني كان حاسمًا بعض الشيء في [illegible] عشر، إلا أنه ثبت كاثوليكيًا في الوطن [illegible] كان الكرسي البطريركي الكاثوليكي [illegible] في العام ال[illegible] كنيسة روما في العام ال١٧٤٢، وأخذ مقرًا له في [illegible] الكنيسة الكاثوليكية [illegible] الأرمن الكاثوليك في العام ال[illegible]

حمل أوائل المبشرين الإنجيليين إلى أرمينيا في أوائل القرن التاسع عشر وإلى تركيا في العام ال١٨٣١، وانشأت أول جماعة بروتستانتية أرمنية في القسطنطينية في العام ال١٨٤٦، واعترف بها [illegible] عهد. والجدير بالملاحظة أن المبشرين الكاثوليك والإنجيليين [illegible] يعملون بحرية كبيرة خاصة بعد تجاوز العام ال١٩٩١.

أما الكنيسة الأرمنية الرسولية في أرمينيا فتعمل اليوم على إعادة تبشير البلاد وتثقيفها بعد سبعين سنة من الحكم الشيوعي [illegible]، وتفعل ذلك بواسطة العمل الروحي والمساعدات الاجتماعية، [illegible] علاقات مسكونية جيدة مع الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية والإنجيلية.

وفي العام ال٢٠٠٠، كان يقدر عدد الأرمن بنحو عشرة ملايين، غالبيتهم الساحقة تابعة للكنيسة الرسولية و[illegible]٪ منهم كاثوليك و[illegible]٪ إنجيليون.

ويحيط بأرمينيا من [illegible] الجمهورية [illegible] تركيا [illegible] وإيران [illegible] جورجيا. وتقع أرمينيا على مرتفع جبلي يتكون من [illegible] ويطل على قمة جبل أرارات التي يعلو ٥١٦٥ مترًا [illegible] في تركيا. ويقال إن فلك نوح رسى عليه بعد الطوفان [illegible] ويعتبر مقدسًا عند الشعب الأرمني.

يقطن ثلث الأرمن البالغ عددهم الإجمالي ثلاثة ملايين في العاصمة يريفان، إذ ما يقارب أربعين بالمئة من مساحة البلاد [illegible] الطبيعية الخلابة الوعرة والكثيرة المراعي [illegible] فيها [illegible] في المناطق الزراعية غنية بالفاكهة والخضروات كالرمان والمشمش (PRUNUS ARMENICUS) الذي يعود اسمه اللاتيني إلى أرمينيا.

ومعظم الأرمن الذين لا يسكنون البلاد هم من الفلاحين. ويعرف الأرمن في العالم بمهاراتهم كحرفيين وصاغة، وبعضهم من كبار رجال العالم أمثال كالوست غولبنكيان وأليكس مانوغيان أو [illegible] بولوكيان الذين أنشأوا مؤسسات كبيرة لمساعدة شعبهم الأرمن.

ويُطلق اسم أرمينيا على البلد الحالي أو على منطقة جغرافية تغيّرت حدودها مرارًا عبر العصور ويسكنها الأرمن. تغيّرت الحدود بالفعل منذ زمن المملكة الأرمنية الأولى إلى أيامنا هذه إذ وصل البلد إلى حجمه الأقصى في عهد الملك تيغران الكبير (٩٥–٥٥ قبل المسيح)، حيث امتد من جورجيا الحالية إلى سورية، وشمل أراضي هي اليوم عبر القوقاس وفي إيران وتركيا. أما المنطقة المسماة أرمينيا الكبرى فيحدّها الفرات غربًا والبحر القزويني شرقًا والقوقاس

الصغير والجبل البنطيّة، شمالاً، وبلاد ما بين النهرين العليا، جنوبًا. تمتّع الأرمن أحيانًا بدولة مستقلّة ضمن هذه الحدود. أمّا كيليكية، المسمّاة أرمينيا الصغرى، فهي سهل مجاور للبحر الأبيض المتوسّط، يمتدّ بين آسيا الدنيا وسورية، ومحاط بجبال آمانوس، شرقًا، وجبال الطوروس، شمالاً. وفيها عاشت مملكة أرمنيّة، من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر.

مَن يريد فهم التطوّر الجغرافيّ المعقّد لأرمينيا، عبر العصور، يمكنه أن يرجع إلى خرائط كلّ واحدة من مراحل نموّها، مثل الأطلس الصادر عن موتافيان وهيوسن. قامت أرمينيا، وما تزال، على مفترق طرق تجاريّة، بين البحر الأبيض المتوسّط، والبحر الأسود، والقوقاس، وبين أوروبّا وآسيا. وكانت تمرّ مثلاً إحدى طرق الحرير بتبريز، وشمال بحيرة فان. ولكون موقعها على هذا القدر من الأهمّيّة الاستراتيجيّة، كانت أرمينيا على مفترق كلّ الأمبراطوريّات الكبيرة، أمثال الأمبراطوريّة الفارسيّة، والرومانيّة، والبيزنطيّة، والعربيّة، والمغول، والتركيّة السلجوقيّة، والعثمانيّة، والروسيّة. لذلك، كان تاريخها شديد الصعوبة، واحتُلّت مرارًا. وتحوّلت تاليًا الأراضي التي يقطنها الأرمن مرارًا إلى ساحات حرب، تخاصم فيها مجاوروهم العظام، عبر العصور، وكان يحتلّها الغالب. لذلك رضخ الأرمن كثيرًا لسلطة حكّام غرباء، واضطرّ أمراؤهم إلى أن يحكموا تحت سلطة هؤلاء. عاشت أرمينيا، خلال فترات احتلال أراضيها، مراحل اضطهادات ومجازر، كما عرفت حقب سلام وأمان. من جرّاء كلّ هذه الاحتلالات، أضحت أرمينيا وطنًا بدون دولة. أسّست بعض العائلات الأرمنيّة النبيلة والثريّة، إمارات خاصّة وممالك، أمثال عائلة أرستروني (في فاسبوركان، في منطقة بحيرة

فان)، وعائلة أوربليان (في سيبونيك)، وعائلة زكريان، أو الزكارنة، (في شمال منطقة الغوغرك)، وعائلات ماميكونيان، وبغراتوني، وغيرها.

اعتاد الأرمن، منذ القدم، وما يزالون، ترك أرض أجدادهم، والهجرة إلى بلاد غريبة، منها البعيدة، ما يفسّر أهمّيّة الجالية الأرمنيّة في العالم، الناتجة من الهجرات المتتالية، لأسباب اقتصاديّة أو سياسيّة أو أسباب أخرى. لكن، حيثما حلّوا، تبقى اللغة الأرمنيّة في صميم الهويّة الأرمنيّة، ويتكلّمها بطلاقة أرمن الاغتراب، ويعلّمونها في مدارسهم الخاصّة. وكذلك، تُستعمل اللغة الأرمنيّة الكلاسيكيّة في الخِدَم الليتورجيّة. وكانت اللغة الأرمنيّة، قبل القرن الخامس، لغة محكيّة فقط، إذ لم يكن لديها أبجديّة. كان الأرمن يستعملون، حسب المناطق التي يقطنونها، اليونانيّة، أو السريانيّة، في طقوسهم، والفارسيّة في الإدارة. لذلك أثّرت الجماعات المسيحيّة السريانيّة في الجنوب، والبيزنطيّة في الغرب، على الكنيسة الأرمنيّة، والثقافة الأرمنيّة. أمّا الأدب باللغة الأرمنيّة، فهو بالغ الغنى، كما أنّ الدراسات الأرمنيّة عديدة.

أمّا، بالنسبة إلى الحياة الرهبانيّة، فقد أنشأ الأرمن عددًا كبيرًا من الأديرة، التي ساهمت مساهمة جمّة في نقل الثقافة والمعرفة والحفاظ عليهما. ولكن هُدم كثير من هذه الأديرة مع كنائسها، عبر التاريخ. ويصعب تأريخها، إذ يختلف الاختصاصيّون كثيرًا. فكان لي إذًا أن أختار، وأورد التواريخ المبيّنة في كتاب «تاريخ الشعب الأرمنيّ» لكاتبه ج. ديدييان، الصادر في العام الـ٢٠٠٧، وكتاب «الشعب الأرمنيّ، في الماضي والحاضر» لكاتبه ر. هوفانّيسيان، الصادر في العام الـ٢٠٠٤.

وتختصر المرجعيّات المذكورة في الكتاب الأخير على المراجع في

اللغات الأوروبيّة الأكثر رواجًا، ولكن بدون المراجع باللغة الأرمنيّة التي لا أتكلّمها، وذلك منعني من الرجوع إلى مقالات، وكتب مهمّة، كنت بأمسّ الحاجة إليها لأكمّل لائحة مراجعي، وأكتب نصوصي، بخاصّة في ما يتعلّق بالشتات، والروحانيّة والحياة الرهبانيّة، إذ قلّما نشرت مراجع عن الحياة الرهبانيّة الأرمنيّة باللغات الغربيّة. أمّا مراجعي الرئيسة، بشأن الحياة الرهبانيّة، فهي: مقالات ن. غرسويان بما يختصّ بالتاريخ، وبخاصّة المنشورة في مجلّة الدراسات الأرمنيّة، العدد ٣٠، السنوات ٢٠٠٥-٢٠٠٧، والملاحظات التي أبداها ج. ديدييان على نصوص «تاريخ الشعب الأرمنيّ» (٢٠٠٧)، والتي أبداها ر. هوفانيسيان في «الشعب الأرمنيّ، في الماضي والحاضر» (٢٠٠٤). كما رجعت إلى مقالات ج. أم. تييري وكتبه، بكلّ ما يختصّ بوصف الأديرة الأرمنيّة، وبخاصّة كتبه في «الفنون الأرمنيّة» (١٩٨٧)، و«أرمينيا في القرون الوسطى» (٢٠٠٠)، وكتاب ب. كونيو في «العمارة الأرمنيّة» (١٩٨٨)، ومجموعة الوثائق عن الكنائس والأديرة الأرمنيّة، التي أصدرها، في ميلانو، أ. وأ. مانوكيان، وتُدعى «الوثائق المتعلّقة بالبناية الأرمنيّة القديمة» (١٩٦٨-١٩٩٣). نقل الكلمات من الأرمنيّة صعب، مع أنّ اللغويّين والعلماء يستعملون طريقة محدّدة، لكنّنا لم نستعملها في هذا الكتاب، الموجّه إلى عامّة الناس. ويُعبَّر عن اللغة الأرمنيّة المعاصرة بطريقتين مختلفتين، الغربيّة والشرقيّة. الفروقات بينهما ناتجة من قلب بعض الحروف، مثلاً بين الـ B والـ P وبين الـ K والـ G... فيُلفظ غريغوريوس «غريغور» في الأرمنيّ الشرقيّ، وكريكور في الأرمنيّ الغربيّ. لذا قرّرت اتّباع اللهجة الأرمنيّة الشرقيّة، الأقرب إلى اللغة الأرمنيّة الكلاسيكيّة، كما استعملت بعض العبارات الأرمنيّة، مثل «فانك» التي تعني ديرًا.

الفصل الأوّل

التاريخ

حكمت مملكة أورارتو المنطقة، التي سُمّيت في ما بعد أرمينيا، بين القرن التاسع والقرن السادس، قبل المسيح. واحتلّتها، في العام الـ٣٣١ قبل المسيح، جيوش الإسكندر الكبير. وأصبحت أرمينيا، بعد ذلك، مملكة مستقلّة مجاورة للأمبراطوريّة السلجوقيّة، التي نتجت من حروب الإسكندر. وفي العام الـ١٩٠ ق.م.، غلب الرومان السلجوقيّين للمرّة الأولى. فاحتلّت السلطة في أرمينيا سلالة الأرتكسيادسيّين، في منتصف القرن الثاني، بعد المسيح، وكانت عاصمتهم أرتشات (وفي اليونانيّة أرتكساتا)، بالقرب من خور فيراب الحاليّ. وأسّس الملك تيغران الكبير (٩٥-٥٥ قبل المسيح)، المعروف جيّدًا من قبل الرومان، أمبراطوريّة أرمنيّة، امتدّت في أيّامه، من البحر القوقاسيّ إلى البحر الأبيض المتوسّط. وبموجب اتّفاق تمّ إبرامه بين الرومان والبارثيّين من بلاد فارس، تُوّج طيريداط الأوّل، شقيق الملك البارثيّ، في روما، من قبل نيرون، ملكا على أرمينيا، وذلك في العام الـ٦٦.

وبحسب التقليد الأرمنيّ، قام الرسولان تدّاوس وبرثولومايوس بنشر التعاليم المسيحيّة، في أرمينيا، خلال القرن الأوّل الميلاديّ. أمّا تنصير أرمينيا الرسميّ، فتمّ في أوائل القرن الرابع، في العام الـ٣٠١، على يد القدّيس غريغوريوس المنير، كما ينقل تقليد الكنيسة الأرمنيّة. حُبس القدّيس غريغوريوس من قبل طيريداط، الملك الحاكم، ولكنّه تمكّن أخيرًا من جعله يعتنق المسيحيّة، مع كلّ بلاطه. بعد ذلك فرض

الملك طيريداط المسيحيّة دينًا للدولة.

وفي منتصف القرن الثالث، تغلّب الفرس الساسانيّون على البارثيّين، وفي ما بعد على المملكة الأرمنيّة. وفي هذه الأثناء، اعتنق الأمبراطور الرومانيّ قسطنطين الأوّل (المتوفّى في العام الـ٣٣٧) الدين المسيحيّ، والذي أصبح، في عهد الأمبراطور ثيودوسيوس في أواخر القرن الرابع، دين الدولة في الأمبراطوريّة البيزنطيّة وعاصمتها القسطنطينيّة (إسطنبول، في تركيا). وفي العام الـ٣٨٧، تقاسم البيزنطيّون والفرس المملكة الأرمنيّة، ودام احتلالها من العام الـ٤٢٨ العام الـ٦٥٤. فاحتلّ البيزنطيّون الجزء الغربيّ منها، واحتلّ الفرس جزءها الأكبر، في الشرق. لكونهم يدينون بالزردشتيّة، التي كانت دين دولتهم، منذ القرن الثالث، لم يرضهم تطوّر المسيحيّة عند الأرمن، وسعوا لكسبهم إلى دينهم (الأمر الصادر عن يزدجرد الثاني الفارسيّ في العام الـ٤٤٩). فلجأوا إلى الاضطهاد حتّى العام الـ٤٨٤. وبعد إسقاط الملك آرتاشيس (٤٢٣–٤٢٨)، أصبحت المملكة الأرمنيّة مقاطعة فارسيّة. وفي العام الـ٤٥١، تحارب الأرمن مع الفرس في معركة أفارير، بالقرب من مدينة ماكو الإيرانيّة الحاليّة. وكانوا تحت إمرة فرطان ماميكونيان، المنحدر من إحدى عائلاتهم النبيلة. وبعد ذلك، ابتدأ الاحتلال العربيّ في منتصف القرن السابع (٦٥٤–٨٨٥). ترك الخلفاء الأمويّون (٦٥٤–٧٥٠)، الذين حكموا انطلاقًا من عاصمتهم دمشق، بعض الحكم الذاتيّ للأرمن. وخلفهم الخلفاء العبّاسيّون، ونقلوا العاصمة إلى بغداد وكان العرب قد احتلّوا دفين، العاصمة الأرمنيّة، نحو العام الـ٦٤٠. وفي أوائل القرن الثامن، نظّموا مقاطعة أرمينيا الجديدة، التي شملت، إضافة إلى أرمينيا، جيورجيا الشرقيّة،

وألبانيا القوقاس (أذربيجان)، وكان حاكمها من أصل عربيّ.

وقامت انتفاضات أرمنيّة، طوال القرن الثامن، ضدّ الاحتلال. وفي العام الـ٧٤٣، تحارب الأمراء الأرمن الماميكونيانيّون مع العرب. وحصل ذلك أيضًا لاحقًا بإمرة عائلة البغراتوني، التي تولت، بعد ذلك، الحكم في أرمينيا. وفي العام الـ٨٦٢، أطلق الخليفة العربيّ لقب «أمير أمراء أرمينيا» على آشتوط بغراتوني، وأعطاه في العام الـ٨٨٥ لقب «ملك» أرمينيا، باسم أشتوط الأوّل. وفي العام الـ٩١٩، لُقّب أشتوط الثاني (٩١٤–٩٢٨) باسم «ملك الملوك». وحظيت البلاد ببعض السلام في أيّامه. أمّا في الجنوب، فاعترف أمير أذربيجان العربيّ بأوّل ملك أرمنيّ على فاسبوراكان، وكان جاجيك الأوّل (٩٠٨–٩٤٣)، في العام الـ٩٠٨. وكان من السلالة الأرتسرونيّة، وكان له خلفاء حتّى العام الـ١٠٢١. ونقل الملك أشتوط الثالث البغراتوني، في العام الـ٩٦١، عاصمته إلى آني، التي عرفت أوجها، في عهد الملك جاجيك الأوّل البغراتوني (٩٨٩–١٠٢٠). وفي العام الـ١٠٤٥، احتلّ البيزنطيّون مدينة آني، وكلّ الممالك الأرمنيّة. وفي العام الـ١٠٧١، ربح الأتراك السلجوقيّون معركة مانتزيكيرت، بالقرب من بحيرة فان، ونظّموا سلطنة في منطقة وسط الأناضول، التي كان قد خسرها البيزنطيّون سابقًا. وبين العام الـ١١٣٧ والعام الـ١١٧٠، عاد البيزنطيّون، واحتلّوا كيليكية. أمّا الأتراك السلجوقيّون، فبدأوا احتلال أرمينيا في منتصف القرن الحادي عشر، وحكموها، من العام الـ١٠٦٤ إلى نحو العام الـ١١٩٩.

وبعد سقوط آني، في العام الـ١٠٦٤، زالت أرمينيا الكبرى

من الوجود، كدولة سياسيّة موحّدة. فغادرها الأرمن إلى الغرب، إلى كبادوكيا وكيليكية، حيث أسّسوا إمارات جديدة، ابتداءً من العام الـ١٠٧٣. أمّا مملكة كيليكية الأرمنيّة (١١٩٨-١٣٧٥)، فنشأت عند تنصيب الأمير ليون الثاني ملكًا عليها، في العام الـ١١٩٨، آخذًا اسم ليون الأوّل. وأصبحت سيس عاصمة المملكة الجديدة، واستمرّت إلى العام الـ١٢٩١. وخلال قرون ثلاثة، تركّزت الحياة الأرمنيّة السياسيّة والدينيّة في كيليكية. وفي العام الـ١١٢١، تغلّب الملك داود الثالث البغراتوني، حاكم جيورجيا، على الأتراك السلجوقيّين، واحتلّ أراضي شاسعة، شمال شرق أرمينيا. وفي العام الـ١١٩٩، استرجع الأمراء الأرمن من عائلة زكاريان، وقادة الجيش الجيورجيّ، مدينة آني من السيطرة التركيّة. وكان ذلك في عهد الملكة تمار، ابنة داود الثالث.

وفي العام الـ١٢٢٠، ظهر المغول في الأراضي الأرمنيّة، وحكموها إلى العام الـ١٣١٧. واحتلّوا آني، في العام الـ١٢٣٦، وتغلّبوا على الأتراك السلجوقيّين، في العام الـ١٢٤٣. وفي العام الـ١٢٥٤، ذهب ملك كيليكية الأرمنيّ، هيتوم الأوّل، إلى عاصمة كراكوروم، في منغوليا، ليعقد اتّفاقًا مع رئيس (خان) المغول. فكان للأرمن سلام مقبول، أيّام المغول. وفي العام الـ١٢٦٦، دخل المماليك المصريّون كيليكية، واحتلّوا مدينة سيس، في العام الـ١٣٧٥. وهكذا، انتهت مملكة كيليكية الأرمنيّة، التي مثّلت آخر دولة أرمنيّة مستقلّة، قبل بزوغ جمهوريّة أرمينيا (١٩١٨-١٩٢٠). وبدت آنذاك الكنيسة، المؤسّسة الأرمنيّة الوطنيّة الوحيدة القائمة.

وفي العام الـ١٢٨٨، أسّس عثمان الأوّل (المتوفّى في العام الـ١٣٢٦) السلالة العثمانيّة. وجعل ابنه أورهان عاصمته في بورسا،

البورسا القديمة، جنوب القسطنطينيّة. وفي العام الـ١٤٥٣، فتح السلطان محمّد الثاني (١٤٥١-١٤٨٠) القسطنطينيّة. فاتّسعت الأمبراطوريّة العثمانيّة بشكل ملحوظ وأسّست الجمهوريّة التركيّة، في العام الـ١٩٢٣. والأتراك هم من آسيا الوسطى، دخلوا الشرق الأوسط مع السلجوقيّين والعثمانيّين.

وفي آخر القرن الرابع عشر، ظهر تيمورلنك (المتوفّى في العام الـ١٤٠٥)، آتيًا من سامركند (في أوزبكيستان). فاحتلّ جنوب القوقاس، والأناضول، بما فيها الأراضي الأرمنيّة، خلال حملات ثلاث متتالية، قام بها في العام الـ١٣٨٧. بعد ذلك، لا نعرف الكثير عن التاريخ الأرمنيّ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ففي القرن الخامس عشر، حكمت أرمينيا وكيليكية قبائل تركيّة. وبين العام الـ١٥١٤ والعام الـ١٥١٧، احتلّ السلطان سليم الأوّل أرمينيا كلّها.

أمّا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيُقسم التاريخ الأرمنيّ إلى حقبتين هما: الحكم التركيّ في الغرب، والحكم الفارسيّ في الشرق. ففي العام الـ١٦٠٣، دخل عبّاس، الشاه الإيرانيّ، تبريز، ثمّ يريفان. وفي العام الـ١٦٣٩، حدّدت معاهدة قصر الشرين الحدود بين الفرس والعثمانيّين، فأخذ الفرس يريفان وكلّ البلاد التي تحلّ بعد القوقاس تقريبًا. وأخذ العثمانيّون العراق الحاليّ (بما في ذلك الموصل وبغداد) وبعض الأراضي الأرمنيّة الغربيّة. وفي العام الـ١٧٤٦، حدّدت معاهدة أخرى الحدود بين الأمبراطوريّتين العثمانيّة والفارسيّة، ولم تتغيّر حدود العام الـ١٦٣٩.

وفي العام الـ١٧٢٢، بدأ قيصر روسيا، بطرس الكبير (المتوفّى

في العام الـ١٧٢٥)، الحملة الروسيّة الأولى، في القوقاس. وفي أوائل القرن التاسع عشر، احتلّت روسيا البلاد ما بعد القوقاس. وفي العام الـ١٨١٣، وقّعت روسيا والفرس معاهدة، أنهت الحرب بينهما، وقضت بالاعتراف بالحكم الروسيّ في جيورجيا، والكراباخ، وأذربيجان. وبعيد حرب أخرى بينهما، في العام الـ١٨٢٨، وُقّعت اتّفاقيّة توركمينتشي، أصبحت من جرّائها كلّ البلاد القاطنة عبر القوقاس، من الحصّة الروسيّة، بما في ذلك قسم كبير من أراضي أرمينيا التاريخيّة. وفي العام الـ١٨٣٦، أُلغيت الامتيازات المعطاة من قبل بطرس الكبير، وكاترينا الثانية، لصالح الأرمن وكنيستهم، وحلّ مكانها نظام جديد، أخضع الكنيسة الروسيّة لسلطة الدولة الروسيّة، يسهر على شؤونها مندوب يعيّنه القيصر الروسيّ. وبين العام الـ١٨٠٤ والعام الـ١٨٧٨، قامت ستّ حروب متتالية، بين الروس والفرس والأتراك. وانتهت الحروب الروسيّة التركيّة، في العام الـ١٨٧٨، وفي معاهدة سان ستيفانو (في آذار ١٨٧٨)، أُعطيت روسيا القسم الشرقيّ من أرمينيا. عُدّلت هذه الاتّفاقيّة، في تموز من العام عينه، في مؤتمر برلين، الذي قضى بأن تنسحب الجيوش الروسيّة من شرق الأناضول، فرجعت هذه المنطقة إلى سلطة الأمبراطوريّة العثمانيّة. وساهم مؤتمر برلين في عمليّة تقزيم الأمبراطوريّة العثمانيّة، ووضع «القضيّة الأرمنيّة» على جدول أعمال الأمم. ومن العام الـ١٨٢٨ إلى العام الـ١٩١٧، كانت الأراضي الأرمنيّة مقسّمة بين الأمبراطوريّة الروسيّة، المحتلّة الجزء الشرقيّ، والأمبراطوريّة العثمانيّة، المحتلّة الجزء الغربيّ. وفي أواخر القرن التاسع عشر، ظهر عدد من الأحزاب الأرمنيّة، الأرمينكان في العام الـ١٨٨٥، والهنتشاك في العام الـ١٨٨٧، والطشناك في العام الـ١٨٩٠.

وابتداءً من العام الـ١٨٦٠، تعرّض الأرمن العائشون ضمن حدود الأمبراطوريّة العثمانيّة، لمضايقات شتّى، وانعدم الأمن في مناطق سكنهم. فقام الأرمن بانتفاضات محلّيّة، مثلاً في ساسون (في العام الـ١٨٩٤ والعام الـ١٩٠٤)، وفي زيتون (في الأعوام الـ١٨٦٢، والـ١٨٧٥ الـ١٨٧٨، والـ١٨٩٥ الـ١٩٠٩). وبدأت المذابح، في أواخر القرن التاسع عشر، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٨٩٦)، أقلقت لأوّل مرّة الرأي العامّ الأوروبّيّ. وكذلك حدثت اضطرابات خطيرة في القوقاس، بين الأرمن والتتر في العام الـ١٩٠٥. وفي أيلول من العام الـ١٩١٨، ذُبح نحو ثلاثين ألف أرمنيّ، في باكو، في أذربيجان. وفي العام الـ١٩٠٨، قام الأتراك الجُدد بثورة عسكريّة، أسقطت السلطة العثمانيّة. وفي العام الـ١٩٠٩، ذُبح عدد من الأرمن يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفًا، في أضنة، في كيليكية. وفي العام الـ١٩١٣، قامت اللجنة من أجل الوحدة والتقدّم، بانقلاب في إسطنبول، واستلم الحكم طلعت، وأنيفير ودجمال. أمّا مذبحة الأرمن الأساسيّة، التي دامت من العام الـ١٩١٥ إلى العام الـ١٩١٦، فبدأت في الرابع والعشرين من نيسان العام الـ١٩١٥، بقتل العديد منهم، في منطقة الأناضول (في تركيا حاليًّا)، وبنفي الباقين إلى صحراء سورية والعراق. مات ثلثا السكّان الأرمن، الذين كانوا يعدّون نحو المليونين، بين العام الـ١٩١٥ والعام الـ١٩٢٢، في ظروف مروّعة، كما تُبيّن الوثائق الأرمنيّة والعالميّة. حكومة الأتراك الجدد مسؤولة عن تلك المجازر، رغم نفي الحكومة التركيّة الحاليّة، إذ هناك العديد من الوثائق والشهادات، بما في ذلك تلك الصادرة عن دبلوماسيّين، ومبشّرين أجانب، كانوا من الشهود العيان. وفي العام الـ١٩٨٧، اعترف البرلمان الأوروبّيّ بحصول تلك

المجازر، الساعية إلى إبادة شعب بكامله.

وفي العام الـ١٩٢٣، سقطت الأمبراطوريّة العثمانيّة، وحلّت مكانها الجمهوريّة التركيّة، بقيادة الرئيس مصطفى كمال، المدعو أتاتورك. وفي العام الـ١٩١٧، حصلت الثورة البولشفيّة، في روسيا. وفي ٢٨ أيّار من السنة الـ١٩١٨، أعلنت الجمهوريّة الأرمنيّة المستقلّة، وعاصمتها يريفان، ولكنّ لم يطل عمرها. وفي ٢٩ تشرين الثاني من العام الـ١٩٢٠، قرّر عدد من الأرمن الالتحاق بالثورة السوفياتيّة، واستنجدوا بالجيش الأحمر. تبع ذلك اتّفاق أُبرم في الثاني من كانون الأوّل. وفي نيسان من العام الـ١٩٢١، أصبحت أرمينيا بموجبه واحدة من جمهوريّات الاتّحاد السوفياتيّ. وحدّدت اتّفاقيّة كارس، في ١٣ تشرين الأوّل من العام الـ١٩٢١، حدود أرمينيا الحاليّة. وكان وضع الكنيسة الأرمنيّة، أثناء الحكم الشيوعيّ، من العام الـ١٩٢٠ إلى العام الـ١٩٩١، صعبًا للغاية، كما شغُر كرسيّ إتشميادزين في بعض الفترات. وُضعت اليد على ممتلكات الكنيسة، وهُدم عدد من الكنائس، أو حُوّل استعمالها لأغراض أخرى. ومُنع كليًّا، ابتداءً من العام الـ١٩٢٩، التعليم الدينيّ، وقُتل العديد من الكهنة والرهبان، وعُزل بعضهم. وضُمّت أرمينيا، في آذار من العام الـ١٩٢٢، إلى جيورجيا وأذربيجان، في اتّحاد الجمهوريّات الاشتراكيّة السوفياتيّ والذي تحوّل، في كانون الأوّل من العام الـ١٩٢٢ إلى الجمهوريّة الفيديراليّة الاشتراكيّة السوفياتيّة لبلاد عبر القوقاس. وفي العام الـ١٩٢٣، أخرجت مقاطعة الكراباخ الأعلى من الاتّحاد، وتبعتها مقاطعة ناخيتشيفان، في العام الـ١٩٢٤، وضُمّتا إلى جمهوريّة أذربيجان السوفياتيّة. في هاتين المنطقتين كنائس وأديرة أرمنيّة، تعود إلى القرون الوسطى.

أمّا على الصعيد الدوليّ، فاشترك بمؤتمر السلام، الذي انعقد، في باريس، في العام الـ١٩١٩، وفدان أرمنيّان، ترأس واحدهما أفيديس أهارونيان، ممثّلاً جمهوريّة أرمينيا، والآخر ترأسه الباشا بوغوس نوبار، من مصر، وكان رئيس الوفد الوطنيّ الأرمنيّ، المعيّن من قبل كيفورك الخامس، كاثوليكوس إتشميادزين (١٩١١-١٩٣٠) لتمثيل أرمن الأمبراطوريّة العثمانيّة. وفي آب من العام الـ١٩٢٠، اعترف اتّفاق سيفر، في فرنسا، الذي وقّعته الحكومة التركيّة، بالجمهوريّة الأرمنيّة المستقلّة، وطلب من تركيا التخلّي عن المقاطعات الأرمنيّة الستّ، الواقعة على حدودها الشرقيّة. لكن ألغت اتّفاقيّة لوزان، في العام الـ١٩٢٣، مقرّرات اتّفاقيّة سيفر، وحدّدت حدود الدولة التركيّة الحاليّة، ما عدا الصنجق أو الصندجق. ووُضعت «القضيّة الأرمنيّة» في خانة القضايا غير المحلولة. فذُبح الأرمن، مجدّدًا، في كيليكية، في العام الـ١٩٢٠، كما حدثت في تركيا في العام الـ١٩٢٣ مجازر كبيرة بحقّ الأرمن واليونانيّين.

وفي كانون الثاني من العام الـ١٩٢٢، خرج الفرنسيّون من كيليكية، التي كانوا قد احتلّوها في العام الـ١٩١٩، بموجب اتّفاق سايكس بيكو، الموقّع سرًّا في العام الـ١٩١٦، والذي وضع لبنان وسورية، وكيليكية، والصنجق، تحت الرعاية الفرنسيّة. وفي العام الـ١٩٣٩، عندما انسحب الفرنسيّون من الصنجق، الذي كانت أعطته تركيا سابقًا إلى فرنسا، أجبر الأرمن على مغادرة منطقته أيضًا. وفي العام الـ١٩٣٦، أصبحت أرمينيا، واحدة من جمهوريّات الاتّحاد السوفياتيّ، مع جيورجيا وأذربيجان.

وتأثّرت أرمينيا، بين الأعوام الـ١٩٣٦ والـ١٩٣٨، من جرّاء

الحملات التي أطلقها ستالين (١٩٢٩-١٩٥٣) ضدّ الدين. وفي آخر المرحلة الستالينيّة، لم يبقَ في أرمينيا سوى نحو عشر كنائس مفتوحة للخدمة، ثلاث منها موجودة في يريفان. وفي ما بعد، أثّرت الحروب التي قامت في الشرق الأوسط، على مصير أحفاد الأرمن الذين لجأوا اليه، بعد المذابح. وفي العام الـ١٩٧٥، أجبرت حرب لبنان الأهليّة العديد من الأرمن، على مغادرة البلاد. وحدث الشيء عينه، بعيد الثورة الإيرانيّة، في العام الـ١٩٧٩. وفي العام الـ١٩٨٨، بدأت الحرب بين أرمينيا وأذربيجان، نتيجة نزاعهما بشأن الكراباخ العليا، ولم تتوقّف هذه الحرب قبل السنة الـ١٩٩٤. ومع بدء هذه الحرب، ضرب زلزال أرمينيا، في السابع من كانون الأوّل، وتسبّب بموت أكثر من خمسة وعشرين ألف شخص، وتشريد بضع مئات الألاف الآخرين.

وفي العام الـ١٩٩١، سقط الاتّحاد السوفياتيّ، وبادرت الدولة إلى استرجاع الكنائس والأديرة الأرمنيّة، كما أعيدت دور العبادة في مناطق أخرى. وحصلت أرمينيا على استقلالها، في العام الـ١٩٩١، وترأسّها ليفون تير بتروسيان. وفي العام الـ١٩٩٨، اعتلى الرئاسة روبير كوتشوريان، وخلفه، في شباط الـ٢٠٠٨، سيرج سركسيان.

ومنذ العام الـ١٩٩١، أصبحت أرمينيا عضوًا في مجموعة الدول المستقلّة CEI، التي ضمّت اثنتي عشرة من الجمهوريّات السوفياتيّة السابقة. وفي العام الـ٢٠٠٠، قَبِل المجلس الأوروبّيّ، طلب انتساب أرمينيا إليه، وقَبِل عضويّتها فعلاً، في العام الـ٢٠٠١.

الفصل الثاني

الشتات الأرمنيّ

اليوم، تتوزّع جاليات أرمنيّة على مختلف أنحاء العالم. وقُدِّر في العام الـ٢٠٠٨، أنّ ثلاثة ملايين أرمنيّ فقط، من أصل نحو عشرة ملايين، يعيشون في أرمينيا. ويمكن أن يكون هذا العدد مُبالغًا به، لأنّ كثيرين من المقيمين في أرمينيا غادروها لأسباب اقتصاديّة. ويقطن روسيّا مليونان من ضمن سبعة ملايين أرمنيّ مقيمين في الشتات.

اختلفت نوعيّة الهجرات الأرمنيّة العديدة، عبر التاريخ، واختلفت أسبابها. لذلك من الصعوبة بمكان الإحاطة بها كليًّا. هاجر بعض الأرمن لتوطيد علاقاتهم التجاريّة، فذهبوا أوّلاً إلى جيرانهم (جيورجيا، وبلاد فارس، وما بين النهرين، وسورية)، ثمّ ذهبوا إلى أبعد (بيزنطية، ومصر، وأوروبّا). وكانت أرمينيا منذ القرن العاشر ممرًّا تجاريًّا، وصل إلى أوجه، في القرن الثالث عشر. أمّا أسباب هجرة الأرمن الثانية، فكانت الحروب التي مرّت عليهم، عبر العصور، والنفي الذي تعرّضوا له نتيجة بعضها. أضف إلى ذلك مساهمة الفقر والأسباب الاقتصاديّة في تشجيع الهجرة.

تكوّنت الجاليات الأرمنيّة، في القرن العشرين، بعد مجازر أضنة (في أواخر القرن التاسع عشر)، وإبادة العام الـ١٩١٥، ثمّ استمرّت من جرّاء اضطرابات الشرق الأوسط السياسيّة (حرب لبنان منذ العام الـ١٩٧٥، والثورة الإيرانيّة، في العام الـ١٩٧٩...)، وأخيرًا بعد الانفتاح الذي سبّبته البريسترويكا، في الاتّحاد السوفياتيّ. ويصعب

تحديد عدد الأرمن المقيمين في كلّ واحد من بلاد الاغتراب، بخاصّة لأنّهم يتنقّلون كثيرًا من بلد إلى آخر، ولأنّه لا يوجد أيّ عدد رسميّ. وتعطي المقالات العلميّة، مثل موسوعة الانتشار الأرمنيّ، التي صدرت في يريفان، في العام الـ٢٠٠٣، وغيرها، أرقامًا متضاربة. لذلك، يجب اعتبار الأرقام الواردة في هذا الكتاب، بشيء من الحذر، مع أنّني راجعتها مع السلطات الأرمنيّة الكنسيّة، القائمة في بلاد الاغتراب.

وقبل الوصول إلى الأرقام، لا بدّ من التفسير لماذا يوجد، في بعض البلدان، أبرشيّات ورعايا، تابعة في آن، لكاثوليكوسيّتي إتشميادزين وكيليكية. بدأت هذه الظاهرة في الفترة السوفياتيّة، حيث اعتبر الأرمن المهاجرون أنّ الكاثوليكوسيّة الأرمنيّة، في جمهوريّة أرمينيا السوفياتيّة، تخضع للحكومة الشيوعيّة، وفضّلوا الالتحاق بكاثوليكوسيّة كيليكية، ما زاد آنذاك الشرخ بين المركزين، وبخاصّة في العام الـ١٩٥٦. سعى الطرفان إلى التقارب، لكن بدون جدوى. وأعاد انتخاب الكاثوليكوس كريكين (المتوفّى في العام الـ١٩٩٩) كاثوليكوسًا على كرسيّ إتشميادزين، في العام الـ١٩٩٥، بعد أن كان كاثوليكوس كيليكية (١٩٨٣-١٩٩٤)، العلاقة والتعاون بين الكرسيّين.

يذكر تقويم إتشميادزين لسنة الـ٢٠٠٩، ثماني أبرشيّات في أرمينيا، في يريفان، وغومري، وغوغرك، وأرمفيك، وكوتيك، وغيغركونيك، وسيونيك، وأراغدزوم، وأبرشيّة واحدة في الكراباخ (أرتساك). وتتبع كاثوليكوسيّة إتشميادزين، البلدان التالية خارج أرمينيا: روسيا (مركز الأبرشيّات في موسكو وكراسنودار)، وجيورجا (تبيليسي)، وأوكرانيا (لفوف)، وأذربيجان (باكو)، وفرنسا (باريس)، وإنكلترا (لندن)،

واليونان (أثينا)، ورومانيا وبلغاريا (بوخارست)، وألمانيا (كولوني)، وسويسرا (فيينا)، وممثّل لدى أوروبّا الغربيّة (باريس)، وممثّل لدى أوروبّا الوسطى (فيينّا)، وكندا (مونتريال)، والولايات المتّحدة (نيويورك، ولوس أنجليس)، والأرجنتين (بوينوس أيريس)، والبرازيل (ساو باولو)، والأوروغواي (مونتيفيديو)، ومصر (القاهرة)، وسورية (دمشق)، والعراق (بغداد)، وإيران (أبرشيّات أذربيجان الإيرانيّ، وطهران، وأصفهان)، وأستراليا ونيو زيلندة (سيدني).

أمّا الأبرشيّات والهيئات التمثيليّة التابعة لكاثوليكوسيّة كيليكية، ومقرّها في إنطلياس، في لبنان، فهي لبنان (بيروت)، وشمال سورية (حلب)، وممثّليّة دمشق، وقبرص (نيقوسيا)، واليونان (آثينا)، وإيران (طهران، أصفهان، تبريز)، والكويت والخليج (السالميّة، الكويت)، والولايات المتّحدة (نيويورك، لا كريستتا في كاليفورنيا)، وكندا (مونتريال)، وفينيزويلا (كراكاس).

إذا اعتبرنا الموقع الجغرافيّ والسياسيّ، تشمل الجماعات المنتمية إلى الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة في الشتات، أوّلاً البلدان القريبة من أرمينيا، بما فيها جمهوريّات الاتّحاد السوفياتيّ السابقة، ثمّ أوروبّا الشرقيّة والغربيّة، فالشرق الأوسط، وإفريقيا، وأميركا الشماليّة والجنوبيّة، وأخيرًا أستراليا وآسيا.

جيورجيا

ويعيش الأرمن في بلدان الاتّحاد السوفياتيّ سابقًا، وفي جيورجيا بصورة خاصّة، في غالبيّتهم في المدن الكبيرة. وهناك جاليّات أرمنيّة

وكنائس، في المقاطعات الشرق القوقاسيّة، من جمهوريّة روسيا. سكن الأرمن تفليس (جيورجيا الآن تبيليسي) من أعمال جيورجيا، منذ تأسيسها، في القرنين الخامس والسادس. وتزايد عددهم أوّلاً بعد سقوط آني، ثمّ في عهد الملكة تمار (١١٨٤–١٢١٣). وشُيّدت كاتدرائيّة القدّيس جاورجيوس، في العام الـ١٢٥١. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، توسّع حجم الجالية الأرمنيّة في جيورجيا كثيرًا، وكان لها أربع وعشرون كنيسة، بقي منها الآن أربع عشرة فقط. وفي أيّام البريسترويكا، وصل عدد الأرمن إلى نحو أربعمائة ألف أي أكثر من العدد الحاليّ.

أذربيجان

وفي العام الـ١٨٢٨، ترك العديد من الأرمن إلى أذربيجان، الذي كان ينتمي تاريخيًّا للأمبراطوريّة الفارسيّة، متّجهين إلى أرمينيا، ونخيتشيفان، والكراباخ. وكانت تُعتبر باكو، في العام الـ١٩١٧، ثالث المدن الأرمنيّة في العالم، بعد القسطنطينيّة وتفليس، لأنّ كثيرًا من الأرمن، ومنهم من الأثرياء، سكنوها. وفي العام الـ١٩١٨، هُدم العديد من الكنائس. ونتيجة النزاع بين الأرمن وأذربيجان (١٩٨٨–١٩٩٤)، صار تبادل السكّان، في العام الـ١٩٩٠، وتوقّف نشاط أبرشيّة أذربيجان الأرمنيّة بعد أن هجرها جميع الأرمن.

روسيا

وسكن موسكو تجّار أرمن، منذ القرن السادس عشر. وبُنيت أوّل كنيسة أرمنيّة، في أستركان، في العام الـ١٦٣٠، وكانت مصنوعة

من خشب، ثمّ تحوّلت إلى بناء حجريّ، في العام الـ١٧٠٦. وأصبحت أستركان مقرّ أبرشيّة أرمنيّة، في العام الـ١٧١٦. وعندما أصبحت سان بيترسبورج عاصمة روسيا، في العام الـ١٧١٢، جاءها الأرمن سريعًا، وبنوا فيها أوّل كنيسة، في العام الـ١٧٤٠. وسمحت لهم، بعدئذ، الأمبراطورة كاترينا الثانية (١٧٦٢–١٧٩٦)، ببناء كنيسة ثانية، في شارع النيفا. وفي العام الـ١٧٧٣، صار هوسيب (يوسف) أرغوثيان، رئيس أساقفة أرمن روسيا. ونتيجة أمر صدر عن الأمبراطورة، في العام الـ١٧٧٩، قامت جالية أرمنيّة جديدة، في نخيتشيفان الجديدة، التي اندمجت، في ما بعد، مع مدينة روستوف على الدون. وفي العام الـ١٩٦٦، أعيد تنظيم الأبرشيّة الأرمنيّة في روسيا، وأصبح مقرّها موسكو. وفي العام الـ١٩٩٧، أعيد إحياء أبرشيّة جنوب روسيا، ومقرّها في كراسنودار. وفي العام الـ٢٠٠٨، قُدّر عدد الأرمن، في روسيا، بما يزيد على المليونين. ويُصار الآن إلى بناء مركز جديد للأبرشيّة، في موسكو، بالقرب من محطّة الميترو المدعوّة بروسكت ميرا الجديدة، يحتوي على كاتدرائيّة، ومركز ثقافيّ، ومدرسة.

روسيا البيضاء

أمّا روسيا البيضاء، فيسكنها فقط نحو خمسة وعشرين ألف أرمنيّ، غالبيّتهم في العاصمة مينسك، حيث يُخطط لمشروع بناء كنيسة، إذ لا كنيسة أرمنيّة في البلاد.

أوكرانيا

ويرجع الوجود الأرمنيّ في كييف، في أوكرانيا، إلى عهد الأمير الكسندر، في القرن الحادي عشر، كما أُسّست أسقفيّة أرمنيّة هناك، في

العام الـ١٣٧١. وعاشت جالية أرمنيّة كبيرة في بلاد القرم، في القرن الثالث عشر، مع أسقفيّة لهم في كفّا، وكنيستين، في العام الـ١٣٦٦. وزاد عدد الرعايا الأرمنيّة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت مدينة لفيف (لفوف القديمة)، تُعتبر عاصمة أرمن أوروبّا الشرقيّة. وشيّدت فيها كنيسة حجريّة، في العام الـ١٣٦٣، وتأسّست أسقفيّة، في الستّينات من القرن الثالث عشر. وأعيدت إلى الوجود، في العام الـ١٩٩٧ بعد انتهاء الحقبة السوفياتيّة. وتبقى مدينة لفوف مركز حجّ للأرمن. وفي العام الـ٢٠٠٩، كان ما يزال يعيش في أوكرانيا مئات الآلاف من الأرمن، بخاصّة في يالطا، وبلاد القرم، وسيبستوبول، وأوديسّا، وخرسون، وكييف العاصمة، حيث يُصار إلى بناء كنيسة.

ولدى الكنيسة الأرمنيّة، الآن، مشروع كبير لبناء عدد من الكنائس، وتأسيس رعايا جديدة، في روسيا، وأوكرانيا، وفي الدول البلطيّة الثلاث. وسوف تُبنى، في روسيا قريبًا، كنائس في بيرم، وإيكاترنبورغ، ونوفوسيبيرسك.

آسيا الوسطى

كان هناك في آسيا الوسطى، قبل الثورة الروسيّة، في العام الـ١٩١٧، خمس عشرة كنيسة أرمنيّة، في أشكباد، وميرف، وكراسنوفودسك (في تركمينيستان)، وكيزيل أرفات، وبوخارا، وسامركند، وطشكنت، وكوكاند (في أوزبكيستان)، وكانت تتبع في الأصل لرئيس أساقفة أستراكان. وأغلقت جميعها، ما عدا اثنتين، في العام الـ١٩٢٠، وأُغلقت الكنيستان الأخريان، بعد عشر سنوات. ولم تكن أيّ كنيسة أرمنيّة، مفتوحة للخدمة، قبيل البريسترويكا، في جمهوريّات آسيا الوسطى

الخمس، مع أنّ عدد الأرمن كان يتجاوز مئة وخمسين ألفًا. ويخدم كنيسة والدة الإله في سامركند، المبنيّة في العام الـ١٩٠٣، منذ البريسترويكا، كاهن واحد. وتُبنى كنيسة أخرى، في المحطّة، في كزاكستان.

وفي العام الـ٢٠٠٩، تبعت جميع بلدان آسيا الوسطى، لأبرشيّة موسكو، كما تبعت لها جالية سان بيترسبورج، والبلاد البلطيّة (فيها كنائس في ريغا، وفيلنيوس)، وكالييننغراد، وروسيا البيضاء، ومولدافيا.

أوروبّا الشرقيّة

ويعود تاريخ الجالية الأرمنيّة في بعض بلاد أوروبّا الشرقيّة، إلى الحقبة البيزنطيّة، إذ عُرفت جماعات أرمنيّة في بولونيا، ورومانيا، وبلغاريا، منذ القرون الوسطى. ولكن أجبر العديد من الأرمن في بولونيا، وبعض مناطق ترانسيلفانيا، وهنغاريا، الخاضعة لحكم الهبسبورغ، وبلاد أخرى من أوروبّا الشرقيّة، على اعتناق الدين الكاثوليكيّ. وازدهرت الجالية الأرمنيّة في بولونيا، في عهد الملك كازيمير الثالث، الذي منحها امتيازات خاصّة تجاريّة، في مدن لفوف، وكامينتس بودولسكي، التي كان يعيش فيها أكبر عدد من الأرمن في بولونيا (وأصبحت المدينتان الآن في أوكرانيا). وتأسّست مؤخّرًا رعيّة أرمنيّة رسوليّة في فرسوفيا.

رومانيا

ذوصل الأرمن إلى ولاية مولدافيا، في رومانيا، منذ القرن الحادي عشر. وشُيّدت كنائس في معظم المدن الكبرى، ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع عشر، في بودوشان، نحو العام الـ١٣٥٠، ثمّ

في رومان ويشّي. كما تأسّست مدينتان أرمنيّتان، نحو العام الـ١٧٠٠، في ترانسيلفانيا، في أيرزبتفاروس اليزابيثبول (الآن، دومبروافني)، وزساموس أوجفار أرمنيرشتادت (الآن غيرلا)، اعتبرهما شارل السادس، أمبراطور النمسا (١٧١١ – ١٧٤٠)، «مدينتين حرّتين». هاجر معظم الأرمن بعد مجيء الحكم الشيوعيّ. وما يزال يعيش ثلاثة آلاف أرمنيّ اليوم، في بوخارست.

مولدافيا

وشُيّدت كنائس أرمنيّة، في القرن الرابع عشر، في مولدافيا، في بوتوساني (١٣٥٠)، وأكّرمان (١٣٨٠)، حيث تأسّس، في القرن الخامس عشر، مركز مرموق للدراسات الأرمنيّة. وعاشت منذ القرن السابع عشر، جالية كبيرة في شيزينو، حيث يعود بناء كنيسة والدة الإله القديمة، إلى العام الـ١٨١٢. أمّا في أوائل القرن التاسع عشر، فكانت تسكن غالبيّة الأرمن غريغوريوبول، المدينة التي أمرت كاترينا الثانية، أمبراطورة روسيا، ببنائها. هُدم العديد من الكنائس الأرمنيّة خلال الحقبة السوفياتيّة، أو أُغلق. ويعيش الآن معظم الأرمن في مولدافيا، في شيزينو، وبيلتسي، وغريغوريوبول.

بلغاريا

الأرمن في تراسيا، أي بلغاريا الحاليّة، منذ الزمن البيزنطيّ، إذ هاجرت إليها أعداد كبيرة جدًّا في القرنين التاسع والعاشر، حيث سكنوا في فيليبوبوليس (الآن بلوفديف)، وأسّسوا أسقفيّة فيها في أواخر القرن الثاني عشر. وبُنيت كنيسة روستشوك (الآن روسيا)،

في العام الـ١٦١٠. وفي العام الـ١٦٧٣، بُنيت كنيسة أخرى في صوفيا، حيث تُبنى كاتدرائيّة الآن. ومنذ العام الـ٢٠٠٨، يعيش، في بلغاريا، نحو خمسة وعشرين ألف أرمنيّ، في مدن بلوفديف، وصوفيا، وفارنا، وروسيا، وبورغاس.

هنغاريا، تشيكيا، اليونان وألبانيا

وحلّ الأرمن في هنغاريا، في عهد الملك إتيان (٩٩٧-١٠٣٨). وأعطى الملكان، أندره الثاني، وبيلا الرابع، امتيازات للتجّار الأرمن، في القرن الثالث عشر. وفي العام الـ٢٠٠٩، كان كاهن أرمنيّ واحد يخدم، في بودابست. هاجر على الأقلّ عشرة آلاف أرمنيّ إلى الجمهوريّة التشيكيّة، أيّام البريسترويكا. أمّا في اليونان، فيرجع الوجود الأرمنيّ إلى أيّام بيزنطية. وفي العام الـ١٧٣٧، كان يعيش الأرمن في ما يقارب ثلاثين قرية ومدينة، بخاصّة في غزانطي، وتسالونيكي، وكفالا. وفي العام الـ٢٠٠٨، كان يناهز عدد الأرمن، في اليونان الخمسين ألفًا، يقطنون بخاصّة في آثينا وتسالونيكي، على أنّ هذا العدد يبقى تقريبيًّا إذ تستمرّ الهجرة إلى اليونان، من أرمينيا. واستقرّ بعض الأرمن في ألبانيا، في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، لكنّهم خسروا ممتلكاتهم، في العام الـ١٩٤٦، على يد الشيوعيّين. وفي العام الـ٢٠٠٧، ما يزال يعيش نحو أربعماية أرمنيّ، في مدينة تيرانا.

فرنسا

أمّا الجالية الأرمنيّة في فرنسا، فهي الأكبر في كلّ أوروبّا الغربيّة، وتعدّ نحو أربعماية وخمسين ألفًا، أغلبيّتهم في باريس وجوارها

(الفورت فيل، وأرنوفيل، وإيسّي له مولينو، وكلامار)، ومرسيليا، وليون، وفالانس. وتعود علاقة الأرمن بفرنسا إلى أيّام الصليبيّين. وفي أواخر القرن التاسع عشر، سكن العديد من التجّار الأرمن، في مرسيليا، حيث شيّدوا أوّل كنيسة أرمنيّة رسوليّة، في العام الـ١٨٨٢. وبُنيت كاتدرائيّة باريس، في شارع جان غوجون، في العام الـ١٩٠٤. واعتُرف بالكنيسة الأرمنيّة رسميًّا، في ليون، في العام الـ١٩١٨. أحصيت إحدى وعشرون رعيّة تابعة للكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة في فرنسا، في العام الـ٢٠٠٩. وأعلن في كانون الأوّل من العام الـ٢٠٠٦، عن تأسيس أبرشيّة أرمنيّة في فرنسا، ومقرّها باريس. ومنذ أيّار الـ٢٠٠٩، أصبح رئيس أساقفة باريس الأرمنيّ مرسلاً رسوليًّا على بلاد أوروبّا الغربيّة التالية: بلجيكا، وهولندا، ولوكسنبورغ، وإسبانيا، والبرتغل. وفي فالانس مركز أبحاث عن الشتات الأرمنيّ، افتُتح في العام الـ٢٠٠٥.

إنكلترا

واستقرّت جالية أرمنيّة، منذ العام الـ١٨٣٠، في مانشيستر، عاصمة النسيج، في بريطانيا العظمى، وأتى أفراد الجالية، وأغلبهم تجّار، من حلب، ودجولفا الجديدة، ومصر، والهند. وبُنيت كنيسة في العام الـ١٨٧٠. وتوسّعت الجالية، بعد العام الـ١٩١٥، وأيضًا بعد العام الـ١٩٤٧، بعيد استقلال الهند. وفي العام الـ١٩٧٤، أتى الأرمن من قبرص، ثمّ من إيران، ومن بلاد أخرى من الشرق الأوسط، في أواخر السبعينات من القرن العشرين، وأوائل الثمانينات. وكان يتراوح عدد الأرمن، في بريطانيا في العام الـ٢٠٠٨، بين عشرة آلاف واثني عشر ألفًا، معظمهم يقطن لندن.

سويسرا

وبعد مجازر الـ١٨٩٧، وقّع السويسريّون صكًّا وطنيًّا، يقضي بمناصرة الأرمن، ومتابعة أحوالهم، خلال مؤتمر لوزان، فساعدوا اللاجئين منهم، واهتمّوا بالأيتام، في تركيا والشرق الأوسط، كما في سويسرا ذاتها، حيث أنشئ، في العام الـ١٩١٨، اتّحاد أصدقاء الأرمن السويسريّ بغية الدفاع عنهم، واستقبال أيتامهم. وكان يأتي كاهن من باريس، لإقامة الخِدَم الكنسيّة في جنيف. وفتحت أوّل رعيّة أبوابها، في أواخر العشرينات من القرن العشرين. أمّا كنيسة القدّيس يعقوب، في تروانيكس، بالقرب من جنيف، فتكرّست في العام الـ١٩٦٩. وقُدّر عدد الأرمن في سويسرا، في العام الـ٢٠٠٨، بنحو أربعة آلاف، لهم كاهنان، وستّ رعايا.

النمسا

وأتى إلى النمسا بعض الأرمن، في العام الـ١٦٨٣، ثمّ في أوائل القرن الماضي. وتأسّست أبرشيّة، في العام الـ١٩٨٠. ويقطن الأرمن غالبًا في فيينّا، حيث الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة الوحيدة في البلاد. أمّا أبرشيّة الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة لأوروبّا الوسطى (النمسا، ألمانيا والسويد)، فتأسّست، في العام الـ١٩٨٠، ومركزها فيينّا. وفي العام الـ١٩٩١، ما عادت تشمل ألمانيا، بل أضيفت إليها هنغاريا، والجمهوريّة التشيكيّة، وسلوفاكيا، وجميع البلدان السكندينافيّة.

ألمانيا

أمّا في ألمانيا، بعد أن عاشت مجموعات صغيرة من الأرمن،

في أوائل القرن العشرين، ازداد عددها في الخمسينات من القرن العشرين، وأصبح، في العام الـ٢٠٠٨، يناهز الأربعين ألف شخص، أربعة آلاف وخمسماية منهم يقطنون كولون حيث مقرّ الأبرشيّة، منذ العام الـ١٩٩١.

بلجيكا وهولندا

وأتى إلى بلجيكا أرمن من القسطنطينيّة، أغلبهم من تجّار الألماس والتبغ. وكانت لهم كنيسة واحدة، في بروكسيل، في العام الـ٢٠٠٨، كرّست في العام الـ١٩٩٠. أمّا أمستردام، في هولندا، فأمّها أوّلاً تجّار أرمن، حضروا من الدجولفا الجديدة، وكانت لهم كنيسة في العام الـ١٧١٣. وبعد نيل أندونيسيا استقلالها، في العام الـ١٩٤٨، التحق بهم مهاجرون جدد.

البلدان السكندينافيّة

وكانت للأرمن علاقات مع البلدان السكندينافيّة، ربّما في القرون الوسطى. أمّا العلاقات التجاريّة مع السويد، فانطلقت، في القرن السادس عشر، مع فتح الطريق التجاريّة، من الدجولفا الجديدة إلى موسكو والبحر الأسود، عبر البحر القوقاسيّ. والآن هناك، بعض الرعايا الصغيرة، لا يتعدّى عدد أعضائها سبعة آلاف، معظمها في السويد، ولكن أيضًا في الدانمارك، والنروج، وفنلندا.

إيطاليا

هناك كنائس أرمنيّة في جنوب إيطاليا، منذ الحقبة البيزنطيّة، مثلاً

في باري، وترينتو، وماتيرا. وازدادت الهجرة أيّام الحملات الصليبيّة، بخاصّة إلى موانئ جينوا، وبيزا، وفي ما بعد، إلى ليفورن. وأصبحت البندقيّة، في القرن الثامن عشر، المركز الثقافيّ الأبرز للأرمن، في أوروبّا الغربيّة. وكان يُقيم في إيطاليا، وبخاصّة في ميلانو، في العام الـ٢٠٠٨، عدد من الأرمن يزيد على الألفين.

إسبانيا

بدأت مؤخّرًا هجرة أرمنيّة إلى إسبانيا، آتية من أرمينيا، تعدّ نحو عشرين ألف شخص. منذ العام الـ٢٠٠٩، هناك رعيّة في برشلونة.

الشرق الأوسط

وفي الشرق الأوسط، لجأ معظم أرمن كيليكية الناجين من مجازر الـ١٩١٥، والذين تركوا بلادهم، بعد انسحاب فرنسا من كيليكية، في العام الـ١٩٢٢، إلى سورية ولبنان، اللذين كانا آنذاك تحت الانتداب الفرنسيّ. ولكن اضطرّ عدد منهم إلى الهجرة مجدّدًا إلى بلاد أخرى، نتيجة الاضطرابات السياسيّة فيهما.

تركيا

ويَعتبر أرمن شمال تركيا الحاليّة، حيث عاشوا مئات السنين قبل مجازر الـ١٩١٥، أرضًا أرمنيّة. وكانت الجالية الأرمنيّة، في القسطنطينيّة، كبيرة قبل أن تُصبح المدينة عاصمة الأمبراطوريّة العثمانيّة، منذ العام الـ١٤٥٣. وافق السلطان محمّد الثاني، على تأسيس بطريركيّة أرمنيّة، في القسطنطينيّة، في العام الـ١٤٦١. وأصبح البطريرك القسطنطينيّ

رئيس ملّة الأرمن، الدينيّ والسياسيّ معًا، في تركيا وكلّ الشرق الأوسط. ولذلك كان يُعتبر آنذاك الشخصيّة الأهمّ ضمن الكنيسة الأرمنيّة. ووُضع في العام الـ١٨٦٠، نظام وطنيّ أرمنيّ للاهتمام بشؤون الأرمن، في الأمبراطوريّة العثمانيّة. وكان يحدّد مسؤوليّات البطريرك ويعطي دورًا للعلمانيّين في الشأن الطائفيّ. وافق السلطان على هذا النظام، مع بعض التعديلات، في العام الـ١٨٦٣. وكانت القسطنطينيّة ما تزال، في مطلع القرن العشرين، «مدينة الأرمن الأولى». ولكن خسرت البطريركيّة جميع امتيازاتها، بعد العام الـ١٩١٥، وهُدمت معظم الكنائس، والمباني الأرمنيّة العامّة، في شرق تركيا، كما نُفي الأرمن، كهنة وعلمانيّين، أو ذبحوا. وما يزال مقرّ البطريركيّة المتواضع قائمًا، الآن في إسطنبول، في حيّ كومكابي. ما تزال هناك أيضًا ثمانٍ وثلاثون كنيسة في إسطنبول، حيث يعيش معظم الأرمن، الذين يعدّون رسميًّا ثمانية وستّين ألفًا، علمًا أنّ هذا العدد لا يشمل الأرمن الأتراك، الذين اعتنقوا، بعد العام الـ١٩١٥، الدين الإسلاميّ، والذي يفوق عددهم هذا العدد. مع ذلك، يُشكّل الأرمن الجالية المسيحيّة الكبرى في تركيا.

لبنان

حلّ مقرّ كاثوليكوسيّة كيليكية في إنطلياس، في لبنان، منذ العام الـ١٩٣٠. وفي العام الـ١٩٢٩، تبعتها أبرشيّات قبرص، ودمشق، وبيروت، التي كانت تابعة سابقًا لبطريركيّة القدس. أمّ الأرمن لبنان على دفعتين، الأولى، بين العام الـ١٩١٥ والعام الـ١٩٢٢، والثانية في النصف الثاني من ستّينات القرن الماضي ومطلع السبعينات، حيث أتوا من مصر، والعراق، وسورية. وكانت الجالية الأرمنيّة في لبنان، في

هذه المرحلة، من أنشط الجاليات الأرمنيّة في الشرق الأوسط، وأصبحت بيروت مركزًا ثقافيًّا أرمنيًّا مرموقًا، فيها مدارس، ومطابع، ومؤسّسات ثقافيّة، وجرائد. واضطرّ عدد من الأرمن إلى مغادرة لبنان، بعيد الحرب الأهليّة، التي استمرّت من العام الـ١٩٧٥ إلى العام الـ١٩٨٩. وكان يعيش في لبنان، في العام الـ٢٠٠٨، نحو ماية ألف أرمنيّ، بعد أن غادره نصفهم، بعد العام الـ١٩٧٥.

قبرص

تبعد قبرص ستّين كيلومترًا عن كيليكية القديمة، أتى إليها بعض الأرمن، منذ الحقبة البيزنطيّة. وبُنيت كاتدرائيّة القدّيس لعازر، في لارنكا، في أوائل القرن العاشر، نحو العام الـ٩١٠. وعُرفت الأبرشيّة الأرمنيّة في نيقوسيا، في العام الـ٩٧٣. وازدهرت الجالية الأرمنيّة، أثناء الحملات الصليبيّة (ابتداء من العام الـ١١٩١) وبخاصّة في عهد أمراء لوزينيان (الذي دام إلى العام الـ١٤٨٩). ترك الجزيرة العديد من الأرمن، بعد أن احتلّت تركيا جزءًا منها، في العام الـ١٩٧٤. لكن ما تزال الجالية الأرمنيّة حيّة. افتُتحت كاتدرائيّة العذراء، في نيقوسيا، في العام الـ١٩٨١. وكان يعيش في قبرص، في العام الـ٢٠٠٨، ما يُقارب ثلاثة آلاف وخمسمائة أرمنيّ، يعيش معظمهم في المدن الكبرى.

سوريا

الأرمن في سورية، منذ القرون المسيحيّة الأولى، حيث كانوا يمرّون في طريقهم إلى القدس. ويعيشون الآن، بصورة خاصّة، في دمشق وحلب، حيث ازدهرت جاليتهم، في القرنين السادس عشر والسابع

عشر، عندما كانت حلب ممرًّا تجاريًّا بين الشرق الأوسط وأوروبّا. زاد عددهم، بعد مجازر الـ١٩١٥، وحلّ اللاجئون في حلب، ودمشق، واللاذقيّة، وحمص، ودير الزور، وحماه، والقامشلي، والحسكة. وكان يوجد في سورية، في العام الـ٢٠٠٨، نحو خمسة وستّين ألف أرمنيّ. وتجدر الإشارة إلى تجمّع أرمنيّ كبير في قرية كسب، شمال غرب سورية، وفي القرى المجاورة. وتقوم مؤسّسة «أرض وثقافة» الباريسيّة، بإنشاء متحف في كسب، كما أنشئ سابقًا متحف، في دير الزور، إحياءً لذكرى الذين قضوا في حرب الإبادة.

القدس والأردن

وتأسّست بطريركيّة القدس الأرمنيّة، في القرن السابع. وتمكّن الأسقف الأرمنيّ سرجيوس (سركيس) من الحصول من السلطان المملوكيّ، ناصر محمّد، على براءة تعترف به بطريركًا، وذلك بعد هزيمة الصليبيّين، في العام الـ١٣١١. وتعيش اليوم في الحيّ الأرمنيّ حول دير القدّيس يعقوب، في القدس القديمة، جالية أرمنيّة كبيرة. ويعيش الأرمن كذلك في يافا، وحيفا، وبيت لحم، وبعضهم في الأردن، وكلّهم تابعون لبطريركيّة القدس. ويُعتقد أنّ عدد الأرمن هناك يتعدّى الألفين وخمسمائة شخص، بمن فيهم الوافدون الجدد من أرمينيا.

العراق

ويرجع الوجود الأرمنيّ في العراق، على الأقلّ إلى القرن السابع عشر، حيث جاء إليه الأرمن المنفيّون من بلاد فارس. ازدهرت جاليتهم، في القرن التاسع عشر، في بغداد والبصرة، التي اشتهر ميناؤها آنذاك

بالتجارة مع الهند. وبُنيت كنائس أرمنيّة في بغداد، في العام الـ١٦٤٠، وفي البصرة، منذ العام الـ١٧٣٦، وفي الموصل، منذ العام الـ١٨٥٧، وفي زاخو، منذ العام الـ١٩٣٢، وفي كركوك في الكردستان العراقيّ، منذ العام الـ١٩٥٢. وفي الكردستان العراقيّ اليوم، أربع كنائس. وكان ما يزال يعيش في العراق، في العام الـ٢٠٠٨، أقلّ من عشرة آلاف أرمنيّ.

الخليج العربيّ

وبدأت الهجرة الأرمنيّة إلى بلاد الخليج (الإمارات العربيّة المتّحدة، البحرين، قطر، الكويت)، بعد الحرب العالميّة الثانية. وأرسلت كاثوليكوسيّة كيليكية كاهنًا يمثّلها في المنطقة، وذلك ابتداءً من العام الـ١٩٦١، كما عُيّن أسقف في العام الـ١٩٩٢، مقرّه السالميّة، في مدينة الكويت.

إيران

أمّا في إيران، فاستدعى الشاه عبّاس الأوّل (١٥٨٧–١٦٢٩)، منذ العام الـ١٥٩٠، حين باشر في إعادة تنظيم عاصمته، أصفهان، عددًا كبيرًا من الأرمن، من مدينة دجولفا، الواقعة على ضفاف نهر أراكس (هي اليوم نخيتشفان)، للمجيء إلى إيران للعمل كحِرفيّين وتجار. ومنذ العام الـ١٦٠٥، حلّ الأرمن في الحيّ المدعو دجولفا الجديدة، وقارب عددهم، في العام الـ١٦٢٠، ثلاثين ألفًا. وكان لهم، في العام الـ١٦٦٤، عشرون كنيسة، يبقى منها اليوم ثلاث عشرة. وأسّست أبرشيّة للأرمن، في الشرق الأقصى، في القرن السابع عشر. وامتدّت سلطتها، منذ القرن الثامن عشر، إلى بلاد فارس، والبصرة، وبغداد،

والهند وربّما إلى مناطق أخرى أكثر بعدًا. وكان يعيش في شيراز، في العام الـ١٦٠٥، خمسمائة عائلة أرمنيّة. ويُفسّر هجرتهم إلى الهند والبلاد الأبعد منها شرقًا، مثل البصرة، وروسيا، وأوروبّا، غزو دجولفا الجديدة، في العام الـ١٧٢٢، من قبل الأفغان، وبعض الحروب الأهليّة في القرن الثامن عشر، والضرائب العالية المفروضة من الشاه نادر. وفي العام الـ١٧٩٦، أصبحت طهران عاصمة البلاد، فحلّ فيها بعض الأرمن. وازدهرت جاليتهم، أوان الثورة الإسلاميّة، في العام الـ١٩٧٩. وهاجر نصف عددها بعد الثورة. وبقي في إيران، حتّى العام الـ٢٠٠٨، ما يقارب تسعين ألف أرمنيّ، معظمهم في طهران، وأصفهان، وتبريز، وأورميا وضواحيها. وما تزال الدجولفا الجديدة مركزًا ثقافيًّا مهمًّا، فيها متحف ومكتبة.

مصر

وتكثر جاليات أرمنيّة أيضًا في إفريقيا. فحلّ في مصر، في عهد الفاطميّين (القرن العاشر)، عدد لا بأس به من التجّار الأرمن والحرفيّين، وسكنوا القاهرة. وكان الوزير بدر الجماليّ، في القرن الحادي عشر، من أصل أرمنيّ. كما احتلّ هذا المنصب لاحقًا، وإلى القرن الثاني عشر، أرمن آخرون. وفي القرن التاسع عشر، أتى القاهرة والإسكندريّة أرمن من سميرنا، وحلب، والقسطنطينيّة. وعند إعادة تنظيم مصر، اتّخذ محمّد علي (١٨٠٥-١٨٤٨)، مستشارين أرمن (وزراء، ودبلوماسيّين، ورجال مال)، مثل بوغوس بيه يوسفيان (١٧٦٩-١٨٤٤). وكذلك فعل خلفاؤه، حيث عُيّنَ قريبه نوبار باشا نوباريان (١٨٢٥-١٨٩٩)، وزيرًا مرّات عدّة. أمّا ابنه، بوغوس نوبار (١٨٥١-١٩٣٠)،

فاهتمّ بالأمور المصريّة على الصعيد العالميّ. وكانت مصر، في أوائل القرن العشرين، وحتّى الحرب العالميّة الثانية، مركز الشتات الأرمنيّ الأكثر حيويّة. ولكن ترك البلاد العديد من الأرمن، بعيد ثورة العام الـ١٩٥٢، وسياسة التأميم التي لحقتها. وفي العام الـ٢٠٠٨، ما عاد يعيش في مصر، سوى عشرة آلاف أرمنيّ.

السودان

في السودان جالية أرمنيّة منذ القرن التاسع عشر، آتية من مصر. وبُنيت كنيسة في الخرطوم، في العام الـ١٩٥٧. ولكن أخذ الأرمن بالهجرة، بعد اندلاع الحرب الأهليّة، في أواخر الثمانينات من القرن الماضي. ولم يبقَ، في العام الـ٢٠٠٨، سوى ثمانين أرمنيًّا، بخاصّة في الخرطوم.

إثيوبيا

وصل إلى أدّيس أبابا، في إثيوبيا، أوّل كاهن أرمنيّ، في العام الـ١٩٢٤. وأنجز بناء كنيسة القدّيس جاورجيوس، في العام الـ١٩٣٥. ويُذكر أنّ ملوك إثيوبيا عيّنوا، منذ القرن السابع عشر، بعض الأرمن، سفراء لهم، وممثّلين تجاريّين، ومسؤولين عن المال. ولم تُغلق الكنيسة، في العام الـ١٩٧٦، أثناء الحكم الشيوعيّ، لأجل الوساطة التي قام بها فارتكيس نلبنديان وعائلته. وفي العام الـ٢٠٠٨، كان يعيش في إثيوبيا ماية أرمنيّ، في أديس أبابا.

تتبع الجماعات الأرمنيّة الموجودة في السودان، وإثيوبيا، وجنوب

إفريقيا، حيث يعمل بعض الأرمن في مدنها الصناعيّة الكبيرة، مثل جوهنّسبورغ، والكاب، أبرشيّة مصر. وكذلك هناك أرمن في مناطق أخرى من إفريقيا (مثلاً في غانا، وشاطئ العاج)، ولكن ليس فيها حياة رعويّة منظمّة.

الولايات المتّحدة الأميركيّة

وما القول عن أرمن أميركا الشماليّة والغربيّة؟ الجالية الأرمنيّة الأكثر اتّساعًا بعد روسيا، في الولايات المتّحدة (ما يُقارب المليون نسمة، في العام الـ٢٠٠٨). سكن الأرمن أوّلاً منطقة الشاطئ الشرقيّ منها. ولكن أهمّ مراكز الأرمن اليوم هي في منطقة نيويورك، وبوسطن وضواحيها، وورشيستر، ودترويت، وفيلادلفيا، وكاليفورنيا، حيث الجالية الأكثر عددًا، بخاصّة في لوس أنجليس، وفي وسكونسن، وتكساس، وفلوريدا. وأتى أوّل المهاجرين الأرمن إلى مدينة فريسنو، في العام الـ١٨٧٤. وتبعتهم أعداد كبيرة أخرى، في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. وبُنيت أوّل كنيسة أرمنيّة، في ورشيستر (ولاية ماساتشوستس)، في العام الـ١٨٩١. وافتُتح معهد القدّيس نرسيس اللاهوتيّ، بالقرب من نيويورك، في العام ال١٩٦٢، ويتعاون مع معهد القدّيس فلاديمير الأرثوذكسيّ، الكائن في جواره، في كرستوود.

كندا

وصل بعض الأرمن إلى تورونتو، في كندا، في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وأسّسوا رعايا في جنوب أونتاريو. وتبعهم المزيد، في الخمسينات من القرن العشرين. ووصل

عدد الأرمن في العام الـ٢٠٠٨، إلى ما يزيد على الثمانين ألفًا، تعيش غالبيّتهم، في مقاطعات كيبك (مونتريال ولافال)، وأنتاريو (تورونتو، كمبردج، سانت كاترين)، والكولمبيا البريطانيّة (فانكوفير)، وألبرتا. وشُيّدت أوّل كنيسة لهم في سانت كاترين.

أميركا الجنوبيّة

يتوزّع الأرمن في عدد من بلاد أميركا الجنوبيّة على الشكل التالي: في الأرجنتين (نحو ١٣٠٠٠٠)، والبرازيل (نحو ٤٠٠٠٠)، والأوروغواي (نحو ٢٠٠٠٠)، وفينيزويلا (نحو ٦٠٠٠)، والتشيلي، والمكسيك، وبلاد أخرى (نحو ١٠٠٠٠). أتوا إلى أميركا الجنوبيّة، في أوائل القرن العشرين، (بعد العام الـ١٩٠٩ والعام الـ١٩١٥)، من الشرق الأوسط (في العام الـ١٩٤٧، والعام الـ١٩٥٤، وبخاصّة في الستّينات من القرن الماضي). ولم يكن هناك سوى أبرشيّة واحدة للأميركيّتين، الشماليّة والجنوبيّة، حتّى العام الـ١٩٢٧، وكان مقرّها نيويورك. وتأسّست أبرشيّة خاصّة لأميركا الجنوبيّة، في العام الـ١٩٣٧، ومقرّها بوينس أيرس، في الأرجنتين، حيث حلّ بعض الأرمن، في أوائل القرن التاسع عشر، معظمهم في العاصمة، وهناك بُنيت كنيستهم الأولى، نحو العام الـ١٩٣٠، وكُرّست في العام الـ١٩٣٨. وبُنيت الكنيسة الأولى، في كوردوبا، في العام الـ١٩٢٦. واعترفت الدولة بالطائفة الأرمنيّة، في العام الـ١٩١٨.

ووصل أوّل كاهن أرمنيّ إلى ساو باولو، في البرازيل، في العام الـ١٩٢٩، وبُنيت كنيسة في العام الـ١٩٢٩، وتأسّست أبرشيّة في العام الـ١٩٨٣. تعيش غالبيّة الجالية في ساو بولو، وأوزاسكو، كما يعيش بعض أعضائها داخل ولاية ساو باولو، بخاصّة في سانتوس، وساو

خوسه، وريو بريتو، وكمبيناس، وأمريكانا. وهناك رعايا صغيرة في ريو ده جانيرو، وبورتو أليغره، وفي ولاية سيارا.

وتأسّست أبرشيّة جديدة في الأوروغواي في العام الـ١٩٨٤، وبُنيت كنيسة القدّيس نارسيس شنورهالي، في العام الـ١٩٦٥. وتعيش غالبيّة الأرمن في مونتيفيديو.

أمّا في فينيزويلا، فتسكن الجالية الأرمنيّة في كراكاس.

آسيا

تتبع الجاليات الأرمنيّة في آسيا لرئيس أبرشيّة أستراليا ونيوزيلندة، المؤسّسة في العام الـ١٩٦٨، والتي تهتمّ أيضًا بالهند، والشرق الأقصى (بنغلادش، وميانمار، وسنغفورا، وتايلاند، وهونغ كونغ، والصين، واليابان). حلّ بعض الأرمن المنفيّين من دجولفا الجديدة، في بلاد فارس، في الهند، منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، في بلدان جنوب شرق آسيا، وبعدها في أستراليا. ارتبط ازدهار هذه الجاليات التجاريّ بالوجود البريطانيّ والهولنديّ الاستعماريّين، اللذين استمرّا إلى منتصف القرن العشرين. بعدها، ترك الأرمن البلاد، ولجأوا إلى أمكنة أخرى. وفي العام الـ٢٠٠٩، لم يكن هناك في آسيا كلّها، سوى كاهن واحد، مقيم في كاكوتّا، في الهند. أمّا في البلاد الأخرى (أفغانستان، وباكستان، والفيليبّين، وهونغ كونغ، والصين، وماليزيا وأندونيسيا)، فليس هناك أيّ نشاط رعائيّ، مع أنّ عددًا ضئيلًا من الأرمن يقطن في كلّ من سنغافورا، وهونغ كونغ، والصين، وتايلاند.

وصل الأرمن إلى أستراليا، في منتصف القرن التاسع عشر، مع حملات التنقيب عن الذهب فيها. وبُنيت الكنائس الأولى، في سيدني، في العام الـ١٩٥٧، وفي ملبورن، في العام الـ١٩٦٢. وفي العام الـ٢٠٠٩، كانت هناك كنائس في بريسبان، وآدلاييد، وبرث. ويعيش ماية أرمنيّ في نيوزيلندة، في أوكلاند، وولنغتون.

وأُجري تقدير في العام الـ٢٠٠٦، يقول إنّ عدد الأرمن، في القارة الأسيويّة، لا يتعدّى ستّة عشر ألفًا، لكن يبدو هذا بعيدًا عن الواقع.

في جولة سريعة على تاريخ الأرمن المثير للإعجاب في آسيا، مع أنّه لا يبقى منه سوى الأطلال، نجد كنيسة في أفغانستان، في كابول، في العام الـ١٧٣٧، وجالية أرمنيّة، في لاهور، في باكستان، في أوائل القرن السابع عشر، وكانت المدينة مقرًّا لأسقف أرمنيّ. وفي العام الـ٢٠٠٨، ما عاد هناك سوى نحو مئتي أرمنيّ، في كلّ باكستان. أمّا في الهند، حيث كانت الجاليات الأرمنيّة الأهمّ، إذ وصل إليها التجّار الأرمن، منذ القرن الخامس عشر. وشجّع الأمبراطور الأكبر، في القرن السادس عشر، تأسيس مستعمرات أرمنيّة، لتشجيع التجارة. فتكوّنت، في القرن السابع عشر، جالية كبرى، وجماعات أرمنيّة في أغرا (الكنيسة في العام الـ١٥٦٢)، ودلهي، وسورات، وبومبي، ومدراس (الكنيسة في العام الـ١٥٤٧)، وكلكوتّا، وغيرها من المدن. ويعود تاريخ أقدم قبر أرمنيّ في مدينة سورات (في ولاية غوجارات، شمال غرب الهند)، إلى العام الـ١٥٧٩. وتفوّقت جماعة كلكوتّا، في القرن التاسع عشر، على جماعة مدراس، التي كانت ناشطة في القرن الثامن عشر، وتأسّست فيها مدرسة أرمنيّة، في العام الـ١٨٢١. وكانت الجالية الأرمنيّة في الهند

على شيء من الثراء، وكان بعض أعضائها من المحسنين الكبار. لكنّها لا تجمع اليوم سوى نحو ماية شخص. أمّا في بنغلاديش، فتأسّست الكنيسة الأولى، في العام الـ١٦١٥، في دكّا، وهُدمت واستُبدلت، في العام الـ١٧٨١، بكنيسة أخرى، ما تزال قائمة إلى الآن، في شارع الأرمن، في دكّا. وأتى الأرمن إلى ميينمار (بُرما سابقًا)، نحو العام الـ١٦١٢، وحلّوا أوّلاً في مرفأ سيريان، القريب من رانغون. وما تزال اليوم، في رانغون، كنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان، التي بُنيت من الحجر في العام الـ١٨٦٢.

سافر بعض الأرمن شرقًا، ورسخوا في ماليزيا، حيث شيّدوا كنيسة في بينانغ، في العام الـ١٨٢٢. أمّا في الصين، فكانت تقطن الجالية الأرمنيّة الكبرى، في خربين، حيث بنت كنيسة، في أواخر القرن التاسع عشر. لكن ترك الأرمن الصين، بعد الغزو اليابانيّ (١٩٣٧)، وانطلاق الثورة الثقافيّة (١٩٦٦)، وهاجرت غالبيّتهم إلى أستراليا. ووُجد الأرمن، منذ القرن السابع عشر، في جافا، في أندونيسيا، وبنوا كنيسة خشبيّة في بتافيا (الآن دجاكرتا)، استبدلوها بكنيسة حجريّة في العام الـ١٨٥٤. هاجر أرمن أندونيسيا إلى أستراليا، بعد الغزو اليابانيّ، في العام الـ١٩٤٢، وإعلان استقلال أندونيسيا، في العام الـ١٩٤٥، والذي تبعته هجرة الهولنديّين، في العام الـ١٩٤٩. أمّ بعض الأرمن جزيرة سنغافورا، بعد وضعها تحت الحكم البريطانيّ، في العام الـ١٨١٩، وبنوا كنيسة القدّيس غريغوريوس المنير، في العام الـ١٨٣٦، وكانت أوّل كنيسة تُبنى في سنغافورا. سكن بعض الأرمن، القادمين من دجولفا الجديدة، والهند، مدينة مانيلاً، في الفيليبّين، في أواخر القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر. وكان لهم كنيسة في مانيلاً،

في القرن السابع عشر.

ختامًا، يمكننا ملاحظة عاملَين أثّرا كثيرًا في التاريخ الأرمنيّ، أوّلهما الهجرات المتتالية، واستعداد الأرمن الدائم للانتقال، مرارًا وتكرارًا، في مدى الحياة الواحدة، عبر الزمن والمدى الجغرافيّ، وهذا ما يستمرّون بفعله حتّى أيّامنا هذه. يتساءل بعض الأرمن في الشتات، كيف لهم أن يفهموا هويّتهم الأرمنيّة والدينيّة. ولكونهم ما يزالون يشعرون بقوّة بهويّتهم الأرمنيّة، يعتبرون، حيثما حلّوا، أنّ لديهم وطنين. لذلك ينظّمون في بلاد اغترابهم كنائسهم الخاصّة، ومدارسهم، ومراكزهم الثقافيّة والاجتماعيّة، كما يُطلقون أعمالاً صحافيّة خاصّة بهم. ومع اختلاف الأمكنة، تتشابه الكنائس الأرمنيّة، بما يخصّ تنظيمها. وتمثّل الجاليات الأرمنيّة، في الشتات، قوّة كبيرة تساند أرمينيا ماليًّا، مشجّعة المشاريع التكنولوجيّة والإنسانيّة فيها. لذلك، في العالم كثير من الجمعيّات والمؤسّسات الخيريّة والثقافيّة الأرمنيّة. وحيثما حلّ الأرمن، يؤلّفون جماعات ناجحة مزدهرة، ومندمجة في بلدها البديل. ويحتل الأرمن في بعض البلدان، مثل لبنان، وقبرص، وإيران، مراكز حكوميّة.

الفصل الثالث

اللغة، والأدب، والدراسات الأرمنيّة

يرتكز الأدب الأرمنيّ أساسًا على نصوص دينيّة مسيحيّة، إضافة إلى نصوص علميّة ودنيويّة. وتحتوي الكتب المسيحيّة على نصوص لاهوتيّة، وليتورجيّة، وعلى تفاسير، ومواعظ، وشعر دينيّ، وكثير من الكتب التاريخيّة.

اللغة

اللغة الأرمنيّة من عائلة اللغات الهنديّة الأوروبّيّة، ولكنّها تُشكّل واقعًا فريدًا. استعارت بعض العبارات من لغات البلدان المجاورة، مثلاً السريانيّة، واليونانيّة، والفارسيّة، وفي مرحلة تاريخيّة أقرب إلينا، من العربيّة، والتركيّة، والروسيّة. هناك شواهد على وجود لغة أرمنيّة مكتوبة، منذ القرن الخامس. استُعملت هذه اللغة الفصحى (grabar) كلغة أدبيّة إلى منتصف القرن التاسع عشر، كما أنّها ما تزال تُستعمل في الحياة الليتورجيّة. أمّا اللغة المحكيّة (achkharhabar)، التي تعني «لغة العالم»، فأضحت تدريجيًّا اللغة المكتوبة، ابتداء من القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وحدث ذلك أوّلاً في مملكة كيليكية الأرمنيّة، بخاصّة بالنسبة إلى النصوص غير الدينيّة. وحلّت مكان اللغة الفصحى واللغة المحكيّة، في منتصف القرن التاسع عشر، لغتان أدبيّتان، هما الأرمنيّة الشرقيّة (arewelahayeren)، المحكيّة في أرمينيا الحاليّة، وبلدان الاتّحاد السوفياتيّ سابقًا، وإيران، واللغة الأرمنيّة الغربيّة، (arewmetahayeren)، المحكيّة في تركيا الحاليّة، والبلدان

التي كانت تابعة للأمبراطوريّة العثمانيّة سابقًا (لبنان، سورية، فلسطين المحتلّة، الأردن، مصر، وقبرص). كما تُستعمل اللهجتان في بلاد الاغتراب، تمثّلان طريقتين بديلتين للغة واحدة، تتميّز كلّ منهما بالإملاء، واللهجة، والصرف والنحو، وبعض القواعد. اللهجة الأرمنيّة الشرقيّة أقرب إلى الفصحى. وتجدر الملاحظة أنّ الأبجديّة الأرمنيّة وُضعت، نحو العام الـ٤٠٥، على يد القدّيس ماشتوتس، الذي يُدعى أيضًا مسروب، والذي توفيّ في العام الـ٤٣٩. وكانت تحتوي في الأصل على ستّة وثلاثين حرفًا، زيد عليها حرفان، في القرن الثالث عشر.

الأدب

سمح اكتشاف الأبجديّة الأرمنيّة بالكتابة، وبإنتاج أدب أرمنيّ. وقام الأرمن، منذ القرن الخامس، بترجمة نصوص مسيحيّة مختلفة إلى لغتهم، وبخاصّة النصوص المكتوبة باليونانيّة. وتُرجم الكتاب المقدّس، أوّلًا انطلاقًا من الترجمة السريانيّة المدعوة بيشيطا، ثمّ من نصّ السبعينيّة اليونانيّ، في أوائل القرن الخامس. وأعاد النظر بتلك الترجمات، نحو العام الـ٤٣٠، البطريرك القدّيس صاهاك، والقدّيس مسروب، بمساعدة ما سُمّي «بالمترجمين القدّيسين»، كأيزنيك، وكوريونا، اللذين استعملا النصوص الأصليّة اليونانيّة التي جلبوها من القسطنطينيّة. وكان الهمّ الرئيس تعليم المسيحيّة بالأرمنيّة، اللغة المحلّيّة. ويحتوي الكتاب المقدّس الأرمنيّ على أسفار غير موجودة في القانون الكتابيّ المعترف به، مثل رسالة بولس الثالثة إلى أهل كورنثوس. وترجم الأرمن، إلى الكتاب المقدّس، تفاسير الآباء الكتابيّة، ونصوصًا ليتورجيّة، وصلوات

مختلفة، وسِيَرَ قدّيسين، وقوانين الكنيسة، وكتب التاريخ، مثل تاريخ أفسابيوس القيصريّ.

وحفظت الترجمات الأرمنيّة بعض الكتب التي فُقد أصلها في لغات أخرى، وبخاصّة اليونانيّة، أمثال بعض مؤلّفات فيلون الإسكندريّ وإيريناوس، أسقف ليون. وبوشر بترجمة التفاسير الكتابيّة الآبائيّة، اليونانيّة والسريانيّة، ابتداء من القرنين الخامس والسادس، وبخاصّة التي للآباء الكبّادوكيّين، والإسكندريّين، أمثال القدّيسين يوحنّا الذهبيّ الفم، وغريغوريوس النيصصيّ، وكيرلّس الإسكندريّ، وأفرام السريانيّ. وكُتبت في ما بعد تفاسير للأعمال الموضوعة باللغة الأرمنيّة. وكتب الأرمن، منذ القرن الخامس، مؤلّفاتهم الخاصّة باللغة الأرمنيّة، وهي مكوّنة من تفاسير، وعظات، وأسفار لاهوتيّة ونسكيّة، وتسابيح ليتورجيّة، وسِيَرَ قدّيسين، وعدد من النصوص التاريخيّة.

ويحتوي البرنامج الدراسيّ الأرمنيّ سبع موادّ مقسّمة إلى فئتين. يشتمل التريفيوم، أو المرحلة الدراسيّة الأولى، على قواعد اللغة، وعلم الخطابة، وعلم الجدليّة. ويحتوي الكوادريفيوم، أو المرحلة الثانية، على موادّ المعرفة الموسوعيّة، أي علم الحساب، والهندسة، والموسيقى، والفلك. تُرجمت معظم موادّ التريفيوم من اليونانيّة إلى الأرمنيّة، في القرنين السادس والسابع. وترجم موادّ الكوادريفيوم، في القرن السابع حنانيّا الشيراقيّ.

واهتمّ الأرمن كثيرًا بالتاريخ، وألّفوا كتبًا عديدة فيه. أمّا أسماء علماء التاريخ الأرمن الأكثر شهرة، فهي: في القرن الخامس، آغاتانج الذي كتب تاريخ هداية أرمينيا الرسميّة المسيحيّة، وكوريون، مؤلّف سيرة

مسروب وبقستوس بوزاند ولعازر البربيّ، الذي وضع تاريخ الأرمن (نحو العام الـ٥٠٠)، وأليجيشي (في القرن الخامس أو القرنين السادس أو السابع؟). وفي القرن السادس، سيبيوس. وفي القرن الثامن، ليفوند (تاريخ الحروب والفتوحات العربيّة في أرمينيا)، وموسى الخورينيّ (في القرنين الخامس السادس، أو القرن الثامن؟). وفي القرن العاشر، الكاثوليكوس يوحنّا الدرتسخنكيرتيّ، وتوما الأرتسرونيّ (تاريخ بيت الأرتسرونيّين)، والأسقف أوختانس السيبستيّ. وفي القرن الحادي عشر، إستفانوس التارونيّ، وأريستاكيس اللاستيفرتيّ (روايات في شقاء الأمّة الأرمنيّة). أمّا في القرن الثاني عشر، فكان أشهر المؤرخين متّى الرهاويّ، وصموئيل من آني. ووُضع في القرن الثالث عشر، كتابان في التاريخ العالميّ، واحد بقلم فردان الشرقيّ الأريفيلتسيّ (المتوفّى في العام الـ١٢٧١)، والآخر بقلم كرياكوس الغنزاكيّ (المتوفّى في العام الـ١٢٧٢). كما وُضعت حوليّة منسوبة إلى صمباط، أخي الملك هيتوم الأوّل، الذي كان سفيرًا لبلاده في مونغوليا، وتاريخ مقاطعة سيونيك للأسقف إستفانوس أوربيليان المتوفّى في العام الـ١٢٨٢. جمع المؤرّخ ميخيتار الأيريفانكيّ في القرن الثالث عشر أيضًا عددًا من المواعظ القديمة في مؤلّف ذاع صيته. وكذلك كتب غريغوار الأكنيريّ حول تاريخ حكم المغول في أرمينيا وكيليكية. وكتب توما المتزوبي، في القرن الخامس عشر، تاريخًا عامًّا في تيمورلنك وخلفائه. ويُذكر بين مؤرّخي القرن السابع عشر، أراكيل التبريزيّ (المتوفّى في العام الـ١٦٧٠)، وغريغوار الترانغستيّ، وزكريّا سركاواغ، وإرميا شيليبي كيومجيان (المتوفّى في العام الـ١٦٩٥)، وكان مثقّفًا، ومترجمًا، وناشرًا. ولنذكر أيضًا سمعان البولونيّ، الذي كتب حوليّة. ونذكر في القرن الثامن

عشر، الكاثوليكوس إبراهيم الأقريطشيّ. وأصدر الأب الميخيتاريّ، ميخائيل شمشيان، تاريخ الأرمن في العام الـ١٧٨٦.

وتُرجم أوّل كتاب في القوانين الكنسيّة، في القرن الخامس. ووضع الكاثوليكوس يوحنّا الأوتزونيّ، في أوائل القرن السابع، المجموعة القانونيّة الأرمنيّة الأولى، التي شملت قوانين مجامع الكنيسة الأولى. وفي العام الـ١١٨٤، أضاف «كتاب القوانين» الذي وضعه سابقًا، والذي تأثّر به صمباط، شقيق الملك حاتوم الأوّل، كتابًا آخر مشابهًا (١٢٦٩)، استعملته الجاليات الأرمنيّة في الشتات. وجمع الراهب إثرائيل، في العام الـ١٢٤٠، كتاب السنكسار، أو سِيَرَ القدّيسين، الذي أصدر منه ترجمات عدّة لاحقة كرياكوس الشرقيّ، في سيس، في العام الـ١٢٦٩، والكاثوليكوس غريغوار الأنازربيّ نحو العام الـ١٣٠٦، وغريغوار الخلاطيّ، في أوائل القرن الخامس عشر.

صدرت كتب أخرى باللغة الأرمنيّة، لا علاقة لها بالكنيسة، بل بالطبّ ألّفها ميخيتار الهرّيّ (القرن الثاني عشر)، وأميردوفلات الأماسيّ (القرن الخامس عشر)، وأزار السيبستيّ (القرن السابع عشر). وصدر أيضًا عدد من الكتب الفلسفيّة والعلميّة، نذكر من مؤلّفيها، سمعان الدوغانيّ (القرن السابع عشر)، والأخوين فاناندیتسي (القرن السابع عشر).

بدأ عصر الأدب الأرمنيّ القديم الذهبيّ، في القرن الخامس، وانخفض الإنتاج في القرن الرابع عشر، بعيد سقوط مملكة كيليكية الأرمنيّة. ومن الكتّاب الأرمن:

كتب أيزنيك، في القرن الخامس، مقالاً «في الله». وكان، مع كوريون، من تلامذة مسروب، ويُعتبران مؤسّسي الأدب الأرمنيّ. وفي القرن السابع، كتب العالم بالرياضيّات، حنانيّا الشيراقيّ (في العام الـ٦٨٥) في علوم الكون، والفلك، والجغرافيا. وكان الكاثوليكوس يوحنّا الأوتزونيّ، الذي لُقّب بالفيلسوف، من كبار اللاهوتيّين، ووضع مؤلّفات عدّة. في القرن العاشر، كتب رئيس دير ناريك، حنانيّا (نحو العام الـ٩٩٠)، أهمّ مؤلّفاته، «الإرشادات للرهبان»، الذي أثّر كثيرًا على قريبه غريغوار. أمّا غريغوار هذا، المعروف بغريغوار الناريكيّ (المتوفّى في العام الـ١٠١٠)، فكان شاعرًا صوفيًّا مميّزًا، ووضع عددًا من التسابيح والصلوات. وفي «كتاب النحيب»، المدعو أيضًا «ناريك»، الذي وضعه، أفضل شاهد على الشعر الدينيّ الأرمنيّ الكلاسيكيّ، حيث تحتوي كلّ مقالة فيه على حوار مع الله. وقام غريغوار ملجيستروس (٩٩٠-١٠٥٩)، في القرن الحادي عشر، ببعض الترجمات، وكتب، في ما كتب، قصيدة لخّص فيها الكتاب المقدّس. وترك أيضًا قصائد أخرى، وعددًا من الرسائل، يتطرّق فيها إلى أمور علميّة، وإداريّة رفيعة. وضع حنانيّا (المتوفّى في العام الـ١٠٧٠)، من دير صناحين، كتاب «خطاب دفاعيّ ضدّ ذوي الطبيعتين»، ومواعظ عدّة، وتفاسير، وبينها تفسير في إنجيل متّى. وزار الكاثوليكوس غريغوار الثاني (المتوفّى في العام الـ١١٠٥)، ابن غريغوار ملجيستروس، القسطنطينيّة، ومصر، وأورشليم، حيث جمع عددًا من سِيَرَ القدّيسين، وترجمها، أو سهر على ترجمتها، إلى اللغة الأرمنيّة. وعُرف غريغوار ملجيستروس، كما حنانيّا الشيراقيّ (القرن السابع)، بسعة معرفته وعلمه. أمّا الناسك يوحنّا الشمّاس، المدعو أيضًا الفيلسوف، فكتب حوليّة، وعددًا من المؤلّفات المتعلّقة

بالرياضيّات واللاهوت، كما كتب أناشيد وقصائد، وكان يهتمّ كثيرًا بعلم الفلك.

طغى على مشهد القرن الثاني عشر، وجهان رئيسان، هما القدّيس نرسيس الرابع، ونرسيس اللمبرونيّ. أمّا القدّيس نرسيس، الذي دُعي «الممتلئ نعمة» (chnorhali)، فكان حفيد غريغوار ملجيستروس، وأصبح كاثوليكوسًا، في العام الـ١١٦٦. دخل في حوار مع البطريركيّة المسكونيّة، في القسطنطينيّة، من أجل إعادة الوحدة بين الكنيستين. ونذكر من بين مؤلّفاته الكثيرة، تفسيرًا لإنجيل متّى، و«مراثي في سقوط مدينة الرها»، وقصيدة إيمانيّة في «يسوع الابن الوحيد»، وقصيدة أخرى، عنوانها «أعترف بالإيمان». أمّا قريبه، نرسيس اللمبرونيّ (المتوفّى في العام الـ١١٩٨)، فكان أسقفًا على طرسوس، وكاتبًا قديرًا. حبّذ هو أيضًا الوحدة مع الكنائس البيزنطيّة واللاتينيّة. وكان يتقن اليونانيّة، والسريانيّة، واللاتينيّة، والعبريّة. وقام بترجمة نصوص كثيرة من لغاتها الأصليّة، من بينها سِيَرَ آباء الصحراء. وكتب «عرضًا في المؤسّسات الكنسيّة»، ورسالة شهيرة، موجّهة إلى الملك ليون، وعددًا من التفاسير الكتابيّة، ومواعظ.

وبقي الوضع الأدبيّ حيًّا، في القرن الثالث عشر، بفضل كتّاب، أمثال الفردابيت فاناكان (المتوفّى في العام الـ١٢٥١)، وجورج السكيفراويّ (المتوفّى في العام الـ١٣٠١)، وكانا مفسّرين للكتاب المقدّس، ولاهوتيّين. أمّا يوحنّا الإرزنكاويّ (القرن الثالث عشر)، الذي يُدعى بلوز، فكان عالمًا، وفيلسوفًا، ونحويًّا، ألّف أيضًا قصائد من وحيٍ كتابيّ.

انتشر، في أواخر القرن الثالث عشر، وأوائل القرن الرابع عشر، الشعر الشعبيّ كتبه باللغة المحكيّة، علاّمة، أمثال الراهب قسطنطين الأرزنكيّ، والعلمانيّ الصوفيّ فريك. هناك أيضًا مؤلّفات أخرى كُتبت، أو جُمعت، باللغة المحكيّة، أمثال كتب صمباط (القرن الثالث عشر) القانونيّة، وحكايات نرسيس الشنورهاليّ (القرن الثاني عشر)، وفردان الأيجيتسيّ (القرن الثالث عشر)، وبحث ميخيتار الهرَيّ في الطبّ (القرن الثاني عشر)، وبحث يوحنّا الأرزنكاويّ (القرن الثالث عشر)، في علوم الفلك. وكان فاهرام رابونيّ (المتوفّى نحو العام الـ١٢٩٠)، أحد كبار كتّاب أيّامه، في كيليكية، وكتب، في ما كتب، نصوصًا فلسفيّة. وكان غريغوار (المتوفّى في العام الـ١٤٠٩)، رئيس دير تاتف، كاتبًا غزير الإنتاج، وفيلسوفًا، ومدافعًا، ومفسّرًا مرموقًا. ونذكر من مؤلّفاته، «كتاب الأسئلة»، و«الإجابة على الهرطقات»، ومجموعتين من المواعظ. وكان يسعى، عبر كتاباته، إلى الدفاع عن مواقف الكنيسة الأرمنيّة اللاهوتيّة، تجاه الإخوة المتّحدين الكاثوليك، (unitores fratres)، في كيليكية.

ونذكر مؤلّفَين كتبا كثيرًا، في القرن الخامس عشر، هما متّى الدجوفاويّ (المتوفّى نحو العام الـ١٤١٢)، وأراكيل السيونيكيّ (المتوفّى في العام الـ١٤٢٥)، والذي كان عالـمًا بارزًا، وشاعرًا. وعاش في القرن ذاته الشاعران مكرتيش ناغاتش، ويوحنّا التلكورانيّ، كما برز لاحقًا الشاعر ناغاتش هوفناتان (١٦٦١–١٧٢٢).

وبرع، في القرن السابع عشر، في الفلسفة والعلوم، سمعان الدجولفاويّ (المتوفّى نحو العام الـ١٦٥٧)، الذي كتب في النحو،

والمنطق، والفلسفة، وأيضًا سمعان البولونيّ (نحو ١٥٨٤–١٦٣٧)، الذي كتب واصفًا بعض الرحلات السفريّة.

ويُعتبر يعقوب ناليان، بطريرك القسطنطينيّة، في القرن الثامن عشر، لاهوتيًّا، ولغويًّا بارزًا. وكتب، في القرن عينه، الشاعر والمؤرّخ والعالم بغدصار تبير القسطنطينيّ (المتوفّى في العام الـ١٧٦٨)، ثلاثة كتب في علم النحو الأرمنيّ. واشتهر صياط نوفا (المتوفّى في العام الـ١٧٩٥)، كشاعر جوّال، وعاش بعض الوقت في دير هاغبات. وكان دجيفاني شاعرًا جوّالاً آخر، عاش في القرن التاسع عشر. وكتب غونكيانوس شعرًا صوفيًّا.

المخطوطات، والمكتبات، والطباعة

مخطوط الملكة الأرمنيّة ملكي (٨٦٢) هو أقدم مخطوط ما يزال موجودًا.

هناك ما يزيد على ثلاثين ألف مخطوط أرمنيّ، محفوظين في عشرين مكتبة، أهمّها في حلب، وأنطلياس، وبزمّار، ودبلن، ويريفان (حيث يوجد ما يزيد على أحد عشر ألف مخطوط في الماتيناداران)، وإسطنبول، والقدس (ما يُقارب أربعة آلاف)، ولوس أنجليس، ودجولفا الجديدة (أكثر من ستّماية)، وأوكسفورد، وباريس، وتوبنغين، والفاتيكان، والبندقيّة، وسان لازارو (أكثر من أربعة آلاف)، وفيينّا (أكثر من ألف وخمسماية). ونجد مجموعات مهمّة، لا تقلّ كلّ واحدة منها عن ألف مخطوط، في كاثوليكوسيّة إتشميادزين، وسان بيترسبورج. وهناك مجموعات أخرى، أقلّ عددًا، لكنّها قيّمة من الناحية الفنيّة

لجمل منمنماتها في قاعة فرير الفنيّة في واشنطن، ومتحف بيربينت برغان في نيويورك وقاعة ولترز في بلتيمور، ومكتبة جون ريلاندز في مانشيستر، والشيستر بيتيّ في دبلن. واستمرّ نسخ المخطوطات يدويًّا حتّى القرن العشرين.

صدرت أولى الكتب الأرمنيّة المطبوعة، في البندقيّة في العام الـ١٥١١. ثمّ تزايد عدد المطبوعات في كلّ من القسطنطينيّة (١٥٦٧)، ولفوف (١٦١٦)، وميلانو (١٦٢١)، وباريس (١٦٣٣)، ودجولفا الجديدة (١٦٣٨)، وليفورن (١٦٤٣)، وأمستردام (١٦٥٨)، ومرسيليا (١٦٧٢)، وإزمير (١٦٧٦)، ولبيزيغ (١٦٨٠)، وبادوفا (١٦٩٠)، ولندن (١٧٣٦)، وسميرنا (١٧٥٩)، وإتشميادزين (١٧٧١)، ومدراس (١٧٧٢)، وتريستا (١٧٧٦)، وسان بيترسبورج (١٧٨١)، وروستوف على الدون (١٧٨٩)، وأستركان (١٧٨٩)، وكلكوتّا (١٧٩٦)، والقدس (١٨٣٣). وكانت مراكز الإصدارات الأرمنيّة الرئيسة، في البندقيّة والقسطنطينيّة، وفي ما بعد في أمستردام. وساهمت طباعة النصوص الأرمنيّة، ليس فقط في الحفاظ على الإرث التاريخيّ، والروحيّ، والليتورجيّ الأرمنيّ، بل أيضًا في الحفاظ على الثقافة الأرمنيّة، في كلّ مكان، بما فيه الشتات. ولم يبق للأرمن، في بعض الأوقات من تاريخهم، سوى بعض الكتب والمخطوطات، وكانت من أهمّ كنوزهم. طبع كتاب النحو الأرمنيّ الموضوع من ف. ريفولا، لأوّل مرّة باللغة اللاتينيّة، في ميلانو، في العام الـ١٦٢٤. وطبع أوّل كتاب مقدّس بالأرمنيّة، في أمستردام، في العام الـ١٦٦٦. بوشر بطباعة الأناجيل بأعداد كبيرة، في البندقيّة، في الثمانينات من القرن السابع عشر، وفي القسطنطينيّة، منذ العام الـ١٧١٠. طبعت الأناجيل باللغة الأرمنيّة الحديثة في العام الـ١٨٣٧،

وكلّ العهد الجديد، في العام الـ١٨٣٨، في مطبعة المرسَلين الإنجيليّين، في سميرنا. صدرت طبعات أخرى باللغة الأرمنيّة الغربيّة، في العام الـ١٨٤١: الأناجيل الأربعة، والعهد الجديد، في العام الـ١٨٤٢، والكتاب المقدّس بمجمله، في العام الـ١٨٥٣. طُبع المعجم الأرمنيّ الأوّل، في ميلانو، في العام الـ١٦٢١. أصدر ميخيتار معجمًا آخر، في البندقيّة، في العام الـ١٧٤٩، وكتابًا في علم النحو، باللغتين التركيّة والأرمنيّة، في العام الـ١٧٢٧، وكتابًا في النحو باللغة الأرمنيّة الفصحى، في العام الـ١٧٣٠. صدرت أوّل مجلّة شهريّة، باللغة الأرمنيّة، المدعوّة «الدليل» (azdarar)، في مدراس، في الهند، في العام الـ١٧٩٤. صدر أوّل كتاب في النحو، باللغة الأرمنيّة الحديثة، في القسطنطينيّة، في العام الـ١٨٥٣.

الدراسات الأرمنيّة

ابتدأت الدراسات الأرمنيّة في القرن السابع عشر، على يد عالِمَين في النحو، هما ف. ريفولا (ميلانو ١٦٢٤)، وس. غالانس (روما ١٦٤٥). صدر في العام الـ١٧١١، في أمستردام، «كنز اللغة الأرمنيّة» لكاتبه ج. شرودير. وكانت إتشميادزين، ودجولفا الجديدة، والقسطنطينيّة، المراكز الرئيسة للثقافة الأرمنيّة، في القرن السابع عشر. تطوّرت الدراسات الأرمنيّة، في أوروبّا، بُعيد تأسيس الرهبنة الميخيتاريّة، على يد ميخيتار الأرمنيّ الكاثوليكيّ (١٦٧٦-١٧٤٩). وفي العام الـ١٧١٧، وجدت الرهبنة لها مقرًّا، في سان لازارو، في البندقيّة. وما يزال هذا المركز إلى أيّامنا، من أهمّ المراكز المهتمّة بالدراسات والثقافة الأرمنيّة.

وكانت له مطبعته الخاصّة، من العام الـ١٧٨٩ إلى العام الـ١٩٩١. أُسّس مركز ميخيتاريّ آخر، في فيينّا، في العام الـ١٨١٠، ثمّ توحّد

المركزان في البندقيّة في العام الـ٢٠٠٠.

تطوّرت الدراسات الأرمنيّة، في فرنسا، في القرن الثامن عشر، على يد م. فيسّيير (المتوفّى في العام الـ١٧٣٩)، وج. ده فيلّيفروا (المتوفّى في العام الـ١٧٧٧). وأطلقت مدرسة اللغات الشرقيّة، في باريس (المعروفة الآن باسم المعهد الوطنيّ للغات والحضارات الشرقيّة)، في العام الـ١٧٩٩، دروسًا أرمنيّة، وأسّست كرسيًّا خاصًّا بها، في العام الـ١٨١٠. وعلّم فيها المشاهير من الأساتذة، أمثال دولوريه، وماكلر، وفيديت. وتطوّرت أيضًا العلوم الأرمنيّة، في القسم الثاني من القرن التاسع عشر، في تفليس، والقسطنطينيّة، وموسكو، على يد مؤرّخين كبار، أمثال أ. بربريان، وأ. يرتسيان، ون. أدونتس، ولغويّين، أمثال م. أبغيان، وه. أدشريان، وه. أوربلي. وأسّست عائلة أرمنيّة معهد لازارف للغات الشرقيّة في موسكو، في العام الـ١٨١٥، وتخصّص باللغات القوقاسيّة، وبخاصّة اللغة الأرمنيّة. عُلّم فيه، منذ العام الـ١٨٧٢، التاريخ والثقافة الأرمنيّان. تغيّر اسم المعهد مرّات عدّة، بين العامين الـ١٩١٩ والـ١٩٢٠، فسُمّي أوّلًا المعهد الأرمنيّ، ثمّ معهد جنوب غرب آسيا، فالمعهد المركزيّ للغات الشرقيّة الحيّة، وأخيرًا معهد موسكو الشرقيّ. تعلّم فيه باحثون كثيرون، تخصّصوا في ما بعد، بالدراسات القوقاسيّة. المعهد اليوم في مبنى السفارة الأرمنيّة في موسكو.

وكانت الدراسات الأرمنيّة، في البدء، مخصّصة لعلوم اللغات وفقهها. أمّا الآن، فتشمل جميع ميادين المعرفة. ويتابع الدراسات، في أيّامنا هذه، باحثون من الأرمن وغيرهم، يعملون على الحفاظ على الثقافة الأرمنيّة، وعلى نشرها. أمّا في أرمينيا، فتقوم مراكز للدراسات

الأرمنيّة، في أكاديميّة العلوم، وفي مكتبة الماتيناداران، والجامعة. بُوشر في العام الـ١٩٧٤، بنشر موسوعة أرمنيّة، في يريفان، بثلاثة عشر مجلّدًا، انتهى إصدارها، في العام الـ١٩٨٧. كما صدرت نسخة مصغّرة عنها، بأربعة أجزاء، بين العام الـ١٩٩٠ والعام الـ٢٠٠٣. وهناك موسوعات أرمنيّة أخرى، من بينها «موسوعة أرمينيا المسيحيّة» (يريفان، ٢٠٠٢)، و«موسوعة الشتات الأرمنيّ» (يريفان، ٢٠٠٣، الجزء الأوّل)، و«القضيّة الأرمنيّة» (يريفان، ١٩٩٦).

المراجع

أهمّ المراجع هي:

1. تومسوت، A Bibliography of Classical Armenian Literature to 1500 AD, 1995.

2. الأب V. Nersessian, Armenian Studies in Western Journals London, 1975.

3. A Bibliography of Articles on Armenian Studies in Western Journals, London, 1869-1995, 1997.

4. «Armenian», in World Bibliographical Series, vol. 163, 1995 أوكسفورد.

5. K. Bardakjian, A Reference Guide to Modern Armenian Literature, 1500-1920, 2000.

6. The Annual bibliography of Armenian Studies, Cambridge, Mass.

7. R. Adalian, Historical Dictionary of Armenia

8. V. Mistrih, «Bibliographie arménienne», dans Collectanea, le Caire

9. B. Vassilian, The Armenians: A Colossal Bibliographic Guide to Books Published in the English Language, 1993.

10. Salmassian, Bibliographie de l'Arménie, Paris, 1946, Erevan, 1969.

11. M. Miasaroff, Bibliographia Caucasica et Transcaucasica,

Saint-Petersbourg, 1874-1876, reimpression Amsterdam 1967.

المؤتمرات

عُقدت في برغاما، في إيطاليا، في العام الـ١٩٧٥، أوّل ندوة عالميّة في الفنّ الأرمنيّ. أمّا الندوة الفنّيّة الثانية، فعُقدت في يريفان، في العام الـ١٩٧٨، بإشراف أكاديميّة العلوم الأرمنيّة. وفي العام الـ١٩٨٣، أقيم أوّل مؤتمر عالميّ في الدراسات الأرمنيّة، في ليديه. وتُنظّم INALCO سنويًّا في باريس، في حزيران، حلقات في الدراسات الأرمنيّة، كما تُنظّم ندوات دراسيّة أخرى سنويًّا، في أماكن مختلفة من العالم، مثل الندوة العالميّة في ثقافة القوقاس، التي اجتمعت لأوّل مرّة في إيطاليا، في العام الـ١٩٧٩.

المنشورات، والصحف، والوسائل السمعيّة البصريّة

لكلّ من الكاثوليكوسيّتين، وبطريركيّتي القدس وإسطنبول، مطبعته الخاصّة. أمّا أسماء بعض المنشورات والصحف الأرمنيّة المعروفة، فهي: في كلكوتّا، Azdarar(١٧٩٤-١٩٩٦)، وفي القسطنطينيّة، Ceride'i Havadis (١٨٤٣)، وMasis (١٨٨٤-١٩٠٨)، وفي موسكو Dchrakagh (١٨٥٨-١٨٦٢)، وفي تفليس Meghou Hayastan (١٨٥٨-١٨٧٢)، وMchak (١٨٧٢-١٩٢١)، وفي فرنسا Armenia (١٩٠٠-١٩١٤) في مرسيليا، و Arevelk (١٨٥٥)، وPro Armenia (١٩٠٠-١٩١٤)، وHaratch (منذ العام الـ١٩٢٥) في باريس، وفي الولايات المتّحدة Hayastani Gotchnag (١٩٠٠-١٩٦٨)، وHayrenik (١٩٠٠-١٩٨٠). وصدر بين العام الـ١٧٩٤ والعام الـ١٩٨٠، نحو ثلاثة آلاف وخمسماية صحيفة أرمنيّة، وزاد عددها على أربعة آلاف، في القرن العشرين.

ولدى الكنيسة الأرمنيّة وسائلها السمعيّة البصريّة الخاصّة (راديو، تلفزة، مواقع إنترنيت)، في أرمينيا، وبلاد الشتات.

الدراسات الأرمنيّة اليوم في الجامعات والمدارس

بدأ تلقين الدراسات الأرمنيّة في أرمينيا، منذ تأسيس الدولة الأرمنيّة، في العام الـ١٩١٨، في جامعة يريفان التي فتحت أبوابها في العام الـ١٩٢٠، ثمّ في معاهد مختلفة أخرى. وأسّس في العام الـ١٩٣٤، اتّحاد الكتّاب الأرمن، في أرمينيا السوفياتيّة. وفي العام الـ١٩٤٣، فتحت أكاديميّة العلوم الأرمنيّة أبوابها.

وفي أيّامنا، مراكز لتعليم الدراسات الأرمنيّة في جامعات عدّة، أهمّها في أوروبّا، أوكسفورد (منذ العام الـ١٩٦٥)، وليديه (منذ العام الـ١٩٩٥)، والبندقيّة (الدروس منذ العام الـ١٩٧٦، والكرسيّ منذ العام الـ١٩٨١)، وبولونيا (منذ العام الـ١٩٧٣)، وروما، ولوفان لا نوف (منذ العام الـ١٨٤٢)، وجنيف (المركز موجود منذ الـ١٩٧٤، والكرسيّ منذ الـ٢٠٠٧)، وفيينّا (منذ العام الـ١٩٨١)، وهال (منذ العام الـ١٩٥٩)، وتوبنغين (منذ العام الـ١٩٩٢). وتُعلّم الدروس الأرمنيّة في باريس، في المعهد الوطنيّ للغات والحضارات الشرقيّة، التابع لجامعة باريس ٣ (المدرسة العمليّة للدراسات العليا، في السوربون)، وفي المعهد الكاثوليكيّ، وفي الجامعة الكاثوليكيّة في ليون، وفي جامعة إكس أن بروفانس.

صدر دليل، في العام الـ٢٠٠٢، عن الـAEIA، يصف تفصيليًّا برامج جميع جامعات أوروبّا، بالنسبة إلى الدراسات الأرمنيّة والبحث فيها.

وكذلك، تُنظّم دراسات أرمنيّة في أماكن أخرى من العالم، أمثال

روسيا، والجامعة العبريّة في القدس (منذ العام الـ١٩٦٩)، ولبنان، في جامعة هيغازيان (منذ العام الـ١٩٥٥)، وإيران، في جامعتي طهران وأصفهان، وفي الأرجنتين، في جامعة بوينوس أيريس.

تأسّست الهيئة الوطنيّة للدراسات والبحوث الأرمنيّة في بلمونت، ولاية ماساتشوستس، في الولايات المتّحدة، في العام الـ١٩٥٥، لتشجيع الدراسات الأرمنيّة في أميركا الشماليّة، بالتعاون مع عدد من العلماء، وذلك لتخليد الإرث الأرمنيّ. وساعدت الهيئة على تأسيس مراكز جامعيّة عليا للدراسات الأرمنيّة، في جامعات أميركيّة مختلفة. أمّا الكراسي التعليميّة الأهمّ، بالنسبة إلى الدراسات الأرمنيّة، في أميركا، فهي: هارفرد (١٩٦٢)، وجامعة كاليفورنيا، في لوس أنجليس (١٩٦٩)، وجامعة كولومبيا في نيويورك (١٩٧٩). وتجدر الملاحظة أن بعض الجامعات الأميركيّة منحت درجة الدكتوراه في الدراسات الأرمنيّة قبل تأسيس المراكز التعليميّة العليا فيها، وذلك منذ العام الـ١٩٦٠. وتتبع الجامعة الأميركيّة في أرمينيا، لجامعة بوركليه، في كاليفورنيا. ويتخصّص المعهد الوطنيّ الأرمنيّ، الذي يتبع الجمعيّة الأميركيّة الأرمنيّة، في دراسة الأمور المتعلّقة بالمجازر وإبادة الأرمن. وينظّم الأب ليفون زيكييان، في أميركا، بالتعاون مع جامعة البندقيّة، والدكتور كيفورك برداكجيان، في يريفان بالتعاون مع جامعة متشيغان، دروسًا صيفيّة في اللغة، والأدب، والحضارة الأرمنيّة.

احتوت الأديرة الأرمنيّة في الماضي مدارس شهيرة تُعلّم في ما تُعلّم، الدراسات الكتابيّة. ولا يُمكن الآن أن تُبنى كنيسة أرمنيّة في العالم بدون مدرسة تلاصقها. أنشئت أوّل مدرسة ابتدائيّة في القسطنطينيّة، في العام الـ١٧٨٩. وفُتح، منذ أوائل القرن التاسع عشر، العديد من المدارس

الابتدائيّة والثانويّة، وعددها بالآلاف، في جميع أنحاء العالم، حيث يوجد الأرمن. قامت هذه المدارس، في الماضي، وما تزال اليوم، بدور مهمّ في تعليم اللغة، والتاريخ، والثقافة الأرمنيّة، ما ساهم مساهمة رئيسة في الحفاظ عليها. وأسّس أيضًا الآباء الميخيتاريّون الكاثوليك مدارس كثيرة، في بلاد عدّة.

ويُعلّم الآن اللغة، والتاريخ، والأدب الأرمنيّ، ليس فقط في الجامعات، بل أيضًا في المدارس الأرمنيّة العديدة في العالم، وفي أرمينيا. ويُصار إلى إصدار ترجمات باللغة الأرمنيّة الحديثة، لآباء الكنيسة، ونصوص تعليميّة أخرى (مواعظ، وتأمّلات، وشروحات مختلفة)، في أرمينيا، ولبنان، والقدس.

الهيئات، والجمعيّات، والمؤسّسات والمتاحف

تأسّست، في بلدان مختلفة من العالم، هيئات وجمعيّات تضمّ أخصّائيّين من العلماء. فمثلاً، تُنظّم الهيئة العالميّة للدراسات الأرمنيّة، في أوروبّا، منذ العام الـ١٩٨٣، مؤتمرات عامّة، وحلقات دراسيّة، تصدر عنها منشورات. وبدأت في العام الـ٢٠٠٣، برنامجًا للدراسات الأرمنيّة ٢٠٠٤، يسعى إلى تقويم ما فعلته حتّى الآن، وإلى تخطيط للدراسات التي يجب القيام بها في السنوات القادمة، في مختلف مجالات الدراسات الأرمنيّة (اللغة، والتاريخ، وفقه اللغة، والأدب، وتاريخ الفنّ، وتاريخ الفكر). وتُصدر الهيئة نشرة إخباريّة دوريّة.

وكانت جمعيّة الدراسات الأرمنيّة، التي تأسّست في باريس، في العام الـ١٩٢٠، جمعيّة علميّة تدعو الباحثين والمعلّمين والمهتمّين بالبحوث العلميّة، إلى اجتماعات دوريّة، للبحث بالأمور الأرمنيّة. ونتجت منها

مجلّة الدروس الأرمنيّة، التي ما تزال تصدرها اليوم هيئة خاصّة بها. وأُعيد تنظيم الجمعيّة، في العام الـ١٩٢٢، ويتمحّور نشاطها منذ ذلك الحين، في الدعوة إلى اجتماع شهريّ، ويوم دراسة سنويّ، وإصدار مجلّة العالم الأرمنيّ المعاصر.

ونذكر من بين المؤسّسات والمراكز الثقافيّة، مؤسّسة كالوست غولبنكيان، التي انطلقت، في ليشبونا، في العام الـ١٩٥٦، والتي تحتوي على مكتبة، ومتحف، ومركز للفنّ المعاصر. ولها نشاطات مهمّة في مجالات أخرى، كالمساعدات الخيريّة، وتشجيع الفنّ، والعلم، والتربية. كما تهب منحًا دراسيّة، وتدعم عددًا من الجامعات. مؤسّسات أرمنيّة أخرى، تدعم الأبحاث الأرمنيّة، وتمنح منحًا دراسيّة، كالأخوين غولاسينتس في جنيف. نُقل مركز الدراسة والتوثيق للثقافة الأرمنيّة، الذي تأسّس في ميلانو، في العام الـ١٩٧٦، إلى البندقيّة، في العام الـ١٩٩١. وتُصدر جمعيّة الدراسات الأرمنيّة، التي تأسّست، في العام الـ١٩٧٤، في الولايات المتّحدة، ومقرّها في جامعة فريسنو في كاليفورنيا، منذ العام الـ٢٠٠٧، نشرة إخباريّة. ومن الهيئات الأخرى التي تعمل للحفاظ على الثقافة والإرث الأرمنيّين، جمعيّة «الأرض والثقافة»، في باريس، في العام الـ١٩٧٧، والتي تعمل بصورة خاصّة للحفاظ على الإرث المعماريّ الأرمنيّ. وكان يرأسها في العام الـ٢٠٠٨، كيرام كيفونيان، ولها فروع في بريطانيا، وبلجيكا، والولايات المتّحدة، وأرمينيا.

المتاحف الأرمنيّة، منتشرة في عدد من المراكز الأرمنيّة التاريخيّة، وفي مدن كبرى، أمثال بوسطن، وسوثفيلد (في ميتشيغان، ولاية ديترويت)، وسان لازارو (البندقيّة)، وفيينّا، وباريس. وفي وتيرتون، بالقرب من بوسطن، مكتبة أرمنيّة ومتحف يحتوي على مجموعة مهمّة من الأقمشة،

والسّجاد، والمخطوطات الأرمنيّة، وينظّم معارض دوريّة.

المجلّات والمجموعات

تُصدر الهيئات الكنسيّة الأرمنيّة المجلّات التالية: أرارت (١٨٦٨-١٩١٩)، وإتشميادزين (منذ العام الـ١٩٤٤)، لدى كاثوليكوسيّة إتشميادزين، ومجلّة هاسك (منذ العام الـ١٩٣٢) لدى كاثوليكوسيّة إنطلياس، وصهيون، لدى بطريركيّة القدس (منذ العام الـ١٨٦٦، وتجدّدت منذ العام الـ١٩٢٩)، وشوغاكات، لدى بطريركيّة القسطنطينيّة.

ويُصدر الآباء الميخيتاريّون مجلّتين في أوروبّا، هما «التاريخ الجامع» في البندقيّة (منذ العام الـ١٨٤٣)، وهي أوّل مجلّة علميّة أرمنيّة، وهاندس أمسوراي وفيسشريفته في فيينّا (منذ العام الـ١٨٨٧)، وهما مخصّصتان للدراسات الأرمنيّة. ومع أنّ مطبعة سان لازارو توقّفت عن العمل في العام الـ١٩٨٩، إلاّ أنّ المنشورات الميخيتاريّة تستمرّ في الصدور.

وتنشر مجلّة الدراسات الأرمنيّة (١٩٢٠-١٩٣٣، ثمّ منذ العام الـ١٩٦٤) مقالات قيّمة في الدراسات الأرمنيّة، كما تفعل مجلّة التاريخ الأرمنيّ المعاصر (منذ العام الـ١٩٩٥)، ومجلّة العالم الأرمنيّ الحديث والمعاصر (منذ العام الـ١٩٩٤).

تأسّست مجلّة جمعيّة الدراسات الأرمنيّة، في لوس أنجليس في العام الـ١٨٩٤، وهي منذ العام الـ٢٠٠٧ في فرسنو، وتصدر سنويًّا على يد مجموعة من العلماء، الذين أسّسوا الجمعيّة للدراسات الأرمنيّة. وتنشر صحيفة الدراسات الأرمنيّة (بلمونت، ماساتشوستس، منذ العام الـ١٩٧٥، وتصدر مرّة كلّ ثلاثة أشهر) معلومات عن الدراسات الأرمنيّة (في التاريخ،

والثقافة، واللغة) لصالح المجتمع الأميركيّ. أمّا المجلّة الأرمنيّة (منذ العام الـ١٩٤٨ في بوسطن، ثمّ في وتيرتون، مساتشوستس)، فتتخصّص في التاريخ الأرمنيّ. ومن المنشورات الأخرى، مجلّة اللغويّات الأرمنيّة السنويّة (منذ العام الـ١٩٨٠)، وزافت (المتخصّصة بالشعر الأرمنيّ والنقد الأدبيّ، منذ العام الـ١٩٨٧)، اللّتان تصدران عن جامعة ولاية كليفلاند. وتُصدر جامعة هيغازيان، في لبنان، مجلّة هيغازيان الأرمنيّة (منذ العام الـ١٩٧٠). كما يُصدر معهد القدّيس نرسيس اللاهوتيّ، وهو المعهد الوحيد في الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة في الغرب، مجلّة لاهوتيّة (منذ العام الـ١٩٩٦).

نجد مجموعات من الدراسات الأرمنيّة في المكتبة الأرمنيّة في البندقيّة، ومعهد الدراسات الأرمنيّة في فيينّا. أمّا في ليشبونا، فتُصدر مؤسّسة كالوست غولبنكيان، أعمالاً أرمنيّة (المكتبة الأرمنيّة)، وتدعم منشورات أخرى. وفي الولايات المتّحدة المجموعتان التاليتان: «النصوص والدراسات الأرمنيّة»، و«النصوص والدراسات الأرمنيّة لهارفرد». ويُعاد نشر كتب كلاسيكيّة قديمة في سلسلة «إعادة طباعة النصوص الكلاسيكيّة القديمة» (التي تنشرها منشورات كارافان في نيويورك). أمّا المجموعتان الرئيستان في أوروبّا، فهما «الباترولوجيّا الشرقيّة»، ومجموعة «الكتابات المسيحيّة الشرقيّة». وكذلك تنشر بعض المجلات، المتخصّصة في الشؤون الشرقيّة، أعمالاً في الدراسات الأرمنيّة، أمثال «أنالكتا بولنديانا»، و«بيزنطيون»، و«الموزيون»، و«أوريانس كريستيانس»، و«أورينتيانا بيريوديكا»، و«أوستكيرشليشين ستوديين»، و«ستوديا أورينتاليا كريستيانا»، وغيرها. كما تُنشر أحيانًا أمور تخصّ الدراسات الأرمنيّة في المجلّة العالميّة للشرق الأوسط، ونشرة دراسات الشرق الأوسط. وكذلك تنشر جامعات كاليفورنيا، وولاية وين، ومنشورات كارافان، ومنشورات مازدا كتبًا تهتمّ بالشؤون الأرمنيّة. كما تنشر المثلّثة

الأرمنيّة الرسوليّة في نيويورك، كتبها الخاصّة (منشورات القدّيس فارتان). وأيضًا يعيد معهد القدّيس نرسيس، بالقرب من نيويورك (منشورات معهد القدّيس نرسيس الأرمنيّ)، نشر كتب أرمنيّة قديمة مهمّة.

المدارس الإكليريكيّة اللاهوتيّة، قائمة في كلّ من أرمينيا، ولبنان، والقدس. أمّا مدرسة البطريركيّة في إسطنبول، فأقفلت في العام الـ١٩٦٧.

الرحّالة والمستشرقون الغربيّون

وهاكم لائحة بالرحّالة والمستشرقين الغربيّين، الذين اهتمّوا بأرمينيا، وهي مرتّبة بحسب تواريخ زياراتهم: في القرن السابع عشر: ج.ب. تفيرنيه. في القرن الثامن عشر: ج. بيتّون من تورنفورت. في القرن التاسع عشر: ج. بريس، وم. بروسّيه، وأ. شانتر، وج. شاردان، وج. م. شوبان، ور. كورزون، وأ. دولوريه، وف. فون هاكثوسين، وج. هيبورث، وج. ماكدونلد كينّير، وف. بروت، وأ. ده سان مارتان، وأ. سميث. وفي القرن العشرين: س. بروكس، ون. و. بوكستون، وب. غولدمن، وه. لينش، وف. ماكلير، وج. برومتو. وتجدر الملاحظة أنّ بعض الرحّالة الأرمن كتبوا عن رحلاتهم.

الفنّ

نعرف أنّ عددًا كبيرًا من كنائس القرن السابع كان مزيّنًا بالجداريّات، وبقي أجزاء منها، بخاصّة في صدر الكنائس. ولم يبق من جداريّات القرون الأقدم سوى أثر ضئيل. أمّا الجداريّات المحفوظة، فهي في كنائس لمباط، وأروتج، وتالين، وهي من القرن السابع، وفي كنائس أغتمار، وتاتيف، من القرن العاشر. أمّا الجداريّات المحفوظة بشكل مقبول، فنراها في كنيسة الصليب المقدّس (٩١٥-٩٢١)، في جزيرة أغتمار، في بحيرة فان. وإلى جانب

أيقونات المسيح، تشير معظم الرسومات والمنمنمات الأخرى إلى الأعياد الكنسيّة الرئيسة، وإلى القدّيسين.

أمّا المخطوط الأقدم الذي يحتوي على منمنمات، فهو إنجيل الملكة (٨٦٢) الفاسبوراكانيّة. وكان النسّاخ ينقلون المخطوطات في الأديرة، ويرسمون بعضها. وكان توروس روسلين من أشهر رسّامي المنمنمات في كيليكية، في القرن الثالث عشر. وكان يدير مجمّعًا للخطّاطين في دير هرومكلا. وفي الفنّ الأرمنيّ صلبان حجريّة منقوشة بدقّة مميّزة (khatckar).

شجّع الملوك والأمراء الأرمن الفنّ. والدكتورة سيرابي دير نيرسيسيان (١٨٩٨-١٩٨٩)، هي من أوّل الباحثين في الفنّ الأرمنيّ، ومن أشهر أخصّائيّيه. أمّا التنقيب الأثريّ، فانطلق في أرمينيا مع الروس، في القرن التاسع عشر، وساهم فيه عدد من العلماء، بينهم د. يريتسيان، واي. لالايان، وج. ده مورغان، وس. ف. ليهمن هوبت، ون. مارّ.

الفصل الرابع

الحياة الليتورجيّة

يعبّر المؤمنون الأرمن، بخاصّة بواسطة الليتورجيا والتسابيح، عن إيمانهم وروحانيّتهم.

وصف الكنائس

يُعرف بناء الكنيسة الأرمنيّة اليوم بسهولة، بخاصّة من شكل سقفها، المخروطيّ الشكل، الذي يعلو القبّة الوسطيّة، المحمولة على دفّة إسطوانيّة الشكل. ويُعرف هذا النوع من الكنائس أيضًا في التقليد الجيورجيّ. وكان شكل الكنائس الأرمنيّة، في القرنين الرابع والخامس، من النوع البازيليكيّ، المستطيل الشكل، مع جناحين أو ثلاثة، ويخلو من القبب، مثل كاتدرائيّة دفين (القرن الخامس). وبدأ يبرز، في القرن الخامس، نوع آخر من الكنائس، على شكل صليب داخليّ، مع قبّة وسطيّة. وظهر، في القرن السابع، نمط الكنائس الأرمنيّة الخاصّ، الذي يتضمّن قبّة، تعلو بناء بشكل صليب، داخليّ أو خارجيّ، أو ذات تصميم إشعاعيّ. وظهرت أيضًا، في القرن السابع، نماذج من الأبنية ذات ستّ أو ثماني صدفات، تعلوها قبّة، كما هي الحال في كنائس أراغاتز، وإيريند، وزورافار. أمّا كنيسة زفرتنوتس، الواقعة بين يريفان وإتشميادزين، فهي كنيسة من القرن السابع، على شكل طارمة، ذات ثلاثة مستويات، تحتوي أربعة أشكال صدفيّة، ضمن حلقة دائريّة. وشاع، في القرنين التاسع والعاشر، النمط المعماريّ الأرمنيّ الكلاسيكيّ، بشكل صليب داخلي مقطّع، مع قبّة محمولة على دفّة

عالية، إسطوانيّة الشكل. ومنذ أواخر القرن الثاني عشر، وفي القرن الثالث عشر، زادت الكنائس علوًّا. ولا شكّ في أنّ كاتدرائيّة العاصمة القديمة، آنا (٩٨٩-١٠٠١)، وكنيسة الصليب المقدّس، في جزيرة أغتمار، ضمن بحيرة فان (٩١٥-٩٢١)، هما من أجمل الكنائس الأرمنيّة. أمّا أشهر الكنائس التي بُنيت في الأديرة، في القرنين العاشر والحادي عشر، فهي في هغبات، وسنحين، وتاتيف. وفي دجولفا الجديدة كنائس أرمنيّة من القرن السابع عشر، تأثّرت بالنمط المعماريّ السفاويديّ (séfévide).

وتقسّم الكنيسة داخليًّا إلى أربعة أقسام: الرواق، والصحن، والخورس، والهيكل. ويفصل الخورس عن صحن الكنيسة درابزون، أو شعريّة منخفضة. ويرتفع الخورس بعض الشيء عن مستوى صحن الكنيسة. فيه يقف المرتّلون، غالبًا من الرجال، ولكن مع بعض النساء أحيانًا. عادة جوقتان تقومان بالترتيل، واحدة إلى اليسار والأخرى إلى اليمين. وأثناء القدّاس الالهيّ، تقف الجوقة إلى يمين الهيكل، أو في طابق الكنيسة الثاني، إن وُجد، فوق مدخل الكنيسة. وإلى شمال الخورس، يرتفع الكرسيّ الأسقفيّ، الذي تعلوه قبّة.

وترتفع المنصّة، التي يقوم عليها المذبح (كما في الكنائس السريانيّة)، عن الخورس وصحن الكنيسة، بدرجات ثلاث أو أكثر (شرط أن يكون عددها دومًا مفردًا)، ما يسهّل على المؤمنين متابعة الخدمة. ويعلو المذبح عدد من المرتفعات الصغيرة، توضع عليها الشمعدانات، وتوضع، في أعلاه، أيقونة العذراء، والدة الإله، التي ترمز إلى المسيح المخلص. وهناك فسحة وراء المذبح تسهّل تنقلات

الإكليروس. وفي جدار الهيكل الشماليّ مِشكاة صغيرة، لها باب صغير أو ستار، تحفظ فيها القرابين المقدّسة، لاستعمالها من أجل المرضى. وتُحفظ في مشكاة أخرى، على الجدار الجنوبيّ، الأدوات المستعملة أثناء الخدمة (الكأس، الصينيّة،...)، كما يُحفظ فيها الميرون. وإلى يمين المذبح قاعة، يستعملها خدمة الليتورجيا، لتغيير ثيابهم. أمّا جرن المعموديّة، فهو عادة في الجانب الأماميّ، إلى يسار المذبح، ويحجبه عن الأنظار ستار معلّق أمامه. ويُفتح الستار أثناء الخِدَم، لكنّه يُقفل في بعض لحظات الخدمة، مثلاً أثناء صلاة الاستحالة. أمّا، أثناء فترة الصوم، فيبقى الستار متدلّيًا، حتّى أثناء خدمة القدّاس الإلهيّ، ما عدا في أحد الشعانين، وعيد البشارة، وعيد القدّيس غريغوريوس المنير، الذي يقع يوم السبت قبل الشعانين. وكذلك يبقى الستار مفتوحًا أثناء قدّاس الخميس العظيم.

ويكون لون الستار عادة أسود، في أيّام الصوم، أو غامق اللون. وهو عادة أحمر، في الفصح، والأربعين يومًا التي تليه. ويوضع صليب أمام الستار في فترة الصوم، مع أيقونة السيّد مرسومة عليه.

تكثر دائمًا، في الكنائس الأرمنيّة، أيقونات (أو جداريّات) للمسيح، والعذراء، والقدّيسين، كما في كاتدرائيّات إتشميادزين، والقدس، وحلب، وكنائس دجولفا الجديدة. وتوضع عادة، بالقرب من جرن المعموديّة، أيقونة عماد الربّ.

الملابس الليتورجيّة

يلبس الكاهن المتزوّج أو العازب (فردابيت) جبّة سوداء.

وكذلك يفعل الأساقفة، والكاثوليكوسان، والبطريركان. ويلبس الشمامسة، أثناء الخدم، جلبابًا طويلاً، وبطرشيلاً. ويعتمر جميع الكهنة العازبين، ما عدا الذي يقوم بالخدمة، قلنسوة سوداء مقرّنة، أثناء الخدم والقدّاس الإلهيّ. ويلبس الكهنة والمطارنة، أثناء الخِدَم، ثوبًا بدون كمّين، له ياقة واسعة، يلبسون تحته جلبابًا وبطرشيلاً صدريًّا، هو قطعة قماش عريضة ترتدّ قليلاً على الظهر (الأوموفوريون الأسقفيّ)، ويضبطون الكلّ، بواسطة زنّار وردنات تحوط بالزند.

مَن يقوم بالخدمة، يضع على رأسه، في بعض أوقاتها، نوعًا من التاج (سغافرت). ويضع الأسقف على رأسه تاجًا أسقفيًّا من النمط اللاتينيّ. أمّا الأوموفوريون والأنغوليبون (أيقونة المسيح أو العذراء التي يحملها الأسقف على صدره)، فهما من تأثير بيزنطيّ. ويتدلّى من زنّار الكاثوليكوس الايبيغوناسيو، أو «الجيبة» الأسقفيّة، التي هي قطعة قماش معيّنة الشكل، ترجع أيضًا إلى التقليد البيزنطيّ. ويُغطّى رأس الكاثوليكوس، أثناء رسامته، بغطاء كبير، إشارة إلى ما ورد في سفر الخروج (٣٤: ٣٣-٣٥). يُحمل هذا الغطاء أمام الكاثوليكوس، أثناء الاحتفالات والأعياد الكبرى (تكريس الميرون، أعياد القدّيسين، ...). ويضع الأساقفة خاتمًا في خنصر يدهم اليمنى. أمّا الكاثوليكوس، فيضعه في بنصر يده اليمنى. ويحتذي كلّ أعضاء الإكليروس، أثناء الخِدَم، خفّين ليتورجيّين (هوغاتاب). ويحمل المطارنة، في بعض الأوقات أثناء الخدم، وعندما يقومون بالوعظ، عصا الرعاية (غافازان). ويمكن للكهنة الرهبان أن يحملوا، عندها، عصا المجازين في اللاهوت، الذي يُظهر في أعلاه، حيّتين مجدولتين، رمزًا إلى عصى موسى (خر ٤: ٢-٤، و٧: ٩-٢٥). ويحمل الكاثوليكوس، والبطريرك، والمطارنة في

يدهم، صليبًا صغيرًا، يباركون به الشعب.

القدّاس الالهيّ

في الطقوس والليتورجيا الأرمنيّة عناصر مستقاة من تقاليد كنسيّة مختلفة. ومنها، التأثير السريانيّ الذي أتى من بلاد ما بين النهرين، والتأثير اليونانيّ البيزنطيّ الذي أتى من كبادوكيا. كما كان للقدس تأثير بالغ ابتداء من أوائل القرن الخامس، بخاصّة بالنسبة إلى القراءات المستعملة، وتقويم الأعياد والمناسبات الطقسيّة. وبُعيد الألفيّة الأولى، قوي التأثير البيزنطيّ، إذ ترجع التعديلات التي أُدخلت على القدّاس الأرمنيّ، في القرن العاشر، في غالبيّتها، إلى قدّاس يوحنّا الذهبيّ الفمّ البيزنطيّ، مع تأثير لاتينيّ من جرّاء الحملات الصليبيّة، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر.

ويُقسم القدّاس الإلهيّ، أو «الذبيحة المقدّسة» (سورب بتراغ) إلى خدمة الكلمة والإفخارستيّا، تسبقهما تهيئة، وتليهما دعوة المؤمنين إلى الانصراف. ويكمن القسم الرئيس في الإفخارستيّا، في التقدمة، المدعوّة الأنافورا، أو الصلاة الإفخارستيّة. وتحتوي صلوات الشكر، وذكر أحداث حياة السيّد، والذبيحة، والمناولة.

أثناء التهيئة، وبعد لبس الثياب الليتورجيّة، في السكرستيّا، يدخل الكاهن الخورس، ويغسل يديه إشارة إلى التطهير، ويقف أمام المذبح. وبعد تلاوة بعض الصلوات القصيرة، يُغلق الستار. وتكون القرابين المكرّمة، أي الخبز غير المخمّر والمرسوم عليه صورة الصليب، أو صورة المسيح على الصليب، والخمر غير الممزوج

بالملء قد هُيئت على المذبح، ووُضعت على الصينيّة وفي الكأس، ونُقلت إلى المشكاة الشماليّة، إذ تبقى إلى حين انتهاء خدمة الكلمة، قبل البدء بالإفخارستيّا. ويكون آنذاك الستار مفتوحًا. أمّا ليتورجيا الكلمة، فتبدأ عندما يقوم الكاهن بتبخير كلّ شيء حول المذبح، ثمّ ينزل في زيّاح إلى صحن الكنيسة، ويبخّره، ثمّ يعود إلى الهيكل. ويُرتّل، قبل الدخول الصغير، التسبيح المونوجينيّ («يا ابن الله الوحيد وكلمة الله»). ثمّ ترتّل الجوقة فاتحة القدّاس الإلهيّ، ثمّ مزمور الظهيرة وتسبيحه، كما يحدّدها التيبيكون اليوميّ. فيصار بعدها إلى الطواف بالإنجيل حول المذبح، يتبعه النشيد المثلّث التقديس (التريصاجيون). ثمّ تُتلى القراءات من العهد القديم، فالرسائل، فالإنجيل). وتُرتّل الجوقة، قبل قراءة الإنجيل، تسبيحًا، يُدعى «الآن يتكلّم الله». ويُتلى بعد الإنجيل، دستور الإيمان النيقاويّ (٣٢٥). وبعد تلاوة بعض الصلوات، ينزع الكاهن التاج عن رأسه، والحذائين الليتورجيّين، (وينزع المطران تاجه الأسقفيّ، وحذاءه، والأنغولبيون، والخاتم). عندها تبدأ الخدمة الإفخارستيّة بالدخول الكبير، ونقل القرابين إلى المذبح، بواسطة الشمّاس، أو الكاهن إذا كان يقوم أسقف بالخدمة. ثمّ تأتي قبلة السلام، المشيرة إلى مصالحة المؤمنين في ما بينهم وإلى وحدتهم. فيقبّل المؤمنون بعضهم بعضًا، أو يحيّون بعضهم بعضًا بانحناء الرأس يمينًا ويسارًا، قائلين: «المسيح ظهر في وسطنا»، ومتلقّين الجواب التالي: «مبارك هو ظهور المسيح».

وعندها تبدأ صلاة التقدمة، الأنافورا، حيث يُذكر تجسّد المسيح، وصلبه، وموته، ودفنه، وقيامته، وصعوده، ومجيئه الثاني، كما تُذكر آلامه. وتحتوي الأنافورا على مقدّمة، وتمهيد، وصلاة استدعاء الروح القدس

على القرابين، وابتهالات، والطقوس التحضيريّة للمناولة، وتلاوة الصلاة الربّيّة، والمجدلة. ويغلق الستار، أثناء مناولة الكهنة، ثمّ يُفتح من أجل مناولة الشعب ويُعطي الكاهن المناولة للشعب، راكعًا على حفّة منصّة المذبح. يحمل الكأس بيده اليسرى، ويأخذ بيده اليمنى قطعة من جسد المسيح الممزوجة بدمه، ويضعها في فم المؤمن. وحين يُقفل الستار، تُرتّل الجوقة: «الله الربّ ظهر لنا». فتنظف الأواني الليتورجيّة، وتُعاد إلى أمكنة حفظها. ويُفتح الستار، وينزل الكاهن إلى الخورس، حاملاً كتاب الأناجيل المقدّسة، ويقرأ الإنجيل الأخير (يو ١: ١-١٤). ثمّ يقوم بالبركة الختاميّة، ويعرض الإنجيل لتقبيل المؤمنين، القائلين له: «فليذكر الله قرابينك، وليقبل ذبائحك» (مز ١٩: ٤)، فيجيبهم الكاهن: «فليهبك الله ما يشتهيه قلبك، وليكمّل كلّ مشاريعك» (مز ٢٠: ٥). ثمّ توزّع «البروتي» للمؤمنين، عند خروجهم من الكنيسة.

من الأهمّيّة بمكان، بالنسبة إلى الأرمن، أن يُقام القدّاس الإلهيّ باللغة الأرمنيّة الفصحى القديمة، ما يوحّد العمل الليتورجيّ بين جميع الأرمن في العالم. وتجدر الملاحظة أنّ الليتورجيا الأرمنيّة تستعمل عبارتين يونانيّتين، هما «أورثي»، التي تعني «فلنقف»، و«بروسخومن»، التي تعني «فلننتبه».

الأنافورات

تُرجمت أنافورات يونانيّة قديمة إلى الأرمنيّة، أقدمها أنافورا القدّيس باسيليوس الكبير، المعروفة باسم غريغوريوس المنير. أمّا الأنافورا الوحيدة التي تُستعمل، في أيّامنا، فهي الأنافورا المنسوبة إلى القدّيس أثناسيوس الإسكندريّ (القرن الرابع).

أهمّ الكتب الليتورجيّة

أهمّها هي كتاب القدّاس الإلهيّ (باتاراغاماتوتس)، الذي يُستعمل أثناء خدمة القدّاس الإلهيّ، وكتاب الساعات (زاماغيرك) لخدمة الساعات، ويشمل أحيانًا كتاب المزامير، وكتاب الطقوس (ماشتوتس)، وهو في ثلاثة أجزاء. يحتوي الأوّل على الصلوات المستعملة لخدمة الأسرار، والجنازة، ولبركة المرضى والبيوت، ويحتوي الثاني على الصلوات الخاصّة بالأساقفة (رسم أعضاء الإكليروس، تكريس الكنائس،...)، ويحتوي الثالث على طقس تقديس الميرون، الذي يقوم به الكاثوليكوس، كما يحتوي على طقوس أخرى، يقوم بها الأساقفة. أمّا عنوان هذا الكتاب، فيرجع إلى الكاثوليكوس ماشتوتس (في القرن التاسع). وهناك كتب أخرى، ككتاب التسابيح (شاراكنوتس)، وكتاب القراءات (دجاشوتس)، الذي يحتوي على القراءات الكتابيّة، على مدار السنة، وكتاب تقويم الأعياد السنويّة، مع تحديد المقاطع الكتابيّة الخاصّة بكلّ منها (توناتسويتس)، وكتاب مواعظ الأعياد (توناكان)، والسنكسار (يايسماورك)، الذي يحتوي على حياة القدّيسين والشهداء. وهناك ترجمات مختلفة للسنكسار، أقدمها وضعها الراهب تير إسرائيل (المتوفّى في العام الـ١٢٤٩)، والتي زاد عليها كيرياكوس الشرقيّ (القرن الثالث عشر). أمّا النسخة الأحدث، والشائعة الاستعمال، فهي التي عدّلها غريغوار الخلاطيّ (المتوفّى في العام الـ١٤٢٥).

أمّا أهم مفسّري الليتورجيا من الأرمن، فهم: بالنسبة إلى القدّاس الإلهيّ: خوسروف الأنجيواتسيّ، الأب غريغور الناريكيّ (القرن العاشر)، ونرسيس اللمبرونيّ (القرن الثاني عشر)، ويوحنّا

الأردجيشيّ (القرنين الثالث عشر والرابع عشر). وبالنسبة إلى كتاب الساعات: الأسقف موسى الكيرتوغاهيريّ (القرن السابع)، والكاثوليكوس يوحنّا الأوتزونيّ (القرنان السابع والثامن)، وإسطفان السيونيكيّ (المتوفّى في العام الـ٧٣٥)، وخوسروف الأنجيواتسيّ (القرن العاشر)، ويسّي النيتشيتسيّ (المتوفّى في العام الـ١٣٣٨). وبالنسبة إلى كتاب القراءات الكتابيّة: غريغوار أرشارونيّ (المتوفّى في العام الـ٧٢٩)، وصموئيل الككامرجاجوريّ (٩٤٠؟- ١٠١٠؟)، وأريستاكس اللأستيفرتيّ (القرن الحادي عشر)، وغريغوار الغنذزاكيّ (القرن الثاني عشر)، وبولس التارونيّ (القرنان الحادي عشر والثاني عشر)، وموسى أرزنكاتسيّ (القرنان الثالث عشر والرابع عشر). أمّا حنانيّا الشيراقيّ، فكتب دراستين صغيرتين في الفصح والظهور الإلهيّ. وكتب نرسيس اللمبرونيّ خطابين في الصعود والعنصرة.

خِدَم الساعات

وضعت خدمة الساعات استنادًا إلى خِدم أيّام الآحاد، التي كانت تُقام في أورشليم، في القرن الخامس. وهناك سبع خدم ساعات مختلفة، لا تُقام، في أيّامنا، سوى في الأديرة، وفي بعض الرعايا، أثناء فترة الصوم، وبخاصّة في الأسبوع العظيم.

تُقام خدمة حاملات الطيب في سحر الآحاد، حيث يُقرأ إنجيل القيامة، فيذكر النسوة اللواتي وجدن القبر فارغًا، ولقاء مريم المجدليّة بيسوع في حديقة الجسمانيّة.

الموسيقى والتسابيح

يُنسَب تأليف التسابيح الأرمنيّة إلى القدّيسين مسروب وصهاك

(القرن الخامس). وتُرتّل التسابيح بحسب ثمانية ألحان. لكلّ يوم في السنة الطقسيّة مقام. وتنظّم المقامات الثمانية بالشكل التالي، الذي يتغيّر كلّ يوم: الصوت الأوّل (دزين)، الجهة الأولى (كوغم)، الصوت الثاني، الجهة الثانية، الصوت الثالث، الجهة الثالثة، الصوت الرابع، الجهة الرابعة. ويكون مقام الأحد الأوّل من الصوم «الجهة الرابعة» مهما كان مقام اليوم الذي يسبقه، وذلك لكي يكون مقام يوم الفصح، الذي تبتدئ فيه الدورة، من «الصوت الأوّل».

في بعض المخطوطات والكتب الليتورجيّة، علامات تدوين موسيقيّة خاصّة (خاز)، توضع فوق الحروف. انطلقت من القسطنطينيّة، في العام الـ١٨١٢، طريقة تدوين عصريّة، استُعملت في ما بعد، في العديد من الأمكنة. كثير من المخطوطات الليتورجيّة، المدوّنة ألحانها بالطريقة القديمة، ما عاد يتمكّن أحد اليوم من قراءتها. ويدرس هذه القضيّة الموسيقار آرام كيروفبيان، في باريس، مع جوقته المدعوّة AKN. وما يزال بالإمكان غناء قسم من الموسيقى القديمة، استنادًا إلى التقاليد الشفهيّة. وتختلف الألحان بحسب المناطق (القدس، القسطنطينيّة، ...). أدخل ماكار أيكماليان والفردابيت كوميتاس، في القرن التاسع عشر، أنماطًا موسيقيّة كنسيّة جديدة.

ويهزّ الشمامسة، أثناء الخدمة الإلهيّة في أوقات مهمّة محدّدة منها، بخاصّة أثناء ترتيل التريصاغيون، وتسبيح قبلة السلام، وتلاوة «أبانا»، المراوح الليتورجيّة، التي تحمل جلاجل، وتكون مزيّنة عادة برسوم السيرافيم والشاروبيم ذوي الستّة الأجنحة. ولا تُستعمل هذه المراوح أثناء الصوم. أمّا في تركيا، وأماكن أخرى، فيُستعمل نوع من الصنوج

(زنزغا).

في الليتورجيا الأرمنيّة عدد كبير من التسابيح (شاراكان)، الموجّهة إلى الثالوث القدّوس، والمسيح، والعذراء، والقدّيسين، أو المتعلّقة بالأعياد الليتورجيّة، وجُمعت كلّها في كتاب التسابيح.

وتُرتّل، أثناء الأعياد الليتورجيّة وأعياد القدّيسين، أودية (داغ)، وقطع شعريّة، أو تسابيح خاصّة بكلّ عيد من أعياد السنة الطقسيّة. ومن أشهرها، ما وضعه الكاثوليكوس نرسيس الممتلئ نعمة (القرن الثاني عشر)، والتي ما تزال تُستعمل إلى اليوم. اكتملت التسابيح الأرمنيّة في غالبيّتها في القرن الخامس عشر، حيث وُضع القانون الليتورجيّ، ولم يُزد عليها سوى القليل في ما بعد.

السنة الطقسيّة والأعياد السيّديّة

يُلاحَظ اليوم أنّ الخدم الليتورجيّة الأرمنيّة اختُصرت، بخاصّة في الشتات، وحتّى خِدم الصوم الكبير والأسبوع العظيم. وما تزال تُقام الأعياد بموجب القوانين الليتورجيّة، مع بعض الفروقات الناتجة من التقاليد المحلّيّة.

يُحتفل، في السادس من كانون الثاني، بعيد ميلاد المسيح، وأيضًا، في اليوم عينه، بعماده، أو عيد الظهور الإلهيّ، الذي يُحتفل به بعد خدمة الميلاد، بتبريك المياه. ويُقال حينئذ: «المسيح وُلد وظهر، مبارك ظهور الله». أمّا خدمة تقديس الماء، فتكون هكذا: يوضع ماء في وعاء خاصّ، مصبّه بهيئة حمامة، إشارة إلى الروح القدس، ويوضع في الماء قليل من الميرون. ويشرب المؤمنون من هذا الماء، في آخر الخدمة،

ويمكنهم أخذ بعضه إلى بيوتهم، من أجل المرضى وتبريك آخرين.
وفي اليوم الذي يسبق العيد، أي في ٥ كانون الثاني، يُحتفل بما يُسمّى «ليتورجيا الأنوار»، حيث يُضيء المؤمنون شموعهم من «النور الذي لا يعرف غروبًا».

ويُحتفل، في الثالث عشر من كانون الثاني، بعيد ختانة الربّ، الذي يُدعى «عيد تسمية المسيح».

ويُحتفل، في الرابع عشر من شباط، بعيد تقديم المسيح إلى الهيكل، الذي يُدعى أيضًا، في التقليد الأرمنيّ الشعبيّ، عيد التطهير. وكانت للأرمن عادة قديمة تقضي بحرق الحطب في تلك المناسبة، لكنّهم يكتفون الآن بإضاءة الشموع في الكنيسة، وإرجاعها مضاءة إلى بيوتهم.

ويُسمّى الأحد الأوّل من الصوم الكبير بون باريكندان، أي حرفيًّا «الحياة الصالحة الحقّ»، وذلك تذكيرًا بعيشة آدم وحوّاء في الفردوس. ويبدأ الصوم يوم الاثنين. ويُدعى الأحد الثاني من الصوم «أحد الطرد»، إشارة إلى طرد آدم وحوّاء من الفردوس. أمّا الأحد الثالث، فيُدعى «أحد الابن الشاطر»، ليتذكّر المؤمنون كيف يجب عليهم أن يستعيدوا الفردوس المفقود. ويُتلى في الأحد الرابع، مقطع العبد الأمين (لو ١٦: ١-٣١)، وفي الأحد الخامس مقطع «الديّان» (لو ١٧: ٢٠ و ١٨: ١٤)، مع التشديد على ضرورة الصلاة. أمّا الأحد السادس والأخير من الصوم، فهو أحد «مجيء المسيح، ابن الانسان الثاني»، مع تذكير بيوم الدينونة (متّى ٢٢: ٣٤، ٢٣: ٣٩).

أمّا عيد لعازر، فيُحتفل به في السبت قبل أحد الشعانين. ويدعو الأرمن أحد الشعانين، «المجيء إلى أورشليم»، أو الأحد «المزيّن بالأزهار»، إذ يُذكّر بدخول المسيح إلى أورشليم. وتُرفع عادة أغصان الزيتون، أو أشجار أخرى، أثناء الزيّاح، الذي يُقام بعد القدّاس الإلهيّ. وللأرمن خدمة خاصّة، في غروب أحد الشعانين، تُدعى «فتح الأبواب»، إشارة إلى الدخول إلى أورشليم العلويّة. ويمتدّ الأسبوع العظيم أو المقدّس، من أحد الشعانين مساء، إلى السبت السابق الفصح. ولا تُقام القداديس الإلهيّة في أيّامه الثلاثة الأولى، بل فقط خِدم أخرى مختلفة. فتُذكر، في يوم الاثنين، التينة التي لا تحمل ثمرًا، والثلاثاء، العذارى العاقلات العشر، والأربعاء، في صلاة السحر، مسح الربّ بالطيب في بيت عنيا، والإعلان عن خيانة يهوّذا.

وفي يوم الخميس العظيم، يُذكّر بحدثين هما: العشاء الأخير، حيث تأسّست الإفخارستيّا، وغسل المسيح أرجل تلاميذه (يُقرأ يو ١٣: ١-١١ قبل الغسل، ويو ١٣: ١٢-١٥ في آخر الخدمة). ويمسح المتقدّم بالماء فعلاً، الأرجل اليمنى لاثني عشر شخصًا، ثمّ يمسحها بقليل من الزبدة، وينشّفها بواسطة منشفة مربوطة في قواه. ويقوم المشتركون في الخدمة بتقبيل يد المتقدّم قبل مغادرتهم المنصّة التي يُجرى عليها غسل الأرجل، ويكون الأشخاص الذين تُغسل أرجلهم أساقفة، إذا ترأس الكاثوليكوس الخدمة، وكهنة إذا ترأّس أسقف، وشمامسة أو علمانيّين، رجالاً وأولادًا، إذا قام كاهن بالخدمة. وكذلك يوزّع على المؤمنين قليل من السمن، في كيس صغير، عند خروجهم من الكنيسة. وتُقام الخميس مساء خدمة «الظلمة»، إشارة إلى ليلة المسيح الأخيرة على الأرض. وتوضع على صفّين أمام ستار الهيكل المغلق اثنتا عشرة

شمعة، وتُشعَل إحدى عشرة منها، ما عدا شمعة سوداء واحدة، ترمز إلى يهوّذا. وتوضع أيضًا شمعة أخرى، ترمز إلى المسيح. وتُطفأ الشمعات، كلّ اثنتين معًا، بعد قراءة كلّ واحد من الأناجيل الستّة، المتكلّمة على إلقاء القبض على يسوع، والحكم عليه، وآلامه، إشارة إلى الرسل الذين تركوا يسوع عند آلامه (يو ١٣: ١٦–١٨، لو ٢٢: ١–٦٥، مر ١٤: ٢٧–٧٢، متّى ٢٦: ٣١–٥٦، متّى ٢٦: ٥٧–٧٥ ويو ١٨: ٢–٢٧). وتُتلى الأناجيل من الخورس، ما عدا الإنجيل السادس، الذي يُتلى من الناحية الشماليّة للهيكل. وعندما يُطفئ الشمامسة الشمعتين الأخيرتين، تبقى شمعة واحدة مشتعلة، أمام ستار الهيكل، ترمز إلى المسيح. وتُنقل هذه الشمعة، في نهاية خدمة السحر، إلى خلف الستار، حيث تبقى مشتعلة. وتكون عندئذ كلّ الكنيسة غارقة في الظلام، فيردّد الكهنة والشعب أربعين مرّة «يا ربّ ارحم». ثمّ يتبع ترتيل تسبيح موجّه من المسيح إلى أمّه، مطلعه: «أينكِ، يا أمّي؟». يتبعه تسبيح آخر يذكر خيانة يهوّذا وآلام المسيح. وتدوم هذه الخدمة الرائعة، الروحيّة الأبعاد، ما يُقارب الساعات الأربع.

ويُقام، في يوم الجمعة العظيمة، ذكر آلام المسيح: الخيانة، والتسليم، والحكم بالموت، والصلب، والموت، والدفن، مقرونًا بتلاوة مزامير، وقراءات، من العهدين القديم والجديد، وترتيل تسابيح مختلفة، كلّها ذات علاقة بالأحداث التي يُقام ذكرها، ويتمّ الصلب في خدمة الساعة السادسة. أمّا أثناء خدمة الدفن، فيوضع نعش رمزيّ مصنوع من الخشب، في وسط الخورس، وله أعمدة جانبيّة تعلوها قبّة. ويوضع عليه الإبيتافيون، ويزيّن بالزهور. ويوضع أمام النعش كتاب الإنجيل والصليب. وتُضاء الشموع، ويصار إلى التبخير. وفي منتصف الخدمة،

يُحمل النعش، ويُطاف به ثلاث مرّات حول الكنيسة. ويمرّ المؤمنون، في كلّ من الوقفات الأربع، أثناء الزيّاح، تحت النعش. وحينما يرجع الزيّاح إلى الكنيسة، يُرتّل الجميع: «لصليبك، أيّها المسيح، نسجد». وبعد البركة الأخيرة، يهمّ المؤمنون بتقبيل الإنجيل والصليب، قبل مغادرة الكنيسة. ويُلفّ الصليب، الذي يرمز المسيح، في نهاية الخدمة، بقماش أبيض، ويوضع في النعش. وتوزّع الزهور على المؤمنين. ثمّ يُنقل النعش إلى مصلّى جانبيّ، أو السكرستيّا.

ويُقام يوم السبت ما يُسمّى بخدمة «الأنوار». وتُقسم الخدمة إلى جزئين، جزء ليليّ تتخلّله قراءات كتابيّة، وجزء يُقام صباحًا، يتبعه القدّاس الإلهيّ، وقراءة إنجيل القيامة. وتُضاء جميع الأنوار في الكنيسة، أثناء هذه الخدمة، عند القراءة السادسة (أش ٦٠: ١–١٣)، ويحمل جميع الحاضرين شموعًا مضاءة، ويُرتّل الجوق «استنيري، استنيري، يا أورشليم!». ويقف أولاد ثلاثة، أو شمامسة أو قرّاء، أثناء هذه الخدمة أمام الستار، الذي وُضع بعد ظهر السبت، ولونه عادة أحمر ليرمز إلى القيامة، ويمثّلون الفتيان الثلاثة الذين لم يحترقوا في الأتون، ويرتّلون مقطعًا من نبوءة دانيال النبيّ (٣: ١–٣٠). ويتناوبون على الترتيل أحيانًا، وأحيانًا أخرى، يرتّلون معًا. ويحمل كلّ منهم شمعة مضاءة. ويتلو قارئ آخر، واقف إلى جانبهم، سيرة نبوخذنصّر الملك. بعدئذ، يُفتح الستار، وتُضاء كلّ الكنيسة. وتكون التهيئة لخدمة الكلمة قد بدأت خلف الستار، الذي يُفتح في أوّل هذه الخدمة. ويذكر التسبيح الذي يسبق تلاوة الإنجيل، القيامة وكذلك التريصلجيون. أمّا المقطع الإنجيليّ الذي يُقرأ السبت مساء، فهو مقتبس من متّى (٢٨: ١–٢٠). وعند قبلة السلام، يُقبّل المؤمنون بعضهم بعضًا، قائلين: «المسيح قام

من بين الأموات» (كريسوس هارفاي أي ميريلوس)، ويجيبون: «مباركة هي قيامة المسيح» (أورهنيل ايه هاروتيون كريستوزي)، وهي عبارات نجدها عند جميع الكنائس الشرقيّة. ويستمرّ المؤمنون باستعمالها في يوم الفصح (زاتك)، والأربعين يومًا التالية.

ويُقام قدّاس إلهيّ آخر، صباح أحد الفصح، ويُقرأ فيه مقطع من مرقس الإنجيليّ (١٦: ٢-٨). ويُدعى الأحد الذي يلي الفصح «الأحد الجديد» أو «الفصح الثاني». ويعيّد الأرمن، في الأحد الثالث بعد الفصح، عيد الكنيسة الجامعة، ويُدعى «الأحد الأخضر». أمّا الأحد الخامس، فيُدعى «الأحد الأحمر».

ويعيَّد للصعود أربعين يومًا بعد الفصح، ويُدعى الأحد بعد الصعود «أحد الشعانين الثاني».

أمّا العنصرة، التي تعيِّد لحلول الروح القدس على الرسل، فيُحتفل بها، سبعة أسابيع بعد الفصح. ويقع عيد كاتدرائيّة إتشميادزين، في الأحد الأوّل، الواقع بعد العنصرة. وتُذكر آنذاك رؤية القدّيس غريغوريوس المنير، الذي رأى الابن الوحيد نازلاً من السماء، في المكان الذي شُيّدت فيه الكاتدرائيّة. فيكون العيد عيد تأسيس الكنيسة الأرمنيّة. ويُعيّد، في الأحد السابع بعد العنصرة، لعيد التجلّي، الذي يحظى بشعبيّة كبيرة بين الأرمن، فينطلق زيّاح حول الكنيسة، قبل القدّاس الإلهيّ وأثناء صلاة الغروب. أمّا الاسم الأرمنيّ للعيد، فهو «المزيَّن بالورد»، (فاردافار)، الذي يُذكّر بعيد وثنيّ قديم. ويتراشق المؤمنون بالماء، في هذا العيد، عند خروجهم من الكنيسة.

في الطقس الأرمنيّ، أربع أعياد للصليب المقدّس، أهمّها، عيد رفع الصليب، في ١٤ أيلول، أو الأحد القريب منه. ويُزيّن الصليب بالحبق، ويُرفع في الكنيسة، تذكارًا لإعادة الصليب إلى أورشليم، في القرن السابع، على يد الأمبراطور هيراكلوس، بعد أن سرقه الفرس. أمّا عيد اكتشاف الصليب (في الأحد السابع بعد عيد رفع الصليب)، فيحتفل بذكرى اكتشاف الصليب، في القرن الرابع، في أورشليم، من قبل الأمبراطورة هيلينه، والدة الإمبراطور قسطنطين. ويُذكّر عيد ظهور الصليب (الأحد الخامس بعد الفصح) بما حدث في العام الـ٣٥١، على جبل صهيون، في أورشليم. أمّا عيد الصليب الرابع، فهو عيد صليب فاراغ، الخاصّ بالتقليد الأرمنيّ، الذي يؤكّد أنّ جزءًا من الصليب الكريم اكتُشف، على جبل فاراغ، في القرن السابع (في العام الـ٦٥٣)، ويُعَيد له في الأحد الثالث بعد عيد رفع الصليب.

أعياد العذراء

للعذراء، والدة الإله (أستفادزدزين)، سبعة أعياد كلّها ذات مواعيد محدّدة، ما عدا عيد الانتقال (الرقاد). يُحتفل بعيد البشارة في السابع من نيسان، تخليدًا لذكرى بشارة العذراء من قبل الملاك جبرائيل. ويحتفل بعيد الرقاد بموت العذراء وانتقالها إلى السماء، ويُعيّد له في الأحد الأقرب من ١٥ آب. ويُصار فيه إلى تبريك العنب، وتوزيعه على المؤمنين. وهناك أيضًا عيد ميلاد والدة الإله، في ٨ أيلول، وعيد دخولها إلى الهيكل، في ٢١ تشرين الثاني، وعيد حبلها، في ٩ كانون الأوّل، وعيد اكتشاف منديل العذراء، في الأحد الخامس بعد العنصرة، وأخيرًا عيد اكتشاف زنّارها، في الأحد الثالث بعد عيد الرقاد.

الأسرار وخِدم الجنّاز والدفن

هناك تشابه بين خِدم الأسرار الأرمنيّة والخِدَم المماثلة البيزنطيّة.

يُغطّس الأطفال في الماء كليًّا، في المعموديّة، ثمّ يُمسحون بالميرون، ويُناولون، أثناء القداس الإلهيّ الذي يلي عمادهم. أمّا الميرون، فيعدّه كلّ من كاثوليكوسَي إتشميادزين وكيليكية وحدهما، بحضور البطاركة والمطارنة. ويتكوّن الميرون من الزيت وأربعين نوعًا من الأعشاب العطريّة. وإضافة إلى الميرون، هناك زيوت لمسح المرضى والموعوظين، وأيضًا زيت لغسل الأرجل، يوم الخميس العظيم.

ويُطلق على سرّ الزواج اسم «الإكليل»، إذ توضع أثناءه أكاليل على رأسي العروسين، ويوضع أحيانًا محلّ الإكليل وشاح طُرِّزت عليه أشكال صليب. وتحتوي خدمة الزواج على تأكيد العروسين بالموافقة، وإعطائهم البركة، فتبادل خاتمي الزواج، فوضع الأكاليل، وأخيرًا المشاركة في كأس مملوء من النبيذ الأحمر، إشارة إلى عرس قانا الجليل. ويقف العروسان، أثناء الخدمة، وجهًا لوجه، متلاصقي الجبين، يمسك الواحد يمين الآخر، رمزًا لوحدتهما. ويرفع الشاهدان (الإشبينان) الصليب فوق رأسيهما، بينما يتضرّع الكاهن إلى الله ليبارك زواجهما.

وعند الموت، هناك ثلاث خِدم صلاتيّة، تُقام الأولى في بيت الميت، والثانية في الكنيسة، والثالثة في المقبرة. ويُنقل التابوت، بعد صلاة الجنّاز، من الكنيسة إلى المقبرة، حيث يبارك الكاهن ثلاث حفنات من التراب، ويرميها في القبر، على شكل صليب. وتُعاد الصلوات من أجل الأموات في اليوم الذي يلي الدفن، وفي اليوم الثامن، وفي اليوم الأربعين، ثمّ مرّة في السنة، في يوم الوفاة. وكذلك تُقام خدمة من

أجل الأموات الاثنين بعد الأعياد الرئيسة الخمسة، وإذا شاء الأهل، بعد كلّ قدّاس إلهيّ. وتُقام هذه الخِدَم في الكنيسة، أو إذا أمكن، في المقبرة. ويُرتّل، في نهاية كلّ خدمة من أجل الأموات، تسبيح يُنسب إلى نرسيس الممتلئ نعمة، ومطلعه «في أورشليم العلويّة».

الليتورجيا هي الطريقة الفضلى لتعليم الإيمان المسيحيّ، ونقله. ويدعو آباء الكنيسة الأرمن، القدّاس الالهيّ «السرّ العميق». ويقول الأبّ م. فيديكيان، الأخصّائي في علم الليتورجيا: «نُعلن عن إيماننا، بواسطة تقديم البخور، والوقوف، ورفع الأيدي نحو السماء، والسجود، والركوع، وتكريم الصليب المقدّس، والإنجيل، والزيّاحات، وتلاوة دستور الإيمان، والترتيل... تتذكّر الكنيسة في كلّ خدمة، وبخاصّة في القدّاس الالهيّ، خلاصها». وشبّه المؤرّخ الأرمنيّ، بافستوس بوزاند (القرن الخامس)، الليتورجيا «بالارتواء من كأس الخلاص المحيية، في رجاء القيامة، أي الارتواء من دم ربّنا يسوع المسيح». وكما كتب كريكين الأوّل، كاثوليكوس إتشميادزين (المتوفّى في العام الـ١٩٩٩): «ليست الليتورجيّا مشهدًا، بل عملاً يُتمّم بالروح، في إطار الجماعة. لا يمكن إذًا أن نحضرها بطريقة سلبيّة... نتجلّى في الإفخارستيّا، التي هي صميم حياتنا الليتورجيّة». وقال الكاثوليكوس آرام الأوّل: «كل شكل ليتورجيّ يخفق بإبراز روحانيّة شعبه، يفقد معناه».

الفصل الخامس
الروحانية

يشمل التقليد الروحيّ الأرمنيّ ليس فقط الحِكَم الكنسيّة والصلاة والصوم والزهد والحجّ بل أيضًا تكريم والدة الإله والقدّيسين، والشهداء والصليب، والذخائر، والأيقونات المقدّسة وحتى بعض الكتب.

التقويم

تُدعى الأشهر الأرمنيّة هكذا: نافاسرد وهوري، وساهمي، وتري، وكاغوتس، وأراتز، وميهيغان وأريغ، وأهيغان وماريري، ومارغاتس، وهروتيتس، وأفيليات التي يحتوي خمسة أيام فقط. فيوازي مثلاً الأوّل من نافاسرد الحادي عشر من آب ومنذ العام الـ١٩٢٣، وبعد رسالة الكاثوليكوس جورج الخامس، تستعمل الكنيسة الأرمنيّة التقويم الغريغوريّ أو التقويم الجديد في جميع أنحاء العالم ما عدا بطريركيّة القدس، وروسيا وجيورجيا ومصر، وإثيوبيا حيث ما يزال يُستعمل التقويم اليوليانيّ والذي يفصله ثلاثة عشر يومًا عن التقويم الغريغوريّ.

القدّيسون

لا يجيز التقليد الأرمنيّ التعييد للقدّيسين في أيّام الأربعاء والجمعة (وهي أيّام تسودها التوبة)، وفي الآحاد (المخصّصة لذكرى قيامة المسيح). وبما أنّ مواعيد الأعياد تتغيّر كلّ سنة لا بدّ من الرجوع

إلى التقاويم التي تُصدرها سنويًا الأبرشيّات الأرمنيّة للاطّلاع عليها.

وتشمل كتب السنكسار الأرمنيّ ليس فقط أسماء القدّيسين والشهداء الأرمن، بل أيضًا قدّيسي العهدين القديم والجديد، وبعض قدّيسي كنائس أخرى، منها السريانيّة، والبيزنطيّة، والكاثوليكيّة، وقدّيسي العهد القديم الأنبياء والبطاركة، وقدّيسي العهد الجديد الإنجيليّين، والرسل الاثني عشر، الذين يحتلّ بينهم بطرس، وبولس، وبرثولمايوس الذي يُعتبر مبشّر أرمينيا، وتدّاوس، مكانة خاصّة، إضافة إلى يعقوب أخي الربّ. وبين قدّيسي القرون الأولى المشتركة مع كنائس أخرى، نذكر توما الرسول، وأغبار، ملك الرها، ويعقوب النصّيبينيّ (يُعيّد له في الأحد الرابع من مقدّمات عيد الميلاد)، وأفرام السريانيّ، وسمعان العموديّ السوريّ، وجاورجيوس الكبادوكيّ، ويوحنّا الذهبيّ الفم، وباسيليوس الكبير، وغريغوريوس النزينزيّ اللاهوتيّ.

ويضمّ قدّيسو الكنيسة الأرمنيّة وشهداؤها كاثوليكوسات، وآباء للكنيسة، ورهبان وراهبات، وعلمانيّين وعلمانيّات، وملوك وملكات، وأمراء وأميرات، وشهداء من العسكر. هاكم بعض الأسماء. بين الكاثوليكوسات: غريغوريوس المنير (القرن الرابع)، نرسيس الكبير (القرن الرابع)، ساهاك (القرنان الربع والخامس)، يوحنّا الأوتزونيّ (القرن الثامن)، ونرسيس الممتلئ نعمة (القرن الثاني عشر). وضع القدّيس مسروب، المدعو ماشتوتس (القرن الخامس)، أصول الأبجديّة الأرمنيّة، وشجّع ترجمة الكتب الدينيّة إلى الأرمنيّة. ويوجد عيد خاصّ للقدّيسين المترجمين (السبت قبل الأحد الخامس

بعد عيد رفع الصليب). ويُعتبر هذا العيد عيدًا وطنيًّا للثقافة الأرمنيّة، إذ يذكر مَن ابتكر الأبجديّة الأرمنيّة، ومَن ترجم الكتب إلى اللغة الأرمنيّة، بما فيها الكتاب المقدّس. وهناك أيضًا عيد للمعلّمين الاثني عشر (فردابيتس)، وهم آباء من التقاليد الأرمنيّة، والسريانيّة، واليونانيّة. وبين الرهبان، لا بدّ من ذكر الكاتب والشاعر الشهير، غريغوار الناريكيّ (المتوفّى في العام الـ١٠١٠)، وغريغوار من دير تايف (المتوفّى في العام الـ١٤٠٩)، وهو آخر قدّيس دخل السنكسار الأرمنيّ، ويُعيّد له في يوم السبت قبل الأحد الرابع من الصوم الكبير. ويُكرّم أيضًا رهبان ونسّاك من مصر، وسورية، وفلسطين، وكبادوكيا، ومناطق أخرى. وبين القدّيسين العلمانيّين، رجال ونساء، نذكر مَن يسمّون «بالشهداء الجدد»، والتي تمتدّ لائحة أسمائهم، من العام الـ١١٥٥ إلى العام الـ١٨٤٣، ويدخل فيها أسماء عشرات من القدّيسين لم يُذكروا في السنكسار. ومنهم تامار الموغسيّ (٢٢ نيسان العام الـ١٣٩٨)، وغاسبار ومريم وفارفاري، من مدينة غارين (إيرزيرون)، اللذان استشهدا على يد الأتراك، في الثامن من حزيران العام الـ١٨١٠. وبين الملوك، نذكر الملك تيريضات، وزوجته أشخين، وابنتهما خوسروفيدوخت (يُعيّد لهم يوم السبت قبل الأحد الخامس بعد العنصرة).

وهناك قدّيسون أرمن خارج المناطق التي يسكنها الأرمن، ومنهم، غريغوار البيثيفيرسيّ، أسقف نيكوبوليس الأرمنيّ، في أرمينيا الصغرى، في القرن العاشر، وكان يشافي الأسقام. ويُعيّد لجميع القدّيسين يوم السبت قبل الأحد الثامن بعد عيد رفع الصليب. ويُعيّد للملاكين جبرائيل وميخائيل، وسائر القوّات السماويّة، في يوم السبت، الواقع قبل الأحد التاسع، بعد عيد رفع الصليب.

وترد في السنكسار الأرمنيّ أسماء الشهداء الأرمن، وشهداء من العهد الجديد، أمثال إستفانوس، أوّل الشهداء، ويوحنّا المعمدان، وشهداء من غير الأرمن، أمثال شهداء سيبستيا الأربعين (عيدهم في يوم السبت الواقع قبل الأحد الخامس من الصوم)، وأولاد بيت لحم الأربعين، وجاورجيوس الكبادوكيّ، وميناس المصريّ.

أمّا تاريخ الشهداء الأرمن فيمكن تلخيصه كما يلي. سقط شهداء أرمن بين الذين قضوا من جرّاء اضطهادات الأباطرة الرومانيّين، بخاصّة أيّام الأمبراطور ذيوكليسيانوس (٢٨٤–٣٠٥). ويشمل كتاب الشهداء، الذي تُرجم إلى الأرمنيّة، في القرن الخامس، سيرة الشهداء الأرمن الذين سقطوا، في عهد الملوك الساسانيّين الزردشتيّين، في بلاد فارس. ونذكر من بين الشهداء الأرمن: ساندوخت، ابنة الملك الأرمنيّ سناتروك أوّل شهيدة أرمنيّة، والتي يُقال إنّها اهتدت إلى المسيحيّة على يد القدّيس تدّاوس الرسول. واستشهدت، في أوائل القرن الرابع، غايانه وهريبسيمه، ورفيقاتهما الأربعون، ويُدعين «العذارى الهريبسميّات»، ويُعيّد لهن في يوم الاثنين، الواقع بعد الأحد الأوّل بعد العنصرة. وكذلك مات فاردان ماميكونيان وجنوده، في العام الـ٤٥١، أثناء معركة آفاراير، وعددهم ١٠٣٦ شخصًا، يعتبرهم الأرمن شهداء الإيمان، إذ دافعوا عن المسيحيّة الأرمنيّة، ضدّ الفرس الزردشتيّين. ويُعتبر عيدهم عيدًا كنسيًّا ووطنيًّا في آن، ويُقام في يوم الخميس الثاني من شباط. وبين الشهداء أيضًا الكاثوليكوس هوسيب (يوسف)، والكاهن جيوند (ليونتيوس) ورفاقهما. وكذلك قضت ابنة القدّيس فردان شهيدة (وتوفّيت في العام الـ٤٧٥). وكان لداود الدفينيّ أب

فارسيّ وأمّ أرمنيّة، عمّده الكاثوليكوس نرسيس الثالث، واستشهد في العام الـ٧٠١. فاهان الغوتينيّ، كان أميرًا أرمنيًّا خطفه العرب، احتلّ بعدها مركزًا مرموقًا في بلاط الشام، قُطع رأسه لأنّه رفض، في العام الـ٧٣٧، التخلّي عن الإيمان المسيحيّ. وكذلك استشهد الأميران أرتسوني سهاك، وهامازسب، على يد العرب، في القرن الثامن، نتيجة رفضهما اعتناق الإسلام. وتصرّف مثلهما سهاك ويوسف، وهما أبنا أمير أرمنيّ، قُتلا في القرن التاسع.

استشهد عبر العصور، وبخاصّة أثناء حملة الإبادة التركيّة، في العام الـ١٩١٥، عدد كبير من الأرمن، لا تُعرف دومًا أسماؤهم، لكن رُفعت نصب تخلّد ذكراهم، غالبًا، بالقرب من الكنائس. ويحتفل الأرمن، في العالم كلّه، سنويًّا، بذكرى الرابع والعشرين من نيسان من العام الـ١٩١٥، الذي ابتدأت فيه حملة نفي الأرمن وإبادتهم. ويبدأ الاحتفال بقدّاس إلهيّ على نيّة ضحايا المجازر، وشهدائها. واتّفق كاثوليكوسا إتشميادزين وكيليكية، في العام الـ١٩٨٩، على البدء بعمليّة إعلان قداسة شهداء إبادة العام الـ١٩١٥ الجماعيّة، وتهتمّ لجنة خاصّة بهذه القضيّة.

قُبض في عهد ستالين، على المئات من الأرمن، من كهنة وعلمانيّين، وقُتل منهم الكثيرون، أمثال الكاثوليكوس خورين الأوّل (المتوفّى في العام الـ١٩٣٨)، ورئيس الأساقفة، بغراد فاردازاريان، والأساقفة تدّاوس هالروتوتينيان، وأراك سمباتيان، وإسحق تير ميخائليان، وعدد كبير من الكهنة. ولم تُعلن بعد قداستهم، مع أنّهم يُعتبرون من الشهداء الجدد في الكنيسة الأرمنيّة.

تكريم القدّيسين، والصليب، والذخائر، والأيقونات

يُكرّم الأرمن العذراء، والقدّيسين، والشهداء، ويطلبون شفاعتهم. ولهم تعلّق عميق بالعذراء، والدة الإله، التي «ولدت الله».

وكذلك يُكرّم الصليب في التقليد الأرمنيّ، وذخائر القدّيسين، والإنجيل، والأيقونات. ويُمجّد الصليب تذكّرًا بالصلب. وتحتلّ الصلبان الحجريّة (كثكار، تعني «كاث» صليب، و«كار» حجر)، مكانة خاصّة في التقليد الأرمنيّ، وتزايد عددها منذ القرن التاسع. وتكثر عادة في المقابر، ولكن أيضًا قرب الكنائس والأديرة. وتُستعمل أحيانًا كنصب تذكاريّ. يُصلّي الناس أمامها، ويُضيئون الشموع. ولبعض هذه الصلبان موهبة الشفاء.

يتّهم البعض الكنيسة الأرمنيّة بأنّها تحارب الأيقونات. ومع أنّ بعض الحركات الدينيّة الأرمنيّة حاربت فعلاً الأيقونات، كالبوليصيّين والتوندراكيّين، فإنّ الكنيسة الرسميّة لم تفعل قطّ. وكتب فيرتانيس كيرتوخ، في القرن السابع، مؤلّفًا ضدّ محاربي الأيقونات، يُدعى «في شأن محاربي الأيقونات». كتب لاهوتيّون أرمن ذات صيت واسع في تكريم الأيقونات، أهمّهم يوحنّا الأوتزونيّ، ونرسيس شنورهالي، ويوحنّا سركاواغ، وغريغوار التاتيفيّ. وتعلّق جداريّات وأيقونات كثيرة للمسيح، والعذراء، والقدّيسين، والشهداء، في جميع الكنائس الأرمنيّة. وهناك صلاة خاصّة، في كتاب ماشتوتس الكبير، لتكريس الأيقونات. ويُظهر المؤمنون تكريمهم وحبّهم للمسيح، والعذراء، والقدّيسين، بإشعال الشموع أمام أيقوناتهم، والصلاة أمامها، عند مدخل الكنيسة، وحيثما كانت. أمّا أشهر أيقونة للعذراء فهي في

دير هوجياتس. ويعتبر موسى الخورنيّ في كتابه «تاريخ والدة الإله وأيقونتها»، أنّ هذه الأيقونة العجائبيّة من رسم القدّيس لوقا، أعطاها إلى القدّيس برثولومايوس، الذي أمر ببناء كنيسة تُكرّم فيها، وشُيّد دير هوجياتس حول هذه الكنيسة. ولا بدّ من ذكر أيضًا أيقونة المخلّص، التي حملها أشوت بغراتوني (٦٨٨-٧٠٣) من القسطنطينيّة، إلى دارفينك، وبنى كنيسة خاصّة من أجلها، وكذلك أيقونة إنزال المخلّص من الصليب وهي خشبيّة ونجدها في الكنيسة التي تحمل اسمها، في هافوتس تار، والذي أعاد بناءها غريغوار ماجيستروس، ونُقلت الأيقونة إلى إتشميادزين، في القرن التاسع عشر. وكانت تُعتبر أيقونة كنيسة دير أرماش، التي احترقت، من الأيقونات العجائبيّة.

وتكرّم أيضًا ذخائر القدّيسين أو أشياء امتلكوها. وتشمل ذخائر القدّيس غريغوريوس المنير مثلاً عظامه، وزنّاره، وعصاه الأسقفيّ. ويُحفظ أحد ذراعيه في مقرّ كاثوليكوسيّة إتشميادزين، كما توجد بعض الأجزاء الأخرى في بطريركيّتي القدس وإسطنبول. وتُستعمل في كاثوليكوسيّة إتشميادزين ذخائر من يدَي القدّيسين غريغوريوس وتدّاوس، عند تنصيب الكاثوليكوس، وعند طبخ الميرون. وأُعيدت ذخيرة للقدّيس غريغوريوس المنير، التي كانت محفوظة في مُنخر سكيفرا الشهير، في متحف الإرميتاج، في سان بيترسبورج، إلى أرمينيا، لمناسبة الاحتفال بالعيد الـ١٧٠٠ لإعلان المسيحيّة دينًا للدولة الأرمنيّة. فوفد المؤمنون بالآلاف إلى كاتدرائيّة إتشميادزين للتبرّك بها.

وفي إتشميادزين أيضًا ذخائر تُنسب إلى القدّيس برثولومايوس، إذ يقول التقليد الأرمنيّ إنّ جسد الرسول دُفن في دير القدّيس

برثولومايوس (وهو الآن مهدّم)، بالقرب من مدينة أغباك، جنوب شرق بحيرة فان، في تركيا الحاليّة. بُني مقام فوق أجساد العذارى الهريبسيميّات، المدفونة تحت مذبح كنيسة القدّيسة هريبسيمه في إتشميادزين. وكذلك وُضعت ذخائر القدّيس غريغوار الناريكيّ (المتوفّى في العام الـ١٤٠٩) في دير تاتيف، حيث دُفن. في دير هوروموس قاعة مليئة بذخائر قدّيسين، لم تُعرف أسماؤهم. شيّدت قاعة في دير سانا‌حين، في العام الـ١٠٦٣، لاحتواء ذخائر. وكذلك في دير هاغبات، في منتصف القرن الحادي عشر. وفي القدس، في كاتدرائيّة القدّيس يعقوب، ذخائر ليعقوب الرسول، ويعقوب الآخر، ومكاريوس الأورشليميّ، وغريغوريوس المنير. يذكر فاردان الشرقيّ، في «وصف أرمينيا الجغرافيّ»، ذخائر عديدة في الكنائس والأديرة الأرمنيّة. تُحفظ الذخائر بمُذخرات بأشكال مختلفة، منها بشكل صليب، أو يد، أو ذراع، أو غيرها من الأشكال. كما هناك ذخائر لقدّيسين أرمن في أمكنة بعيدة عن أرمينيا، كذخائر القدّيس غريغوار البيثيفرسيّ، في فرنسا، وفي إيطاليا، حيث سُرقت ذخائر غريغوريوس المنير، ثمّ أعيدت إلى نبّولي وناردو، بالقرب من مدينة إتشه، التي تضع ذاتها تحت حمايته. وقد أعاد البابوان بولس السادس، ويوحنّا بولس الثاني، ذخائر للقدّيسين تدّاوس، وبرثولومايوس، وغريغوريوس المنير، إلى كاثوليكوسيّة إتشميادزين. ويحفظ الأرمن ذخائر لقدّيسين غير أرمن، أمثال القدّيس جاورجيوس، في دير القدّيس جاورجيوس، في غومس، أو أصبع القديس يعقوب النصّيبينيّ في الدير الذي يحمل اسمه، وذخائر توما الرسول، في دير القدّيس توما، في غندزاك.

ويذكر التقليد الأرمنيّ عددًا من ذخائر الصليب، محفوظة في

أمكنة مختلفة، ومن أشهرها، دير فاراغ، بالقرب من فان، والتي أتت بها القدّيسة هريبسيمه، والتي اختفت وقتًا ما، ثمّ وجدها الناسك توديك، في القرن السابع. ونُقلت، في العام الـ١٢٣٦، لأسباب أمنيّة، إلى دير نورفاراغافنك، في شمال أرمينيا، ونُقلت في ما بعد إلى فاراغ. ووجدت ذخيرة أخرى للصليب في الدير الأحمر، وأخرى في دير الصليب المقدّس في أبارانك، وهبه إيّاها الأمبراطور البيزنطيّ، باسيليوس الثاني (٩٥٨-١٠٢٥). ويملك دير «الذين يأكلون الأعشاب» قطعة من الصليب، تُدعى «الدليل المقدّس»، كما يملك قطعة أخرى دير الصليب، في موكس. ويُعرف أنّ الملك أشوط الأوّل بغراتوني (٩٥٨-١٠٢٥) كان قد حصل على ذخيرة للصليب من فوتيوس، بطريرك القسطنطينيّة، وضعها في دير سيفان. وحُفظت ذخيرة أخرى، أتت من القسطنطينيّة، في كنيسة المخلّص، في آنا العاصمة القديمة. وضمّ ديرا سكيفرا وهاغبلت ذخائر الصليب الكريم.

ومن بين الذخائر التي استعملها القدّيسون، نذكر عصا القدّيس برثولومايوس، وأيضًا الرمح الذي طُعن به المسيح، وجزءًا من سفينة نوح في دير غيغارد. وتحفظ كلّها الآن، في متحف الكاثوليكوسيّة، في إتشميادزين، إضافة إلى ذخائر أخرى، مثل ذخائر الصليب، وأوّل الشهداء إستفانوس، وزنّار العذراء. وتزعم أديرة منطقة ثاثة وجود وشاح العذراء لديها، وهي أديرة يرامور، وأنغلا، وهزارو.

ويشهد التقليد على معجزات كثيرة حصلت بفضل الذخائر. فيُروى أنّه عند دفن الأسقف داود، رئيس دير أبارانك، في العام الـ٩٥١، تحت مذبح كنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان، حصل كثير من

المعجزات عند قبره.

الكتب المقدّسة

ويُكرّم الأرمن بعض الكتب، وبخاصّة الكتاب المقدّس، الذي يسمّونه «روح الله» نسبة إلى ٢تي ٣: ١٦. ويبقى كتاب الأناجيل معروضًا دومًا على المذبح. ويُعتبر الإنجيل، كما بعض الكتب الأخرى، والمخطوطات التي تحتوي على سِيَرَ القدّيسين والصلوات، حاملة قوّة شفاء أو حماية مرضى من الأمراض والمخاطر على أنواعها. ويحتلّ كتاب النوح (الناريك) لغريغوريوس الناريكيّ مكانة مهمّة بين هذه الكتب. ويقرأه المؤمنون لشفاء النفس والجسد، وينتظرون منه المعجزات. ويوضع أيضًا هذا الكتاب بالقرب من سرير المرضى، أو تحت وساداتهم لحمايتهم.

الحجّ والأديرة

يحجّ الأرمن إلى الأماكن حيث ذخائر الصليب المقدّس، أو قبور القدّيسين والشهداء أو ذخائرهم، أو الأيقونات العجائبيّة. وتعظم أهمّيّة الأديرة بمقدار أهمّيّة ذخائرها (مثلاً ذخيرة الصليب، أو القدّيس غريغوريوس)، ومدى اجتراح العجائب فيها. ويحجّ الأرمن إلى أيّامنا هذه، في أرمينيا والشتات، إلى الأديرة، لمناسبة أعياد الصليب، والعذراء، وقدّيسين آخرين. واشتهرت بعض مراكز الحجّ، في الماضي، وحتّى اليوم، بالمعجزات التي جرت فيها. فيأتي مثلاً الحجّاج إلى دير أنغيخ (فاسبوراكان)، في عيد رقاد العذراء، ليأخذوا زيتًا لشفاء أمراض العيون والآذان. ويَسبح بعض المرضى في نبع الدير الساخن. وكان

الحجّاج يأتون إلى الأمكنة حيث ينابيع الماء ليتنقّوا، أمثال ينبوع دير غيغراد. وكان القدّيس إستفانوس البركريّ (في القرن الثالث عشر) يجترح عجائب كثيرة، بخاصّة لمرضى القلب. وكان الحجّاج يؤمّون الدير يوم عيد الصعود. والراهب سهاك الأعمى من دير كرميرفانك، الذي شُفي من العمى، يأتي إليه كلّ مَن له مرض في عينيه. أمّا مراكز الحجّ الأكثر شهرة، فهي في أرمينيا والأراضي المقدّسة، وبخاصّة في القدس. والشواهد كثيرة منذ القرن الخامس، على مجيء الحجّاج الأرمن إليها، وقد زاد عددهم كثيرًا، في القرن السابع. وكان يحتلّ الحجّ إلى الأراضي المقدّسة، دومًا، في التاريخ الأرمنيّ، مكانة مهمّة لدى الأرمن.

ويزور الحجّاج في أرمينيا أوّلاً كاتدرائيّة إتشميادزين، وحفرة خور فيراب («الزنزانة العميقة»)، تحت الكنيسة، حيث سُجن قديمًا القدّيس غريغوريوس المنير. ويزور الحجّاج الأديرة، في يوم شفيعها، وأعيادها المحلّيّة. وهذا ما يحصل أيضًا في الكراباخ، حيث يذهب الناس إلى الأديرة، ومنها دير آماراس.

في تركيا العديد من الأديرة التي كان يؤمّها الحجّاج، في الماضي. فكان الناس يقصدون دير القدّيس يوحنّا السابق، يوم عيد شفيعه، ودير السيّدة «الحاميّة من الشرّير» في أرماش، على بعد ٢٠٠ كيلومتر شرق إسطنبول، وأديرة كثيرة أخرى، بخاصّة دير القدّيس جاورجيوس في غومس، ودير ناريك، لتكريم النخائر التي فيها.

أمّا في لبنان، فيقوم الحجّ، في عيد دخول القدّيس غريغوريوس المنير إلى الحفرة (الأحد قبل الشعانين)، وعيد كاثوليكوسيّة كيليكية، في أنطلياس، حيث يُنظّم زيّاح كبير، تحمل أثناءه النخائر، ومنها

الذراع الأيمن للقدّيس غريغوريوس. ويذهب الحجّاج إلى بكفيّا، في عيد انتقال العذراء، وإلى عنجر في عيد رفع الصليب.

ويحجّ الناس في سورية إلى كنائس كسب وضواحيها، في عيد العذراء، وإلى القدّيس جاورجيوس في أرامو. وهناك حجّ ضخم إلى المزار في دير الزور (الأحد الأقرب من ٢٤ نيسان)، الموجود بالقرب من كنيسة الشهداء، التي بُنيت في العام الـ١٩٨٥، حيث جرت مذابح في مركاته، على الطريق باتجاه الحسكة. وتحفظ في المزار عظام الضحايا، التي يعتبرها الناس من الذخائر. وتحفظ أيضًا عظام ضحايا العام الـ١٩١٥ في الكنيسة المزار، في باحة كاثوليكوسيّة كيليكية، وبالقرب من كاتدرائيّة إتشميادزين.

ويُنظّم في إيران حجّ سنويّ إلى ديري القدّيسين تداوس وإستفانوس أوّل الشهداء، في شمال غرب البلاد، بالقرب من دجولفا القديمة، شمال مدينة تبريز. ويأتي الآلاف من الأرمن، من إيران، وبلاد أخرى، إلى دير القدّيس تدّاوس، في عيده، ويخيّمون داخل أسواره لمدّة أسبوع، قبل يوم العيد (في أواخر تمّوز). ويشترك بالحجّ أساقفة من إيران والخارج، وأحيانًا الكاثوليكوس، ويلقون المواعظ أمام الحجّاج. ويتّجه الحجّاج إلى دير القدّيس إستفانوس، غداة الحجّ إلى دير القدّيس تدّاوس.

وبما أنّ القديس الأرمنيّ غريغوار البشيفيرسيّ، مات في كهف قريب من كنيسة القدّيس مارتان المتوحّد، بالقرب من بيشيفيرس، في فرنسا، يأتي الأرمن سنويًّا إلى المكان، حيث يقوم اليوم دير رومانيّ أرثوذكسيّ.

الروحانيّة في الحياة اليوميّة

يرسم المؤمن إشارة الصليب عند دخوله الكنيسة، ويتلو الصلاة الربّيّة، ويُشعل شمعة أمام الأيقونات، ثمّ يقوم بصلواته الخاصّة، وبصلوات أخرى مثل «أعترف بإيمان». ويقبّل الصليب على المنصّة في الخورس. وينزع البعض أحذيتهم، احترامًا. وما زال التقليد القديم القاضي بالقيام بالصلاة يوميًّا متّبعًا في أرمينيا والشرق الأوسط، لكن يصعب اتّباعه في العالم الغربيّ العلمانيّ.

ويزور الكهنة البيوت بعد عيدي الميلاد والفصح لرشّها بالماء المقدّس، والقيام بالصلوات من أجل البيت وسكّانه. ويقومون بتبريك البيت، حاملين صليبًا مصنوعًا من الخبز، وكأس ماء، وصحنًا فيه بعض الملح، فيعيّدون الناس بميلاد المسيح أو قيامته. وكذلك يمكن للكهنة أن يزوروا البيوت في مناسبات أخرى، مثلاً عند شراء بيت جديد.

وعلى المؤمن أن يقوم بالاعتراف قبل المناولة. ويمكن للاعتراف أن يتمّ قبل القدّاس الإلهيّ أو أثناءه. وعندما لا يتمكّن الكاهن من سماع اعتراف كلّ المؤمنين، يُصار إلى مغفرة جماعيّة، قبل المناولة. ويتلو الشمّاس، آنذاك، صلاة التوبة باسم الجميع. وعلى مَن يريد التقدّم إلى المناولة أن يتهيّأ بالصلاة والصوم، مبدئيًّا ابتداء من نصف الليل.

ويقضي التقليد بأن يصوم الناس نصف أيّام السنة تقريبًا. أوّلا، في كلّ يوم أربعاء وجمعة. ويدوم الصوم الكبير أربعين يومًا، يتبعه صوم الأسبوع العظيم. وتحلّ فترات الصوم قبل الأعياد الخمسة الرئيسة: الميلاد والفصح، والتجلي، وانتقال العذراء، ورفع الصليب. تضاف إلى ما سبق أصوام تحضيريّة لبعض أعياد السيّدة، والقدّيس

غريغوريوس المنير، والقدّيس يعقوب النصّيبينيّ، والقدّيس سرجيوس، والنبيّ إيليا. لكن لا تُتّبع فترات الصوم هذه بصرامة في أيّامنا.

وما زالت عادة «ذبح» حيوان (ديك أو كبش، أو بقرة) متّبعة كعمل خيريّ شعبيّ؛ إذ يُوزّع اللحم بعد تقسيمه إلى سبعة أقسام، يُعطى واحد للكنيسة، وتُوزّع البقيّة على الفقراء. ويبارك الكاهن الملح (رمز التطهير)، ويُعطيه للحيوان قبل قتله ثمّ يتضرّع إلى الله. ويجري ذبح الحيوانات بالقرب من الكنائس لمناسبة الأعياد الليتورجيّة، والحجّ، والعماد، والزواج، والصلوات من أجل الأموات، والأعياد العائليّة أو الخاصّة. ويقوم الناس بنذورات في هذه المناسبات. وإذا تحقّق النذر يُعاد ذبح حيوان آخر. يلي «الذبح» (مدخ) مائدة جماعيّة، وتوزّع اللحوم والمآكل على الفقراء.

الرهبان

أدّى الرهبان دورًا مهمًّا في حياة الشعب الأرمنيّ الروحيّة. والراهب غريغوار الناريكيّ هو أشهر الرهبان الذين أثّروا في الناس، بواسطة كتاباته الصوفيّة. وعلى مَن يرغب أن يتعرّف إلى حياة النسك الأرمنيّة، أن يقرأ سِيرَ القدّيسين والرهبان في كتاب السنكسار. ويعتبر الكاثوليكوس نرسيس شنورهاليّ (القرن الثاني عشر)، الذي عاشر العديد من الرهبان، النسّاك «أعمدة العالم، وأسوار حافظة من الأعداء، بواسطة صلواتهم وصلاح حياتهم هم ملائكة متجسّدة، وكواكب منيرة للعالم».

ولا بدّ من الملاحظة أنّ بعض التسابيح والصلوات الأرمنيّة

هي أروع ما وُجد في الأدب النسكيّ العالميّ.

وكتب أحد النسّاخ على إنجيل، نسخه في العام الـ١٦٢٠: «الأمور التي تدعو إلى الصلاح، وتقرّب من الله عديدة. أهمّها الشهادة بالدم. تتبعها الحياة الرهبانيّة، وأخيرًا اقتناء الكتب المقدّسة لمجد الله وللمساعدة على الوصول إلى الخلاص الشخصيّ، وخير الناس الروحيّ».

وقال المطران نورفان زكريان، رئيس الأبرشيّة الأرمنيّة في فرنسا منذ كانون الأوّل من العام الـ٢٠٠٧، في مقابلة أجرتها معه مجلّة فرانس أرميني (العدد ٣٠، كانون الثاني الـ٢٠٠٨)، إنّه يحلم في تجديد حياة الشتات الأرمنيّ الروحيّة والثقافيّة، وأضاف: «عندما كنت طفلاً، كان يغمرني جمال ليتورجيّتنا وعمقها. تتطلّب أجسادنا الروحيّة الاهتمام ذاته والتغذية التي تتطلّبها أجسادنا الأرضيّة... فكيف لنا أن نعتبر ذواتنا أرمن، إذا تجاهلنا كلّ ما وصل إلينا مثلاً من غريغوريوس الناريكيّ، بالنسبة إلى حقائق الحياة الأساسيّة؟ تكمن الإجابة عن تساؤلاتنا في الأبديّة».

وكتب الكاثوليكوس آرام الأوّل، في العام الـ٢٠٠١: «لا تقتصر الروحانيّة على المجال الكنسيّ، بل تشمل كلّ الحياة الأرمنيّة... أدّت كنيستنا، في الماضي، دورًا أساسيًّا في الحفاظ على بقاء الأرمن على قيد الحياة. أمّا اليوم، فعليها أن تقودهم إلى البقاء الروحيّ. لذلك عليها أن تعدّل في اتجاهها، وتمرّ من شهادة متمحورة حول البقاء الجسديّ إلى شهادة متمركزة حول البشارة».

وقال الكاثوليكوس آرام الأوّل، لمناسبة ذكرى ٢٤ نيسان

الـ١٩٩٥، في سياق ذكرى الشهداء: «تموت الأمّة التي لا تتذكّر أمواتها، وشهداءها، الذين أعطوا دمهم من أجل قضيّة مقدّسة».

وفي ختام الحلقة الدراسيّة التي نظّمها مجلس الكنائس العالميّ، في بوسّيه، بالقرب من جنيف، في آب العام الـ٢٠٠١، في الروحانيّة الأرمنيّة، قال الكاثوليكوس نفسه: «بالفعل، تتفاقم الهاوية بين الكنيسة والشعب. يتطلّب هذا الوضع المقلق من كنيستنا إعادة اكتشاف مركزيّة رسالتها الرعائيّة، والإنجيليّة، والروحيّة، وفاعليّتها... على الكنيسة الأرمنيّة أن تُصبح ينبوع تحويلٍ روحيّ ومناقبيّ حيّ، حيث نعود فنكتشف ذواتنا كمسيحيّين، ونعبرّ حقًا كمسيحيّين، ونجد هويّتنا الخاصّة كجماعة مؤمنة تحجّ إلى ملكوت الله... تكمن خدمة الكنيسة الأولى في تعميق الإيمان المسيحيّ في حياة شعبنا اليوميّة، وغمر حياتنا الجماعيّة بالقِيَم الإنجيليّة. جعل الحكم الشيوعيّ في أرمينيا، والثقافة العلمانيّة والكونيّة الحاليّة في بلاد الشتات، من الإيمان المسيحيّ، شيئًا لفظيًّا وحسب. علينا تاليًا إعادة تنصير شعبنا، كخطوة أساسيّة طارئة، في زمن تتراجع فيه القِيَم الروحيّة أكثر فأكثر في حياة شعبنا».

وفي رسالة لمناسبة عيد الميلاد والظهور الإلهيّ، في العام الـ٢٠٠٤، (راجعها في «الكرسيّ الأمّ»، عدد١٦، كانون الثاني - آذار العام الـ٢٠٠٤)، قال الكاثوليكوس كريكين الثاني: «يحتاج الانسان والبشريّة، في عالمنا الذي تطغى عليه المادّيّة والثقافة العلمانيّة المتغيرّتان سريعًا، أكثر من أيّ وقت مضى، إلى الروحانيّة. وهبنا الله نعمة الحرّيّة الروحيّة التي أمطرت على حياة شعبنا البركات. وبقيت الكنيسة الأرمنيّة، في وجود الدولة الأرمنيّة أو عدم وجودها، وطن الأرمن الروحيّ الحرّ...

عندما يعود إيماننا إلى الحياة، تتجلّى حياتنا كلّها، وينمو رجاؤنا، رغم كلّ الصعوبات... نحن مسؤولون عن عصرنا، وسوف يتجدّد بواسطة أعمالنا، ويصبح عصر تجدّد في الحرّيّة، تجدّد في حرّيّة نفوسنا وأفكارنا، وتجدّد لطابعنا المسيحيّ الأصيل».

وفي رسالة، لمناسبة عيد الفصح في العام الـ٢٠٠١ (راجعها في «النشرة الإخباريّة»، عدد ٦، ربيع العام الـ٢٠٠١)، أضاف الكاثوليكوس كريكين الثاني، قائلاً: «ينفتح الطريق أمامنا، ويُضاء بقيامة المسيح... فلنعش على مثال آبائنا، مؤمنين دومًا بالقيامة. وإلاّ ستكون أقوالنا فارغة، ومليئة بالوعود الكاذبة، وتضحي أعمالنا بدون جدوى، وغير ناجعة».

وقال كريكين الثاني، أثناء لقائه بجماعة سان إيجيديو، في روما، في العام الـ٢٠٠٧: «تبرز أكثر من أيّ وقت مضى أوّليّة الوعي الأخلاقيّ، المبنيّ على الروحانيّة والمناقبيّة. وتبدو الروحانيّة، في هذا الإطار، الينبوع الأوحد للقوّة الحيويّة اللامحدودة الآتية من لدن الله، والتي تسمح للإنسان بأن يتجدّد في احترام طبيعته ودعوته، بموجب التدابير الإلهيّة».

الفصل السادس
التقليد الرهبانيّ

التاريخ

ما تزال هناك أمور غامضة في تاريخ بدء الحياة الرهبانيّة الأرمنيّة. لا بدّ من أن يكون حصل اتّصال بالأوساط الرهبانيّة القريبة، في سورية، وكبادوكيا (في جنوب شرق تركيا الحاليّة). ثمّ انطلقت الحركة الرهبانيّة الأرمنيّة في الأراضي الأرمنيّة أوّلاً، بواسطة النسّاك، تبعهم رهبان عاشوا حياة الشركة ضمن جماعات. وكان يعيش النسّاك منفردين، أو في مجموعات صغيرة، في مناسك (آنابات). وتعني عبارة «آنابات» صحراء. وتُدعى أيضًا المناسك «ميناستان»، أي «المكان حيث يعيش فيه المرء منفردًا».

أمّا أوّل ناسك تعترف به الكنيسة الأرمنيّة، فهو القدّيس غريغوريوس المنير (القرن الرابع)، الذي أنهى حياته ناسكًا. سادت الحياة النسكيّة مشهد أرمينيا الرهبانيّ، إلى أيّام الفتوحات العربيّة، في القرن السابع.

أمّا الرهبنات الجماعيّة، فيرُجعها التقليد الأرمنيّ إلى الرسولين تدّاوس وبرثولومايوس، والعذراء هريبسيمه ورفيقاتها. وينسب البعض انتشار الرهبنات الجماعيّة في أرمينيا، إلى أوسطاثيوس (في القرن الرابع)، أسقف سيبستيا، وسابق القدّيس باسيليوس (المتوفّى في العام الـ٣٧٩)، الذي أصبح أسقفًا على قيصريّة كبادوكيا. ويعتقد البعض أنّ القدّيس نرسيس الكبير (المتوفّى في العام الـ٣٧٣)،

كاثوليكوس الكنيسة الأرمنيّة، كان تلميذًا لمعاصره، باسيليوس الكبادوكيّ. ويعتبر ن.غارسويان، في مقالاته الأخيرة، أنّ جميع تلك النسب لا تمتّ بصلة إلى الحقيقة، وليست سوى تأويلات خرافيّة، وترتكز على مغالطات واستنتاجات خاطئة. وبالنسبة إليه، لم تنطلق الرهبنات الجماعيّة في أرمينيا، سوى في أواخر القرن السادس، أو أوائل القرن السابع، آتية من فلسطين، وليس من كبادوكيا، كما كان يُعتقد سابقًا. أمّا الأديرة الأرمنيّة، عند قيامها، فاستعملت قانون القدّيس باسيليوس الرهبانيّ. ويزعم ن. غارسويان أنّه تُرجم إلى الأرمنيّة، في أواخر القرن الخامس، أو أوائل القرن السادس. ولكن لا أثر لجماعة رهبانيّة أرمنيّة اتّبعت هذا القانون قبل أواخر القرن التاسع. وفي دير سيفان، شاع استعمال هذا القانون في القرن العاشر. يبدو إذًا أنّه من الصعوبة بمكان إعطاء صورة واضحة عن بدء الحياة الرهبانيّة في أرمينيا وتطوّرها، ولا بدّ لمزيد من الحفريّات ودراسة المصادر، للوصول إلى صورة أكثر وضوحًا.

وكان القرن الثامن عصر خراب وحروب. ولم تُشيّد الأديرة إلاّ بعد استقلال أرمينيا، في القسم الثاني من القرن التاسع. انطلقت النهضة الرهبانيّة، مع تأسيس دير سيفان، في العام الـ٨٧٤. وساهمت العائلات النبيلة النسب في بناء الأديرة وتطويرها، وفي ما بعد التجّار الأرمن الأثرياء، بواسطة الهبات المتكرّرة التي كانوا يهبونها للرهبان. وضع الملوك والأمراء الأرمن قبورهم وقبور عائلتهم ضمن حرم الأديرة التي ساهموا في تأسيسها.

شهدت أرمينيا، منذ الربع الأخير من القرن التاسع إلى منتصف

القرن الحادي عشر، أي قبل الغزو السلجوقيّ، نهضة رهبانيّة ملحوظة. وأخذت الحياة الجماعيّة تنتظم باضطراد، بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر. وشهد القرنان التاسع والعاشر إنشاء عدد من الأديرة الكبيرة، أمثال ماكينوتس، وغنديفانك، وتاتيف، وأغتامار، وفاراغ، وصناهين، وهاغبات. وتأسّست أديرة أخرى في القرن العاشر، بينها كارراك فانك، والقدّيس توما في غاندزاك، والقدّيس جاورجيوس في غومس. ويعطي إستفانوس التارونيّ، في تاريخه العالميّ، معلومات عن حياة تلك الرهبنات. وشهدت الفترة، الممتدّة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، تجدّدًا كبيرًا في الحياة الرهبانيّة، في أرمينيا، حيث توسّعت الأديرة الكبيرة، وأصبحت مراكز ثقافيّة بارزة. وفي الفترة، بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، تأسّست أديرة جديدة، في كيليكية التي أمّها الأرمن آنذاك، وكان بعضها في جبال طوروس، بمساعدة ملوك عائلتي روبينيان ولامبرون، وأمرائها. وقد عرفت هذه الأديرة نشاطًا فكريًا لافتًا، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

واستمرّت المدارس الرهبانيّة الأرمنيّة إلى أوائل القرن الخامس عشر، في شمال أرمينيا، ثمّ تقهقرت في أواخر القرن. أمّا حول بحيرة فان، في منطقة فاسبوراكان البعيدة عن الاضطرابات، وفي منطقة إيرزنكا، فبقي النشاط الرهبانيّ مزدهرًا، في القرن الخامس عشر، ولكنّه أخذ بالتقهقر، منذ أواخر القرن السادس عشر. مع ذلك، استمرّ عدد من الأديرة في الوجود بعد المحن، وبعضها ازدهر مجدّدًا في ما بعد.

وحصلت نهضة أخرى في بعض الأديرة، في القرن السابع عشر، أمثال ديري تاتيف وإتشميادزين، حيث أعاد بعض الكاثوليكوس

الناشطين تنظيم إصلاح رهبانيّ، ورمّموا قلاّيات الرهبان. وكذلك، رُمّمت أديرة أخرى. وفي بلاد فارس، في دجولفا الجديدة (اليوم أصفهان)، كان دير المخلّص من أنشط مراكز انتشار الروحانيّة والثقافة الأرمنيّتين. وفي القرن الثامن عشر، ما زالت بعض الأديرة تقوم بنشاط في الحقل الثقافيّ، في أرمينيا والقسطنطينيّة. ولكن خفّ نشاط أديرة إتشميادزين، وباغيتش (بيتليس)، وغرب بحيرة فان، ودجولفا الجديدة، في أواخر القرن الثامن عشر. ولم يبق سوى بعض الأديرة، في أرمينيا، في تفليس (الآن تبيليسي في جيورجيا)، وفي القسطنطينيّة، تحافظ على شيء من الحياة الثقافيّة. تحوّلت بعض الأديرة إلى مراكز ثقافيّة تحارب نشاط المبشّرين الكاثوليك والبروتستانت الاقتناصيّ، ومنها دير فاراغ، بالقرب من فان (١٨٥٧)، ودير القدّيس يوحنّا السابق، بالقرب من مونش (١٨٦٢). نُهب، ثمّ هُجر العديد من الأديرة والكنائس الأرمنيّة، في منطقة تركيا الشرقيّة الحاليّة، في أواخر القرن التاسع عشر. وهُدم المزيد من الأديرة والكنائس، في منطقة تركيا الحديثة، أثناء مجازر العامين الـ١٩١٥ والـ١٩١٦. وفي العام الـ١٩٠٩، كان ما يزال يتبع للبطريركيّة الأرمنيّة في القسطنطينيّة، ١٣٤ ديرًا، لكن بعد المجزرة، لم يبق أيّ أثر للحياة الرهبانيّة الأرمنيّة، في تركيا الحاليّة. وكذلك توقّفت الحياة الرهبانيّة كليًّا، في أرمينيا بعد العام الـ١٩٢٠، أثناء اندماج أرمينيا في الاتّحاد السوفياتيّ. تفسّر هذه الأمور انحطاط الرهبنة الأرمنيّة في القرن العشرين. فبعد العام الـ١٩٢٠، لم يبق في أرمينيا سوى ستّة أديرة للرجال، ولا أيّ دير للنساء. واختفت آخر جماعة رهبانيّة نسائيّة أرمنيّة، في تبيليسي، في العام الـ١٩٣٠. وأُهملت، أثناء الحكم الشيوعيّ، معظم الكنائس والأديرة، أو استُعملت كنوادٍ

أو مستودعات. وتسعى كاثوليكوسيّة إتشميادزين، منذ العام الـ١٩٩٠، بعيد البريسترويكا، في العام الـ١٩٨٩، إلى إعادة تنظيم الحياة الرهبانيّة في أرمينيا، في بعض الأديرة التاريخيّة الذائعة الشهرة. أمّا في القدس، وإنطلياس، وإسطنبول، فقد استمرّ التقليد الرهبانيّ قائمًا.

ويؤتى على ذكر راهبات أرمنيّات في الأدب الأرمنيّ، في بعض النصوص القانونيّة والأدبيّة. وتُذكر بخاصّة القدّيسة هريبسيمه (القرن الرابع)، ووالدة القدّيس نرسيس اللمبرونيّ وشقيقته (القرن الرابع عشر). وتُذكر أيضًا بعض الراهبات الأرمنيّات في القدس، والقسطنطينيّة، وتيفليس، ودجولفا الجديدة. أُسّس دير للراهبات باسم القدّيسة كاترينا، في دجولفا الجديدة، في العام الـ١٦٢٣. وكانت تهتمّ الراهبات بفتيات الرعيّة وتربيتهنّ. وفي بطريركيّة القسطنطينيّة، اهتمّت بعض الراهبات الأرمنيّة بالأيتام. ورتبة الشمّاسات معروفة في تقليد الكنيسة الأرمنيّة. وفي العام الـ٢٠٠٨، كان عدد الراهبات الأرمنيّات ضئيلاً، بعضهنّ في إتشميادزين، وفي «عشّ العصافير»، في إنطلياس، وكانت تعيش راهبة واحدة في إسطنبول. وفي العشرينات من القرن العشرين، لجأت نحو أربعين راهبة إلى القدس، لم يبق منهنّ، في التسعينات من القرن عينه، أيّ راهبة مقيمة. ويذكر التاريخ بعض النساء اللواتي مارسن الحياة النسكيّة، مثل سهاكدوخت (القرن الثامن)، وكانت شقيقة الأسقف إسطفان السيونوكيّ، وعاشت في مغارة، في وادي غارني.

حياة الأديرة

لكلّ جماعة رهبانيّة رئيس، هو غالبًا أسقف في الأديرة الكبيرة.

وكان يُعلَّم في الأديرة، ليس فقط اللاهوت والروحانيّة الأرمنيّين، بل أيضًا الفنّ الأرمنيّ. وحافظت الأديرة على الإيمان والثقافة الأرمنيّين، وساهمت في نقلهما عبر العصور. وعاش في الأديرة كبار اللاهوتيّين والعلماء، أمثال إسطفان السيونيكيّ، وحنانيّا وغريغوار الناريكيّين، وغريغوار التاتيفيّ. فيها مدارس، وأمكنة لنسخ المخطوطات، حيث قام الرهبان بنقل النصوص القديمة وتزيينها بالمنمنمات. وكانت بعض هذه المدارس على مستوىً عالٍ من التفوّق، جعلها تستحقّ تسميتها بجامعات. وكان ذلك مثلاً في أديرة تاتيف، ونورافانك، وغلدزور.

في الأديرة الكبيرة عدد من الكنائس، ومكان خاصّ لنسخ المخطوطات، ومكتبة، وقاعات للدراسة، ومطبخ، وقاعة طعام، ومسكن لرئيس الدير أو الأسقف، وصوامع للرهبان، وأحيانًا بيت للزوّار. وبُنيت، ابتداء من القرن العاشر، قاعات مربّعة ومغطّاة، غالبًا مستندة إلى أحد جدران الكنيسة، تُستعمل لإيواء المؤمنين أو لاجتماعاتهم، أو كمقامات تذكاريّة لبعض الشهداء والقدّيسين. وكان يرتفع مبنى ملاصق للكنيسة، ولكن خارجها، يُستعمل أيضًا لاجتماعات الكهنة والمؤمنين، لأسباب دينيّة أو دنيويّة. وتعطي كلّ هذه الأبنية فكرة عن عظمة فنّ البناية الرهبانيّة. وكانت تحاط الأديرة بأسوار للحماية. وكان لا بدّ من ترميم الأسوار مرارًا، عبر العصور، لكونها تضرّرت من جرّاء الحروب والهزّات الأرضيّة. وكثيرًا ما اختفى معظم الكتب والمخطوطات أثناء هذه الحوادث، أو أحرقوا، أو أتلفوا. ومع أنّ أديرة أرمنيّة كثيرة هُدمت عبر العصور، ما يزال منها بعض الكنائس والأبنية، أو أطلالها، في أرمينيا، وإيران، وتركيا. رُمّم بعضها، ويرمّم، بمساعدة أرمن الشتات ومنظّماتهم.

الأديرة الأرمنيّة

يعطي ج.م.تييرّي، في «فهرس الأديرة الأرمنيّة» (١٩٩٣)، لائحة بـ٩٢٠ ديرًا أرمنيًّا، منها ١٧٠ في أرمينيا، و٥٩٩ في تركيا، وثلاثة في جيورجيا، و٤٢ في الكراباخ، و٣٩ في نلخيتشيفان، و٤٩ في أذربيجان، وثمانية في إيران، وعشرة في بلاد القرم.

أمّا أهمّ الأديرة الأرمنيّة، فهي بالتسلسل الجغرافيّ، ابتداء من إتشميادزين في أرمينيا، إلى الجنوب، ثمّ إلى الشمال، فشرق أرمينيا، ومنها في تركيا، وإيران، وبلدان أخرى. وفي كتاب ب. كونييو «البناية الأرمنيّة» (في جزئين، ١٩٨٨)، خريطة مفصّلة للأديرة الأرمنيّة، وخرائط أخرى في منشورات ج. ب. تييرّي، وبخاصّة في كتابه عن «الفنون الأرمنيّة» (١٩٨٧). ولا بدّ من الملاحظة أنّ المعلومات الراهنة عن تواريخ تأسيس بعض الأديرة، أو أنّ أحداثًا مهمّة جرت فيها، غير مؤكّدة، وتستحقّ مزيدًا من الدراسة.

منطقة إتشميادزين

عاش منذ القدم رهبان في الدير الموجود ضمن حرم الكاثوليكوسيّة في إتشميادزين، في أرمينيا. وعرف هذا الدير تجدّدًا في القرن السابع عشر، حيث رمّمه الكاثوليكوس موسى الثالث (١٦٢٩-١٦٣٢)، وخلفه فليبّوس (١٦٣٣-١٦٥٥). وأعاد تنظيمه الكاثوليكوس جاورجيوس السادس (١٩٤٥-١٩٥٤)، في الحقبة السوفياتيّة، رغم الاضطهاد. ورُمّمت الكاتدرائيّة والأبنية الرهبانيّة، في عهد الكاثوليكوس فاسكين الأوّل (١٩٥٥-١٩٩٥). وارتفعت حول كنيستي القدّيستين هريبسيمه وغايانه في إتشميادزين، أديرة شُيّدت

في القرن السابع، ثمّ أعيد بناؤها في القرن السابع عشر. وتُلاحظ منذ بضع سنوات نهضة في الحياة الرهبانيّة النسائيّة في دير القدّيسة هريبسيمه. أمّا في جنوب شرق إتشميادزين، فهناك دير خور فيراب، في أسفل جبل آرارات. ويُدعى هذا الدير باسم «الحفرة العميقة»، نسبة إلى الحفرة التي حُبس فيها القدّيس غريغوريوس المنير، في أواخر القرن الثالث، والتي شيّد مكانها، في القرن السابع، الكاثوليكوس نرسيس كنيسة تذكاريّة. وبني كذلك في المكان ذاته دير محصّن، أعيد بناؤه ورُمّم مرارًا.

على بعد أربعين كيلومترًا جنوب شرق يريفان، دير غيغراد، الذي يعني «الحربة»، نسبة إلى الحربة التي طعنت جنب المسيح على الصليب، والتي هي موجودة بين الذخائر التي يحتفظ بها الدير، المبنيّ على الصخور. من هنا اسمه الآخر: دير الكهف أو المغارة، بسبب كنائس محفورة في الصخر حوله، وكهوف قديمة كان يعيش فيها النسّاك. أمّ هذا الدير الرهبان منذ القدم. ففي العام الـ٩٢٣، هُدم الدير على يد العرب. وفي أوائل القرن الثالث عشر، أقامه مجدّدًا أمراء عائلة زكاريان، وشيّدوا كنيسة كبيرة. ثمّ وضع اليد عليه أمراء عائلة بروشيان، وجمّلوه، في أواخر القرن الثالث عشر، وجعلوا نصبًا تذكاريًّا لهم في الصخور. أصابت المنطقة، هزّة أرضيّة مهمّة، في العام الـ١٦٧٩، أحدثت فيه أضرارًا جسيمة.

وعلى بعد ثمانية وعشرين كيلومترًا شمال إتشميادزين، وبعد خمسة كيلومترات من أستاراك، دير القدّيس يوحنّا السابق، الذي يقول التقليد الأرمنيّ إنّه شُيّد في القرن الرابع، وقُدّمت له آنذاك

ذخائر للقدّيس. وساهمت الأميرة ناديا، في العام الـ١١٩٢، في ترميمه. وعرف، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، نموًّا كبيرًا، نتيجة الهبات التي قدّمها الأمراء. وأطلق فيه رئيسه المثقّف زكريّا، في العام الـ١٦٣٩، نهضة رهبانيّة، وأسّس مدرسة ومكتبة. وفي العام الـ١٦٣٩، كان يعيش فيه أكثر من ستّين راهبًا. رُمّم في العام الـ١٦٥١، بمساهمة تجّار أثرياء، من دجولفا الجديدة. ضربته هزّات أرضيّة مختلفة، في العام الـ١٦٣٨، والعام الـ١٦٧٩، والعام الـ١٩١٨، ورُمّم مرارًا. وبنى كنيسته الرئيسة، بين العامين الـ١٢١٦ والـ١٢٦١، الأمير فاتشيه فاتشوتيان. ويحوط بالدير عدد من الكهوف، عاش فيها النسّاك في الماضي. وعلى بعد خمسة كيلومترات من هوفهانّافانك دير آخر، يُدعى دير الملائكة. بُنيت كنيسته الرئيسة، على اسم صهيون، في عهد الأمير فاتشيه فاتشوتيان، في العام الـ١٢١٥، وبُنيت مكتبته في عهد الأمير كورد فاتشوتيان، في العام الـ١٢٥٥. وكان الدير، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، من أهمّ مراكز نسخ المخطوطات، وكان يُعرف أيضًا بمدرسة الموسيقى الكنسيّة. ورُمّم في منتصف القرن السابع عشر، وأيضًا في أواخر القرن التاسع عشر. هُجر الديران المذكوران أعلاه في العام الـ١٩٠٠.

منطقة بحيرة سيفان

ويوجد غرب سيفان، على بعد نحو ستّين كيلومترًا من يريفان، باتّجاه بحيرة سيفان، وبالقرب من قرية تزاغاكادزور، دير كيتشاريس. أسّس، غالبًا في القسم الأوّل من القرن الحادي عشر، في منطقة يحكمها أمراء عائلة بهلافافوني. وانطلقت روح تجدّد في كلّ أديرة

أرمينيا الشرقيّة، ومن بينها دير كتشاريس، بعد الغزو السلجوقيّ (١١٦١–١١٦٥). وحرّر الدير الأمير زكريّا، في العام الـ١١٩٦. وأسّس فيه ختشدور كيتشاريس مدرسة في أواخر القرن الثالث عشر. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، استمرّت الحياة الدينيّة والثقافيّة فيه، ولكنّه هُجر في ما بعد، بين العامين الـ١٧٠٠ والـ١٨٠٠.

دير ماكينيس أو ماكينوتس، جنوب شرق بحيرة سيفان، بالقرب من قرية ماكينيس، بناه، في العام الـ٨٥١، على أنقاض دير من القرن السابع، الأمير غريغوار سوبان. اشتهر، في عهد رئيسه سليمان، الذي حرّر كتاب الـ«توناكان» بشأن الأعياد الأحديّة وأعياد القدّيسين. حُرق الدير مرّتين، في العام الـ٧٨٤، على يد مروان الذي صار في ما بعد خليفة في بغداد، وفي العام الـ٨٢٧على يد بابان الفارسيّ.

منطقة سييونيك

أهمّ دير في منطقة سييونيك التاريخيّة، من أعمال أرمينيا الجنوبيّة الحاليّة، هو دير تاتيف، الذي يرد اسمه في أوائل القرن التاسع، حيث يُقال إنّه منسك. ولم يكتسب أهمّيّة حقيقيّة سوى في عهد الأسقف يوحنّا الثالث (٨٨٢–٩١٨)، الذي شيّد فيه أبنية كثيرة، بمساعدة أمراء سييونيك. وأصبح الدير مقرّ أسقفيّة سييونيك، وأهمّ مركز ثقافيّ في المنطقة. ويقول المؤرّخ إسطفان أوربيليان، أسقف سييونيك (المتوفّى في العام الـ١٣٠٤)، إنّه عاش فيه أكثر من خمسماية راهب. تحمّل غارات نهب من قبل الأتراك، قُبيل الغزو السلجوقيّ، في منتصف القرن الثاني عشر. حلّ محلّه في الأهمّيّة آنذاك دير نورافنك، وما عاد إلى سابق عهده من الازدهار، إلاّ في القسم الثاني من القرن الثالث

عشر، حيث رمّمه أمراء عائلة أوربيليان. لكنّه هُدم على يد تيمورلنك (١٣٧٠–١٤٠٥). وعرف نهضة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ثمّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ترأسّه غريغوار التاتيفيّ (المتوفّى في العام الـ١٤٠٩)، وهو مدفون فيه. وتضرّر المكان كثيرًا من جرّاء الهزّة الأرضيّة في العام الـ١٩٣١، ولم ينتهِ ترميمه إلى اليوم.

وشمال غرب تاتيف، على بعد أحد عشر كيلومترًا شمال إيغيغنادزور، وبالقرب من قرية فيراسين، يقع دير تاناديفنك، الذي يربطه البعض بمدرسة غلادزنور الشهيرة، التي أسّست نحو العام الـ١٢٨٠، تحت حماية أمراء بروشيان، والتي زالت من الوجود في العام الـ١٣٤٠. ويدعوها مؤرّخ الدير، كريكين هوفسيبيان، «المدرسة العليا» أو «الجامعة». واشتهرت بخاصّة في عهد اثنين من رؤسائها، هما نرسيس ميشيتسي وتلميذه أشعياء نيتشيتسيّ. ولم يبق اليوم من الدير سوى الأنقاض.

دير «ذوي الأعشاب»، شمال غلادزور، بالقرب من إيغيغنادزور، يبعد نحو كيلومتر واحد عن قرية ختسيك. دُعي هكذا نسبة إلى الأعشاب التي كانت تشكّل طعام النسّاك الوحيد، الذين عاشوا في مغاور في جواره. ورمّمه الأمير آشوط السييونيكيّ في أواخر القرن التاسع، كما بنى كنيسة جديدة، هدمتها هزّة أرضيّة بعد وفاته، ولكن أُعيد بناء الدير في العام الـ٩١١. وأمر الأمير صمباط أوربيليان، في العام الـ١٢٥٠، بأن يُصار إلى بعض التصليحات في الدير والكنيسة. وُضع الدير لاحقًا تحت حماية أمراء عائلة بروشيان.

وإلى جنوب غرب إيغيغنادزور، على بعد ثلاثة كيلومترات شمال

شرق قرية أماغو، في وادي فايوتس دزور، يقع دير نورافانك، أو «الدير الجديد». ولم يبقَ شيء من الدير الأوّل، الذي شُيّد في العام الـ٩٣٥. وأصبح الدير، في القرن الثالث عشر، المقرّ الأسقفيّ والكنسيّ لمنطقة السييونيك. وأقامت العائلة أوربيليان نصبًا تذكاريًّا فيه. شيّد الأمير ليباريت أوربيليان الكنيسة الرئيسة، في العشرينات من القرن الثالث عشر. ودُفن المؤرّخ الشهير، إسطفان أوربيليان، في الدير، بعد أن أصبح متروبوليتًا على سييونيك، في العام الـ١٢٨٧. وأحدثت هزّة أرضيّة أضرارًا جسيمة في الدير، في العام الـ١٨٤٠، وهُجر بعدها.

منطقة الكراباخ

وفي شمال غرب تاتيف، وجنوب غرب بحيرة سيفان، ديران مهمّان، في مقاطعة الكراباخ. يقع الأوّل، واسمه دير غاندزافار (من كلمتين تعني الواحدة الكنز والأخرى الجبل)، على تلّة على بعد كيلومترين ونصف الكيلومتر شمال ستباناكيرت. تكلّم عليه أوّلاً الكاثوليكوس حنانيّا موكاتسيّ، في القرن العاشر. وكان هذا الدير مقرّ الكاثوليكوسيّة الأرمنيّة الألبانيّة، في القرن الثاني عشر، كما أنّه حوى نصب أمراء خاتشين التذكاريّ. دُفن فيه أمراء عائلة دجلال، وكاثوليكوس ألبانيا القوقاسيّة، وشخصيّات المنطقة. شيّد الكنيسة الحاليّة الأمير حسن دجلال دولة الأوّل (المتوفّى في العام الـ١٢٦١)، في العام الـ١٢١٦. وكان الدير المركز الأهمّ روحيًّا، وسياسيًّا، وإداريًّا، في المنطقة. وتراجع دوره في العام الـ١٨١٢، وخضع للحكم الروسيّ في العام الـ١٨١٣. وفي العام الـ١٨٢٨، أصبح رئيس الأساقفة بغداسار حسن دجلال (المتوفّى في العام الـ١٨٥٦)، متروبوليتًا على غندزاسار،

فأطلق مجدّدًا مدرسة اللاهوت في الدير، كما أسّس مطبعة. ورُمّم الدير في القرن السابع عشر، وفي منتصف القرن التاسع عشر، وفي العام الـ١٩٠٧. هُجر تمامًا في العام الـ١٩١٠، لكن أُعيد ترميمه مؤخّرًا.

أمّا الدير الثاني، في الكراباخ، فهو دير القدّيس داده، الواقع شمال غندزافانك، بالقرب من نهر ترتار. أسّس كما يقول التقليد الأرمنيّ، في موقع قبر القدّيس داده، أحد تلاميذ القدّيس تدّاوس السبعين، ويقع الآن بالقرب من قرية تشاريكتار. ترجع غالبيّة أبنيته إلى أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر، وهي المرحلة الزمنيّة التي أصبح خلالها الدير مركزًا روحيًّا وثقافيًّا مهمًّا، بمساعدة الأمراء المحلّيّين، الذين دُفنوا فيه. ويبدو أنّه استمرّ ناشطًا إلى أواخر القرن الثالث عشر، وما تزال فيه أبنية قائمة من تلك الفترة. وعرف انحطاطًا ناتجًا من الغزوات المغوليّة والتركمانيّة، ثمّ عاد فانتعش، منذ أوائل القرن الخامس عشر واستمرّ منتعشًا إلى أواخر القرن السادس عشر. ولم يُدوّن أيّ خبر عن هذا الدير بعد تلك الحقبة.

منطقة مدينة سيفان

بنى الراهب ملختوتس، الآتي من ماكينيس، منسكًا على بعد أربعة وستّين كيلومترًا شمال شرق يريفان، وشمال بحيرة سيفان، على بعد ثمانية كيلومترات من مدينة سيفان الحاليّة. وكان ذلك قبل أن يُصبح كاثوليكوسًا (٨٩٨-٨٩٩)، ويجمع الصلوات الصادرة في الكتاب الذي يحمل اسمه. ويمكن رؤية الكنيستين القديمتين المبنيّتين في العام الـ٨٧٤، فوق تلّة تُشرف على البحيرة، واحدة باسم الرسل القدّيسين، والأخرى باسم والدة الإله، وهما الأثر الوحيد الباقي من الدير.

شيّدتهما في هذا المكان الأميرة مريم السيونيكيّة، ابنة الملك آشوط الأوّل بغراتوني، في أيّام ملختشوتس. رُمّم الدير بين العامين الـ١٦٥١ والـ١٧٥٠، لكنّه هُجر تمامًا في أوائل القرن العشرين.

يرتفع عدد من الأديرة في المنطقة الواقعة إلى شمال بحيرة سيفان. ففي منطقة أرتساج، في وادي أغستيف، على بعد ثلاثة وعشرين كيلومترًا من ديليدجان، نجد دير نور جيديك. اشتهر أيّام رئيسه الفاردابيت ميخيتور غوش (المتوفّى في العام الـ١٢١٣)، الذي أعاد تأسيسه، في أواخر القرن الثاني عشر، لأنّ أبنيته هُدمت نتيجة هزّة أرضيّة. وعندها، عُرف الدير باسم غوشافانك. عاش فيه، في القرن الثالث عشر، المؤرّخ كيراكوس الغندزاقيّ، وساعد الرهبان على إعادة تأهيل الدير الذي خرّبه هذه المرّة الغزو المغوليّ، ومات في العام الـ١٢٧٢ في غوش. وخصّص الإصحاح الثاني عشر، من «تاريخ الأرمن» للدير. ونعرف أنّه كان مأهولاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لكنّه هُجر في العام الـ١٨٩٦.

وعلى بعد ثمانية عشر كيلومترًا شمال ديليدجان، دير هاغرتسيك، الذي لا يُعرف تاريخ تأسيسه، إلاّ أنّه رُمّم في العام الـ١١٨٤، ثمّ مرّة ثانية، في أوائل القرن الثالث عشر، وأخرى في أوائل القرن السابع عشر، بمساعدة أهل تفليس الأرمن. وتعود كنيسة القدّيس غريغوريوس إلى القرن الحادي عشر. وتوقّفت الحياة الرهبانيّة في الدير في العام الـ١٨٦٢. ويقع إلى شماله الشرقيّ، دير خوراناشات، الذي يعني «المعابد الكثيرة». بنى كنيسته الرئيسة، بين العامين الـ١٢١١ والـ١٢٢٢، الغردابيت يوحنّا فاناكيان، وكان تلميذًا لميخيتور غوش.

وسبّبت وفاته، في العام الـ١٢٥١، انحطاط مدرسة الدير.

وتتجمّع بقايا دير نورفاراغافنك (دير فاراغ الجديد) الذي بناه الأمير داود كييوريكيان، حول منسك يرقى إلى العام الـ١١٩٣، على بعد ثلاثة كيلومترات إلى جنوب غرب قرية فاراغافان، وإلى شمال شرق يريفان. وبُنيت كنيسة والدة الإله الكبيرة في العام الـ١٢٢٤.

يقع دير باسم القدّيس مكاريوس، على بعد عشرة كيلومترات إلى شمال إيلجيفان، وثلاثة كيلومترات من قرية أتشادجور، ويُرجّح أنّ كنيسته القديمة ترجع إلى القرنين العاشر أو الحادي عشر. أمّا باقي أبنيته، فشُيّدت في أواخر القرن الثاني عشر، وأوائل القرن الثالث عشر: كنيسة والدة الإله في العام الـ١١٩٨، والكنيسة الرئيسة، في العام الـ١٢٠٥، وكنيسة جماتون: قبل العام الـ١٢٢٤. ويخضع الدير الآن لترميم شامل.

هناك ديران ذائعا الشهرة بالاتّجاه الشماليّ الغربيّ، بالقرب من ألافيردي. أسّست دير سناحين الملكة خوسروفانوش، زوجة الملك آشوط الثالث البغراتوني، في العام الـ٩٦٦. وأصبح مقرًّا أسقفيًّا، في العام الـ٩٧٩. وأضافت إليه الملكة هرانوش التاهيريّة، في العام الـ١٠٦٣، مكتبة كبيرة، نهبها السلجوقيّون، في العام الـ١١٠٥. ثمّ أصبح، في السنين العشر الأخيرة من القرن الثاني عشر، ملك أمراء عائلة زكاريان، فأقام فيه الملك زاكار عددًا من الأبنية، كما أقام نصب عائلته التذكاريّ. وكان يسكن في الدير، في القرن الثاني عشر، نحو خمسماية راهب. وأصبح الدير، بين القرنين العاشر والثالث عشر، من أهمّ المراكز الدينيّة والثقافيّة في المنطقة. مال إلى الانحطاط قبيل

الغزو المغوليّ، في العام الـ١٢٣٥، ثمّ انهار بعده.

يقوم دير هاغبات على هضبة، داخل سور، على بعد خمسة عشر كيلومترًا من ألافيردي، ونحو ماية كيلومتر جنوب تفليس. أسّسته الملكة خوسروفانوش، في القسم الثاني من القرن العاشر، أصبح مقرًّا أسقفيًّا، في عهد ابنها، سلبات. أحرق على يد السلجوقيّين، في العام الـ١١٠٥، ثمّ عاد فازدهر، في أواخر القرن الثاني عشر، وفي القرن الثالث عشر، حيث أعيد تأهيل عدد من أبنيته. أمّا مكتبته الشهيرة، فترجع إلى القرن الثالث عشر، الذي كان عهد الدير الذهبيّ. وفي العام الـ١١٩٥، كان يعيش فيه بضع مئات من الرهبان. وكان يقع، بالقرب من أختالا، على بعد نحو كيلومترين، دير يحمل اسم القرية، وكان حصنًا منيعًا بناه أمراء عائلة كيبوريكيان، في القرن العاشر.

شمال شرق أرمينيا ومنطقة آني

في شمال شرق أرمينيا، جنوب مدينة غومري، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات من آرتيك، دير هاريتشافنك، الذي يعود معظمه إلى القرن الثالث عشر، في عهد الزكاريّين. وبعد ترميمه في القرن الثامن عشر، وفي القسم الثاني من القرن الثامن عشر، أصبح مقرّ الكاثوليكوس الصيفيّ. وشُيّد دير مرماشين، الواقع شمال شرق غومري، على بعد عشرة كيلومترات في اتّجاه آماسيا، وعلى بعد كيلومترين من قرية فاهرامابيرد، بين العامين الـ٩٨٨ والـ١٠٢٩، في عهد الأمير فاهرام بهلافافونيّ، الذي أقام فيه نصبًا تذكاريًّا لعائلته. تضرّر المكان كثيرًا من جرّاء هزّة العام الـ١٩٨٨ الأرضيّة، لكنّه في طور الترميم.

تقع الأديرة التالية، والمهجورة كلّيًّا، شرق تركيا الحاليّة، ولم يبق

منها سوى الأنقاض. في عاصمة آني القديمة عدد من الأديرة، من بينها المسمّى بدير «العذارى». وكانت بعضها على مقربة من المدينة، أمثال دير كرمركفانك، وخستونك، ودبريفانك، وهاكادزور، وبيغناير، وهوروموس. وكان هذا الأخير على بعد عشرة كيلومترات شرق آني، وشرق مدينة كرس الحاليّة. بُوشر في بنائه في الثلاثينات من القرن العاشر. ودُفن فيه الملك آشوط الثالث بغراتوني، في العام الـ٩٧٧، وشخصيّات ملكيّة أخرى، وبعض الكاثوليكوس. وكان مركزًا مهمًّا لنسخ المخطوطات، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر. ثمّ عرف فترة انحطاط، لكنّه عاد فازدهر، منذ القرن السابع عشر، بعد الفتح العثمانيّ. لجأ إليه رهبان إتشميادزين، بين العامين الـ١٨٠٠ والـ١٨٠٧. ورُمّم بين العامين الـ١٨٦٨ والـ١٨٧١. وكان ما يزال ناشطًا تحت الاحتلال الروسيّ، من العام الـ١٨٧٨ إلى موعد الحرب العالميّة الأولى. ويرتفع على تلة، بالقرب من كرس والطريق المؤدّية إلى آني، دير بغنير، الذي تأسّس في القسم الأوّل من القرن الحادي عشر، وعرف أيّام مجده في القرن الثالث عشر، ثمّ هُجر، غالبًا في عهد تيمورلنك (المتوفّى في العام الـ١٤٠٥).

منطقة موش

حول مدينة موش عدد من الأديرة، في السهل والجبال المجاورة، أشهرها دير القدّيس يوحنّا المعمدان السابق، الواقع على بعد ثلاثين كيلومترًا إلى شمال غرب موش. ويُدعى أيضًا دير غلاك، على اسم مؤسّسه، رينوب غلاك. وفيما يزعم البعض أنّ تاريخ تأسيسه غاية في القدم، يؤكّد ن. غارسويان أنّه لا يتجاوز القرنين التاسع أو العاشر،

عندما ذكره لأوّل مرّة المؤرّخ أوجتانيس الرهاويّ. أعيد بناؤه مرارًا، بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حيث كان آنذاك مقرًّا لأبرشيّة كبيرة. هُدم في العام الـ١٩١٦.

بالقرب من موش، وعلى بعد أربعة كيلومترات جنوبًا، دير الرسل القدّيسين، الذي يحتفظ بذخائر للرسل، ويُعرف بأسماء أخرى مختلفة. وينسب التقليد الشفهيّ تأسيسه إلى القدّيس غريغوريوس المنير. توسّع كثيرًا في القرن الثاني عشر. وفي أواخر القرن الرابع عشر، دمّرت جيوش تيمورلنك كنائسه. وكان مركزًا مهمًّا، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، لنسخ المخطوطات، وكانت له مكتبة كبيرة. تضرّر كثيرًا في العام الـ١٨٩٥، وأكثر بكثير في العام الـ١٩١٥، وهو الآن خربة.

منطقة بحيرة فان

يقوم عدد كبير من الأديرة، جنوب شرق الأراضي التي سكنها الأرمن قديمًا، بالقرب من بحيرة فان، في مقاطعة فاسبوراكان التاريخيّة. وكان يعيش النسّاك على جزيرتين شمال شرق البحيرة، اسمهما كتوتس وليم، وفيهما أديرة أخرى. كان دير كتوتس مركزًا لنسخ المخطوطات نشط كثيرًا في القرن الخامس عشر. ورُمّم في العام الـ١٤٦٢، واستمرّ في نشاطه حتّى منتصف القرن السابع عشر. بُنيت كنيسته الحاليّة في العام الـ١٧١٣. أمّا دير ليم، فاشتهر بعد العام الـ١٣٠٥، عندما شيّد، فيه زكريّا الأوّل، كاثوليكوس أغتامار، مباني لاحتواء نسخ المخطوطات. عاش الدير نهضة في القرن السابع عشر.

يُقال إنّ دير والدة الإله في غمس، الذي يُدعى أيضًا دير القدّيس

جاورجيوس، الواقع على ضفّة بحيرة فان الجنوبيّة، على بعد كيلومترين من كيميس، أسّسه تدّاوس الرسول. وأصبح، من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، مركزًا بارزًا لنسخ المخطوطات. وكان رئيسه دومًا أسقفًا على كردشكان. أجبر الأكراد رهبانه على مغادرته، في العام الـ١٨٣٠. وفي العام الـ١٩٠٤، بوشر في ترميم أبنيته، لكن هُدمت جميعها في العام الـ١٩١٥.

دير القدّيس توما الغندزاكيّ يقع أيضًا جنوب بحيرة فان، وكان يعلوها. يصل إليه المرء مشيًا على الأقدام، من قرية غندزاك (اسمها التركيّ التينساك) في طريق وعرة، وتدوم الرحلة ساعة واحدة. وكان يتبع الدير كاثوليكوس أغتامار، ولكنّه كان أيضًا على صلة ببطريركيّة القسطنطينيّة الأرمنيّة. وقد نُهب كلّيًّا في العام الـ١٨٩٥.

ويقع الدير الأحمر بالقرب من كيسون، في الجبل الأسود، على مقربة من قرية غورودو كيليسيزي التركيّة، وبالقرب من ضفّة بحيرة فان الجنوبيّة (على مفترق الطريق بين فان وتاتفان)، ويرجع اسمه إلى مُنخر مزيّن بأحجار حمراء، كان يحتوي قطعة من الصليب الكريم. عاش في هذا الدير، الذي يُقال إنّه تأسّس على يد الملك جاجيك، في القرن العاشر، نرسيس الكلّيّ النعمة، ونرسيس اللمبرونيّ، وميخيتارغوش. أحرق كلّيًّا على يد الأكراد، في العام الـ١٨٩٥.

وإذا ذهبنا نحو الجنوب، نصل إلى دير القدّيس يعقوب الرهاويّ، على مقربة من قرية أنزاك. وبحسب التقليد، يُروى أنّه شُيّد لاحتواء أصبع القدّيس يعقوب. ازدهر في عهد مملكة الفسبوراكان. وفي العام الـ١٤١٢، رمّمه إسطفان بير. وبعد تركه، بعيد مجازر القرن التاسع عشر،

هُدم كلّيًّا في العام الـ١٩٦٩، من أجل توسيع الطريق.

وإلى جنوب بحيرة فان، على بعد خمسة كيلومترات جنوب الطريق من فان تاتفان، وبالقرب من القرية المدعوّة ناريك، تأسّس في القسم الأوّل من القرن العاشر، دير ناريك. ترأسّه القدّيس حنانيًا، وجعل منه مركزًا دينيًّا وثقافيًّا مرموقًا. عاش فيه قريبه القدّيس غريغوريوس الناريكيّ، والكاتب الشهير. وكان يقوم الدير بنسخ المخطوطات، في القرن الخامس عشر. ورُمّم في القرن الثامن عشر، وأصبح مقرًّا أسقفيًّا. وأخذ يفقد من أهمّيّته في القرن التاسع عشر، وهُدمت أبنيته كلّها، في العام الـ١٨٩٥.

في جنوب بحيرة فان، يرتفع دير الصليب المقدّس في أبارانك، بالقرب من موكس أو موكوس بالتركيّة، وتُدعى اليوم بهسيساراي. ويذكر تأسيسه موسى الخورينيّ وغريغوار الناريكيّ (في تاريخ صليب أبارانك). بُنيت فيه كنيسة والدة الإله، في العام الـ٩٨٣، لحفظ ذخيرة الصليب، وعرف الدير ازدهارًا ملحوظًا، في منتصف القرن السابع عشر، في عهد رئيسه سمعان. استولى عليه، في القسم الثاني من القرن التاسع عشر، الكرديّ عثمان آغا. وهُجر تمامًا في العام الـ١٨٩٥. ويقع دير كبير آخر، بالقرب من موكس، هو دير المخلّص.

في جزيرة أغتامار، إلى جنوب بحيرة فان، دير آخر حيث بُنيت هناك كنيسة الصليب المقدّس الشهيرة، بين العامين الـ٩١٥ والـ٩٢١، بأمر من الملك جاجيك أرتسونيّ. وكان الدير، من العام الـ٩٣٠ إلى العام الـ٩٥٠، مقرًّا للكاثوليكوس المنشقّ، منذ العام الـ١١١٣ إلى العام الـ١٨٩٥، حيث انضمّت أبرشيّته نهائيًّا إلى بطريركيّة القسطنطينيّة.

وكان الدير المركز الدينيّ الأوّل في المنطقة، لكنّه توقّف كلّيًّا عن العمل في العام الـ١٩١٧. وهناك دير آخر في جزيرة آرتير المجاورة.

وإلى شرق بحيرة فان، على بعد خمسة كيلومترات جنوب شرق فان، وعلى بعد عشرة كيلومترات من قرية بكراش التركيّة، دير صليب فاراغ، المدعو أيضًا دير الصليب المقدّس، وهو من أشهر أديرة منطقة فاسبوراكان. حُفظت فيه ذخيرة الصليب التي أتت بها من أورشليم القدّيسات الهريبسيميّات. استولى العرب عليه مرارًا قبل العام الـ٨٧٠. وبُنيت كنيسة الحكمة المقدّسة، في العام الـ٩٨١. وأمر بتوسيع الدير الملك الأرمنيّ سينيكريم يوحنّا أرتسرونيّ وزوجته خوشوش، في العام الـ١٠٠٣. وبنى الملك أيضًا، بالقرب من بحيرة فان دير القدّيس يعقوب النصّيبينيّ. أمّا دير فاراغ، فاستمرّ ناشطًا بعد الاحتلال العثمانيّ، في أواخر القرن الثالث عشر. احتلّه المغول في أوائل القرن الرابع عشر، وخرّبوه، إلاّ أنّ الرهبان استمرّوا في نسخ المخطوطات. وكان في القرن السابع عشر من أغنى أديرة منطقة فاسبوراكان، لكنّه تعرّض لهزّة أرضيّة في العام الـ١٦٤٨، وللنهب على يد الأتراك، في العام الـ١٦٥١. ومعه انطلقت النهضة الرهبانيّة، قبيل مجازر الـ١٩١٥، حيث نُفي الأسقف والرهبان، وتعرّضوا للعذاب. وتأسّست في الدير خريميان هيريك، المسمّى «هيريك»، أي الأب الصغير، في العام الـ١٨٥٧ مدرسة إكليريكيّة، ومدرسة عامّة، ومطبعة، وأصدرت مجلّة دوريّة اسمها «نسر الفاسبوراكان». ثمّ اعتلى السدّة البطريركيّة في القسطنطينيّة، في العام الـ١٨٦٩، وأصبح كاثوليكوس، في العام الـ١٨٩٢. هُجر الدير، في أوائل القرن العشرين. وأسّست مدرسة إكليريكيّة أخرى في دير أرماش، بالقرب من إزميت، في العام الـ١٨٨٩.

دير فاراغ العاليّ على بعد ساعة مشي من دير فاراغ (المدعو السفليّ)، أخذ يحجّ إليه المؤمنون بعد أن وجد فيه الراهب توديك، في القرن السابع، صليبًا قديمًا كان مفقودًا. وكان يزور الحجّاج أيضًا دير القدّيس غريغوار الكوخبانتس المجاور. ولكن لم يبق شيء اليوم من الديرين.

وجنوب شرق فان، باتّجاه بحيرة أورميا، دير القديس برثولومايوس الأغباكيّ، وهو يقع على ضفّة الزاب الكبير اليُمنى. ويقول البعض إنّه شُيّد في مكان استشهاد القدّيس برثولومايوس. ويُرجِح م. تييرّي أنّ تأسيسه تمّ في القرنين السادس أو السابع. أمّا الأبنية الموجودة حاليًّا، فترجع إلى القرن الثالث عشر. وأعاد رئيسه كيراكوس بناءه، في العام الـ١٦٥١. وتمّ إصلاحه في العام الـ١٧٥٥، وفي العام الـ١٨٧٨. سبّبت هزّة العام الـ١٩٦٦ الأرضيّة، خرابًا كبيرًا في أبنيته. وكان هذا الدير من أهمّ مراكز الحجّ قديمًا.

بالقرب من فان، دير للقدّيس إسطفان، على مقربة من قرية بيرغري (قرية موراديّة التركيّة)، شمال شرق بحيرة فان، ولا يبعد كثيرًا عن دير أرجيلان «السفليّ» (أرجيلنيفانك). ويعود تاريخ تأسيسه إلى القرن الثالث عشر، حينما سكن فيه القدّيس إسطفان (المتوفّى في العام الـ١٢٥١)، وكان ابن تير هوزيك. وكان يحجّ الكثيرون لزيارة قبره. واشتهر الدير، من القرن الثالث عشر إلى السابع عشر، بنسخ المخطوطات.

وجنوب فان، بالقرب من قرية كسريك، اشتهر دير هوغيياتس بأيقونة والدة الإله العجائبيّة، التي كان يحجّ إليها الكثيرون. ويُقال

إنّه تأسّس على يد القدّيس برثولومايوس، بينما يُعيد م. تييرّي تاريخ تأسيسه إلى القرن التاسع. اشتهر بالذخائر التي كانت فيه، وصار مقرًّا أسقفيًّا، وعرف أوجه في القرن السابع عشر. رُمّم في العام الـ١٧٣٠. ونهبه الأكراد في العام الـ١٨٩٥، وهُجر في العام الـ١٩١٥.

أديرة كيليكية الأرمنيّة

ازدهرت في كيليكية الأرمنيّة (جنوب شرق تركيّا الحاليّة) الحياة الرهبانيّة، في عهد الاستقلال الأرمنيّ (١١٩٨–١٣٧٥)، ثمّ اختفت كليًّا. ويذكر الأب ج. مرسيريان، في كتابه «تاريخ ومؤسّسات الكنيسة الأرمنيّة» أنّه وُجد في كيليكية نحو ماية دير أرمنيّ، وأنّه لم يبق منها، عشيّة الحرب العالميّة الأولى، سوى أربعة، واحد في حادجين، واثنين في زيتون، ومقرّ كاثوليكوس كيليكية، في سيس. معظم الأديرة القائمة موجودة في الجبل الأسود، الغيبافور، داغ الحاليّ، الذي يصعب الوصول إليه. وكان الدير الأحمر من أهمّ أديرته.

في هرومكلا، التي كانت مقرًّا للكاثوليكوس، من العام الـ١١٥٠ إلى العالم الـ١٢٩٢، دير ومركز دراسيّ كبير. وتبع أديرة ماشكيفور، والقدّيس جاورجيوس، ودرازارك، وأركاغاغين، عاصمة سيس القديمة. وكان دير أركاغاغين مقرّ رئيس أساقفة ميسّيس أو ماميستيا. هُدم في العام الـ١٢٦٩، من جرّاء هزّة أرضيّة، وأُعيد بناؤه.

اشتهر دير غرنير، غرب سيس، في منطقة برتسبيرت، ومن أهمّ الأديرة في كيليكية، بصورة بخاصّة، في عهد رئيسه الأسقف يوحنّا، أخي الملك هيتوم الأوّل (المتوفّى في العام الـ١٢٨٩). وبقربه، في وادي

سلروس (سيهون)، عدد من الأديرة، ومن بينها دير أكنير (غرب سيس) الذي أسّسه الملك ليون الأوّل (المتوفّى في العام الـ١٢١٩).

وبالقرب من وادي سيدنوس، شمال غرب ترسوس، عدد من الأديرة، أشهرها دير سكيفرا، الذي كان مركزًا مهمًّا لنسخ المخطوطات. بشّر القدّيس نرسيس اللمبرونيّ، أسقف ترسوس، في المنطقة، وترأس دير لمبرون، حيثّ قُبر. وكان يصلّي عادة في منسك قريب من سلغرو، على مقربة من سكيفرا، وينطلق منه للتبشير.

أديرة إيران

في جنوب غرب دير تاتيف الموجود في أرمينيا، وعلى بعد نحو عشرين كيلومترًا غرب ماكو، في إيران دير القدّيس تدّاوس، الواقع شمال تبريز، حيث استشهد القدّيس تدّاوس، بموجب التقليد الأرمنيّ. ويُقال إنّ كنيسة الدير مشيّدة على قبره. وهدمه المغول في أوائل القرن الثالث عشر، وأُعيد بناؤه، في العام الـ١٢٤٧، ثمّ نهبه الأتراك نحو العام الـ١٢٨٥، وخرّبه كليًّا الفرس، في العام الـ١٨١٠. أحدثت أيضًا خرابًا فيه هزّات أرضيّة، حصلت في القرنين الرابع عشر والسابع عشر. ولكن يبدو أنّه ازدهر، من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر، إذ حظي بحماية ملوك غرب بلاد فارس. نُقل مقرّ أبرشيّة أذربيجان، في العام الـ١٨٤١، من الدير إلى مدينة تبريز. وهُجر الدير في العام الـ١٩١٩، ويجري الآن ترميمه.

ويُقال إنّ إستفانوس، أوّل الشهداء، أسّس دير القدّيس إسطفان، بالقرب من دير تدّاوس، وعلى بعد خمسة عشر كيلومترًا

غرب دجولفا القديمة، وبالقرب من نهر أراكس. وكان يتبع لمنطقة ناخيتشفان الأرمنيّة، وقد ذُكر اسمه في مخطوط من العام الـ٦٤٩. وعينّ الكاثوليكوس ختشيك، في العام الـ٩٧٦، رئيس الأساقفة بابكين، حاميًّا روحيًّا له، وموّل آنذاك الملك أشوط بغراتوني بناء الكنيسة التابعة للدير. أمّا الأبنية الحاليّة، فترجع إلى القرنين السادس عشر والتاسع عشر. وفي العام الـ١٦٣٦، دعا الكاثوليكوس موسى سكّان دجولفا وأستابات إلى الاعتراف بمرجعيّة الدير الروحيّة على أبرشيّات المنطقة. وفي العام الـ١٨٢٨، بعد توقيع معاهدة تركمنتشي، بين روسيا وبلاد فارس، بدأ انحطاط الدير، نتيجة هجرة الأرمن من المنطقة. وفي العام الـ١٩١٧، نُهب الدير وهُجر. ويشهد هذان الديران الكبيران على أهمّيّة الوجود الأرمنيّ في هذه المنطقة.

وفي جنوب إيران، في دجولفا الجديدة (أصفهان)، تأسّس دير المخلّص الشهير في الثلاثينات من القرن السابع عشر، على يد الأسقف ختشادور القيصريّ، وفيه مقرّ أسقف أصفهان. وعُرف في الماضي وجود رهبانيّ حول بعض كنائس دجولفا الجديدة. أمّا دير القدّيسة كاترينا النسائيّ، فتأسّس في العام الـ١٦٢٣، وأُغلق في العام الـ١٩٥٤.

أديرة فلسطين الأرمنيّة

في فلسطين ستّة أديرة، ثلاثة منها في القدس، والبقيّة في بيت لحم، ويافا، ورام الله. بني دير القدّيس يعقوب، في القدس، حول كنيسة القدّيس يعقوب القديمة، وأصبح مقرّ البطريركيّة الأرمنيّة. وقد ذُكر، في القرن الخامس، وجود رهبان أرمن في جبل صهيون. وضع راهب

أرمنيّ اسمه أنستاس هاروتيون، في أواخر القرن السادس، لائحة بالأديرة الأرمنيّة الموجودة في المنطقة. ويرأس بطريرك القدس الأرمنيّ جميع الأديرة الأرمنيّة، في الأراضي المقدّسة. وفي العام الـ٢٠٠٨، كان يناهز عدد الرهبان التابعين لأخويّة القدّيس يعقوب الأربعين.

أديرة مصر الأرمنيّة

بحسب روايات أبي صالح الأرمنيّ الأصل، الذي كتب في أواخر القرن الثاني عشر، والمقريزيّ (المتوفّى في العام الـ١٤٤١)، وسواريوس الأشمونينيّ، قامت أديرة أرمنيّة في مصر. وعاش رهبان أرمن في الأديرة القبطيّة، في وادي النطرون، والصحراء الممتدّة بين القاهرة والإسكندريّة، منذ أواخر القرن الحادي عشر، وفي دير القدّيس مقار، في أواخر القرن الرابع عشر. ويروي المقريزيّ أنّه تأسّس في مصر دير أرمنيّ، على الأرجح في أواخر القرن الحادي عشر، لكنّه هُجر قبل العام الـ١٤٤١. وكان موجودًا بالقرب من دير القدّيس يوحنّا الصغير الحبشيّ، في وادي النطرون. ويمكن قراءة كتابات أرمنيّة في الدير الأبيض، بالقرب من صوهاج.

أديرة لبنان الأرمنيّة

في كاثوليكوسيّة إنطلياس أخويّة رهبانيّة.

أديرة قبرص الأرمنيّة

أسّس الأقباط، في العام الـ١٠٠٠، دير القدّيس مقار، شمال قبرص، بالقرب من قرية كيثريا، وأصبح الدير أرمنيًّا قبيل العام الـ١٤٢٥.

واحتلّه الأتراك في العام ال١٩٧٤، قضى حريق على بعض أجزائه، في العام الـ١٩٩٧. وبُنيت كنيسته الحاليّة في العام الـ١٨١٤. وكان يمرّ بالدير الحجّاج القاصدون أورشليم. وكان الحصن المبنيّ في العام الـ١٣٤٦ في فماغوسطا، مركزًا رهبانيًّا مهمًّا، باسم عذراء غنتشفور. هُجر منذ العام الـ١٥٧١، وحرق جزءًا منه الأتراك، في العام الـ١٩٥٧، ولا يمكن الوصول إليه منذ العام الـ١٩٦٤.

أديرة رومانيا وباقي أوروبّا الشرقيّة الأرمنيّة

هناك ديران أرمنيّان في رومانيا، بالقرب من سوسيبافا، هما دير العذراء (هادجغادار)، ودير زامكا، ولكن لا حياة رهبانيّة فيهما. ويؤمّهما الزوّار في عيد رقاد السيّدة، في ١٥ آب من كلّ سنة.

في بلاد القرم، في منطقة كافّا، حيث عاش الأرمن، بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر، ما يقارب عشرة أديرة أرمنيّة، منها دير والدة الإله في كافّا ذاتها، ودير الصليب المقدّس بالقرب منها. أسّس في العام الـ١٣٥٨، وأصبح مقرًّا أسقفيًّا، ما زال قائمًا إلى الآن. أمّا أديرة القدّيس إسطفان، وغمتشيك، والمخلّص، والقدّيسة ثيوذوسيا، فكانت في ضواحي كفّا.

في جيورجيا أديرة أرمنيّة، منها دير للرجال في تفليس (تبيليسي الحاليّة) أُسّس في أوائل القرن الرابع عشر، وهُدم لاحقًا، ولم يبق منه سوى قبّة الجرس.

ملخّص

أدّت الحياة الرهبانيّة دورًا أساسيًّا في التاريخ الأرمنيّ، بالنسبة

إلى التربية، والثقافة، والفنّ. لم يبق سوى القليل من الأديرة، نتيجة الاضطرابات المختلفة التي حلّت بالأرمن، بخاصّة بُعيد أواخر القرن العشرين. وفي هذا الإطار قال لي مؤخّرًا كاهن أرمنيّ: «لقد فقد الأرمن تقليدهم الرهبانيّ». وبالفعل، يُلاحَظ أنّ الحياة الرهبانيّة في الكنيسة الأرمنيّة، اليوم، ليست على المستوى التي كانت عليه في الماضي، مع أنّ البعض يسعى لإحيائها. وفي العام الـ٢٠٠٨، لم يعش رهبان سوى في قلّة من الأديرة، في أرمينيا. ويعيش في هذه الأديرة القليلة المأهولة، عدد ضئيل من الرهبان أو الراهبات. يقطن غالبيّة الرهبان الأرمن في مقرّات الكاثوليكوسيّات أو البطريركيّات، ويعملون غالبًا على خدمة الرعايا والمجتمعات الأرمنيّة، كما يُرسَل بعضهم إلى رعايا الشتات بغية التبشير. لخّص الوضع الكاثوليكوس كريكين الأوّل (المتوفّى في العام الـ١٩٩٩)، قائلاً: «تجمع الرهبنة عندنا وجهي الحياة، التأمّليّة والناشطة. واتّبعت معظم الأديرة الأرمنيّة قانون القدّيس باسيليوس الذي يوفّق بين الصلاة والحياة التأمّليّة، والمطالعة والدراسة، والعمل في خدمة الآخرين».

الخاتمة

جاهد الأرمن في مجابهة الأحداث المأسويّة التي عمّت تاريخهم، واختار العديد منهم أن يتركوا أرض أجدادهم، ويسكنوا في المهاجر. وما لا شكّ فيه أنّ الكنيسة الأرمنيّة أدّت دومًا دورًا موحّدًا، عبر تاريخها الطويل، وبقيت خلال ألف وسبعماية سنة، المؤسّسة المركزيّة في حياة الأمّة، والملجأ الأمين للشعب، وسعت جهدها لتكون الحارسة الروحيّة له.

وكتب إيف ترنون عن الأرمن، قائلاً: «يمرّ السعي إلى جذورهم واستعادة إرثهم بالتفكير في مصيرهم».

وقال الكاثوليكوس فسكين الأوّل، خلال زيارته الولايات المتّحدة، في العام الـ١٩٦٨: «بدون اللغة الأرمنيّة، وآدابها وبدون التاريخ، تكاد الكنيسة الأرمنيّة تخسر هويّتها الروحيّة، وتفقد معنى وجودها الخاصّ. لذلك، تقضي مهمّتكم ودعوتكم، بأن تحفظوا كنيسة آبائنا الرسوليّة بلا عيب وغير متزعزعة».

ويضيف كاثوليكوس كيليكية آرام الأوّل، قائلاً: «على الكنيسة أن تكون حقيقة حيّة ومحيية، في حياة الشعب الأرمنيّ».

وفي محادثات مع ج. غوايتا، قال الكاثوليكوس كريكين الأوّل، واصفًا الشتات الأرمنيّ: «الشتات مكان نواجه فيه باستمرار تجارب الاندماج في المحيط، ومخاطره». واستمرّ قائلاً: «علينا أن نعي اليوم دور كنيستنا التي تحتاج إلى نهضة داخليّة، لا يمكننا تحقيقها إلاّ بواسطة

رجال ونساء مرّوا أوّلاً بعمليّة التجديد الذاتيّ». وختم قائلاً: «لا يمثّل التقدّم البعيد عن الروحانيّة، تقدّمًا حقيقيًّا».

وأوضح الكاثوليكوس كريكين الثاني، في رسالة جامعة، أصدرها في العام الـ٢٠٠١، لمناسبة الاحتفال بالعيد الـ١٧٠٠ لإعلان المسيحيّة دين الدولة في أرمينيا (والمذكورة في النشرة الإخباريّة، عدد ٥، شتاء العام الـ٢٠٠١): «حلّت البركة على شعبنا، في العام الـ٣٠١، من جرّاء رؤية القدّيس غريغوريوس المنير وورعه، فتجلّى بحلول الربّ القائم في بلادنا... قبلنا حقًّا نعمة الله، وتبنّيناها طريقة حياة. وحلّ الرجاء محلّ اليأس، والحكمة محلّ القلق، والتجدّد محلّ الجهل، والشجاعة والتجدّد محلّ أيّام البؤس... يجب أن يستمرّ إرث كنيستنا المجيد في إلهام أهدافنا الوطنيّة، وتوطيد إيماننا، وتغذية أنبل طروحاتنا، وفي حثّنا على الاقتراب من الله. نتذكّر اليوم هذا الإرث المقدّس، الآتي من ماضينا، ونشعر بحضور آبائنا بيننا. أمام هذا التحوّل الحاسم في تاريخنا، من الأهمّيّة بمكان أن نستعيد معنى وهدفًا جديدين لحياتنا، وأن يحرّكنا إيماننا وقيمنا المسيحيّة الحقّ».

أطلق الشاعر فهان تيكييان على الكنيسة الأرمنيّة اسم «الدرع الحجريّ». والكنيسة الأرمنيّة، بالنسبة إلى البطريرك ملاخيا أورمانيا القسطنطينيّ (١٨٩٦-١٩٠٨)، هي «النفس المنظورة لوطن ضاع». وكتب الكاتب هاغوب أوشاغان، قُبيل المجازر، في العام الـ١٩١٥، أنّ «أدبنا الحيّ، ومعموديّتنا الأبديّة»، موجودان في الكنيسة الأرمنيّة.

سلسلة «تعرّف إلى كنيستك»

١- آراء أرثوذكسيّة في الكنيسة	مجموعة من المؤلّفين
٢- الأرثوذكسيّة في الكراسي الشرقيّة	جورج خضر
٣- الكنيسة والدولة	خضر ترويتسكي
٤- الرؤية الأرثوذكسيّة لله والإنسان	جورج خضر
٥- العبادة الفرديّة والعبادة الجماعيّة	جورج فلورفسكي
٦- الفقر والغنى في الكتاب المقدّس وعند الآباء	جورج خضر
٧- العائلة... كنيسة	إفدوكيموف بندلي
٨- كن كاهني	ليف جيلّله
٩- آراء أرثوذكسيّة في والدة الإله	مجموعة من المؤلّفين
١٠- الكنيسة الأرثوذكسيّة، في الماضي والحاضر	كاليستوس وير
١١- الكنيسة الأرثوذكسيّة، إيمان وعبادة	كاليستوس وير
١٢- زمن التريودي	هزيم، جيلّله، توراي
١٣- الكتاب المقدّس وحياتنا الشخصيّة	مجموعة من المؤلّفين
١٤- من أجل فهم أفضل للقدّاس الإلهيّ	ليف جيلّله
١٥- الروح القدس	مجموعة من المؤلّفين
١٦- الأسقف في الكنيسة	مجموعة من المؤلّفين
١٧- الحياة الرهبانيّة حياة التوحّد	رهبنة دير الحرف
١٨- زاد الأرثوذكسيّة	أنطونيوس آليفيزوبولوس
١٩- المفهوم الأرثوذكسيّ للحقّ القانونيّ	سمير غلام

٢٠- كنيسة الروح القدس نيقولا أفاناسييف
٢١- مدخل إلى العقيدة المسيحيّة بندلي ومجموعة من المؤلّفين
٢٢- الفكر الكنسيّ الأرثوذكسيّ إيروثيوس فلاخوس
٢٣- الكتاب المقدّس والكنيسة والتقليد جورج فلورفسكي
٢٤- الرؤية الأرثوذكسيّة للإنسان عدنان طرابلسيّ
٢٥- اللاهوت الصوفيّ للكنيسة الشرقيّة فلاديمير لوسكي
٢٦- كنيسة المشرق العربيّ جان كوربون
٢٧- إيمانك خلّصك جان يوننيش
٢٨- عودة إلى الإيمان مايكل هاربر
٢٩- الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة ١ كريستين شايّو
٣٠- الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة ٢ كريستين شايّو


تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع
AN-NOUR COOP